كتاب التجليات

جمال الغيطاني



دار المستقبل العربي



جمال الغيطاني



دار المستقبل العربي

الطبعة الاولى

١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م

المستقبل العربي للنشر والتوزيع

٤١ شارع بيروت ـ مصر الجديدة

القاهرة ـ ت : ٦٦٥٩٠٠

«بسم الله الرحمن الرحيم»

عفوك، ورضاك، يا غفور، يا كريم
يا رب

. . فلما رجعت بعد أن لم أستطع صبراً، وكيف أصبر على ما لم أحط به علما، لما اكتمل إيابي، فرغت إلى نفسي استعيد واسترجع بينها زمن المحن يلوح ويبدو، صرت في بوار، لا تطمئن بي دار، ولا يستقر لقراري قرار، صرت متحركاً وساكنا، بعد ان كنت أشبه بطير، أطير من غصن إلى غصن، والغصن الذي انطلقت منه هو الذي يطير عني، عدت محدودا بعد ان كنت طليقا، وكل محدود محصور، وكل محصور عاجز، رجعت بعد ان كنت الطالب والمطلوب والعاشق والمعشوق فلم يكن رحيلي إلا بحثا عني ولم تكن هجرتي إلا منى وفيّ وإلّي، كدت أصل إلى أصلي، كدت انفذ إلى أسرار النار والنور والليل والنهار والشمس والقمر والبرق ونسيم الصبا وخلق الندى والرجع والصدى والغايات وسلمى وليلى واختفاء الشفق وتعاقب الفصول، كنت قاب قوسين أو أدنى، لكن غشى عينّي ما يغشى، لم أستطع صبرا، وكيف أقدر على ما لم أحط به خبرا. عدت بعد أن نعمت بأجمل صحبة وأنعم عليّ مولاي بالرفقة، بعد ان علمني بعضاً مما لا أعلم. رجعت بعد فراقي

للأهل والوطن، بعد أن قطعت اليباب واخترقت الحجب وتساقطت أمامي كل الحواجز التي لا تقدر على اجتيازها الطبيعة الإنسانية، وأنا مفطور على الرحيل الأبدي، فلا استيطان لي اصلاً وأبداً، رجعت فهان عليّ أن يتلاشى كل ما رأيت، فعكفت، ودونت، لعلى آتى مما رأيت بقبس، أحياناً وضحت، وأحياناً فصلت، وأحياناً رمزت ولوحت، سترت وما أفصحت، لكنني بعد ان امتلكت بياني. وكدت انتهي من الكتابة، خطر لي خاطر، أن أفرغ يدي من هذا الأمر الجلل خوفا من قلة التحقيق وعدم قدرتي على التدقيق، فعزمت، ومزقت كل ما دونت، شتته، وذريته، وصار كأنه لم يكن، صار نسيا منسيا، صار أثرا مندثرا بعد أن كان مسطورا، وتساءلت، هل أتى عليّ وعلى تجلياتي حين من الدهر لم نكن شيئاً؟ وعلى أثر ذلك غربت نجوم عزائمي وفترت همتي، ولفتني ذكريات دوامس، وأصبح اللعاب مرا في فمي.. وفجأة، عند ساعة يتقرر فيها الفجر، صاح بي الهاتف الخفي...

يا جمال..

انتبهت، فإذا بنور ساطع يشرق في ليل نفسي، نور ليس مثله مثل حتى ظننت اني عدت إلى مركز الديوان البهي، ثم رأيت في بؤرته ثلاثة وعلى مسافة خلفهم ثلاثة، وفي منتصف المسافة بينهم واحد، أما الثلاثة الأول فيتوسطهم حبيبي وقرة

عيني ورفيق تجلياتي وملاذ همومي ومقيل عثراتي، أمامي الحسين سيد الشهداء، إلى يمينه أبي وإلى يساره عبد الناصر، أما الثلاثة الواقفون إلى الخلف فملامحهم متغيرة، تارة أرى ابراهيم ومازناً وخالداً، وتارة أرى أمي وأخوتي وعيالي، أو جدتي وخالي وبعض أصحابي وقلة ممن أحببت أو عادوني أو أشخاصاً عرفتهم لمدة طويلة أو لفترة وجيزة أو وقعت عيناي عليهم في لحظة مجهولة عند مروري بمقهى أو تطلعي إلى شرفة. أما الواحد الواقف في المنتصف فعرفت فيه مولاي الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي.. حدق إلى الحسين بنظر ثابت جميل فتعذر النطق عليّ وان تلوت في خاطري:

ومن عجب اني أحن إليهم
وأسأل شوقا عنهم وهم معي
وتبكيهم عيني وهم في سوادها
ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

أذن سيد الشهداء فتقدم مني الشيخ الأكبر محيى الدين، خطا نحوي وهو في موضعه، لم يفارقه، كذلك لم أفارق مكاني وان صرنا في مواجهة، نظر كل منا إلى الآخر وقتا طويلا في صمت، ثم غضضت البصر فانفصلنا دون النطق بكلمة، ولكن بعد أن فهمت الأمر وأدركت البشارة، انحسر النور، ذهبوا عني، غير اني امتثلت، فعكفت على اعادة تدوين ما كتبت، فكان هذا الكتاب الذي يحوي تجلياتي وما تخللها من

أسفار ومواقف وأحوال ومقامات ورؤى، وهذا كتاب لا يفهمه إلا ذوو الألباب، وأرباب المجاهدات، أما إذا أظهر البعض استغلاق الفهم أو الملامة فانني أتلو: ﴿قال فما خطبك يا سامري، قال بصرت بما لم يبصروا به﴾ صدق الله العظيم. . .

التجليات الأولى

وهي

تجليات الفراق

تجل ساطع

لو أعرف للفراق موطنا، لسعيت اليه، وفرقته..

تجلى التمام

.. بعد أربعين دورة من دورات الأفلاك، تجلى لي أبي في اللامكان، والزمان العجيب، أفق مضموم غير منبسط، وأبعاد مدركة بالحس فلا ترى. وجدران مشيدة من مواد لا نعرفها، ليست خشباً، أو طوباً، أما السقف فمن شعاع أحمر، درجة منه منعزلة متفردة، يجلس أبي، يواجهني بوضع جانبي، تلك جلسة لم أعتدها منه. خطوت تجاهه بقلب خافق، واقبال دافع، لكن عند حد معين، توقفت، عرفت انني لا يمكنني الخطو، لم أحاول فوقفت، يتجلى أبي في ثياب دنيوية. قميص أسود من الصوف، بنطلون أسود، شعره ناعم، مسترسل، طويل، ملامحه شابة، مستريحة، راضية، وقدرت انني أرى وجهه عندما كان في العشرينيات، خلواً من التجاعيد. من سحابات الهموم، تطلع الي وتطلعت إليه. شبع مني، ولم أرتو

منه، لكن دنا الأبدي، فطلبت الكلام، وإذا به ينطق، يصل صوته إلى مسامعي، صوت ذو وتيرة واحدة، خلو من التنغيم، حدثني بلهجة من يدلي ببيان من المذياع إلى مستمعين لا يراهم، وآخرين عنه لا يعرفهم، قال فاستوعبت، نطق المحبوب فدونت..

«.. لا تقلق عليّ يا جمال، لا تحزن، كان موتي مريحا فلم أعان، انتهى الزمن القديم والحديث في سبع دقائق، ما قالته أمك، وما حدثك به أخوتي صحيح.. فلا يضيق صدرك، المهم.. اخبرني، ماذا انتم فاعلون»؟.

وذهب أبي..

شرح ذلك التجلي

.. من شرفة البيت أطل، لوحت بيدي فرد وردوا، مضيت وعند ناصية الشارع استدرت فرأيت ملامحه ترنو. وضعه السكوني، كان يرقبني، ولم يخطر ببالي الكليل خاطر، ولم ينفذ نظري المحدود عبر الغيب، فمشيت، وفي اليوم التالي سافرت، وتنقلت، ورأيت، وقابلت، ابتهجت، وعملت، واستمتعت، ومن حين إلى حين فكرت فيه وتذكرت، وأخيراً عدت، في المطار استقبلتني زوجتي ضاحكة مبتهجة، استفسرت، فقالت ان الجميع بخير، كلهم بخير، بعد وصولي البيت، بعد أن قبلت طفلي النائم. وفردت الهدايا،

لاحظت تبعثر نظراتها فسألت. ترددت فوجفت، الححت فارتبكت، ضاق صدري بصدري، الححت، الححت، فتطلعت اليّ بعينيها الواسعتين. .

والدك. . تعيش انت. .

تجلٍّ خاطف

ولما بدا الكون الغريب لناظري، حننت إلى الأوطان حنين الركائب.

تجلي المستحيل

. . رأيت جمال عبد الناصر، المكان محدد، والزمان معين، رأيته في ميدان الدقي. أول الثمانينات، التي كانت بعيدة، وتولى الآن كأطياف، من قبل لم أره إلا مرة واحدة، يعبر شارع رمسيس. أقف فوق الرصيف. مر أمامي. بدا قريبا جداً مني. خيل إليّ أنه رمقني من خلف زجاج سيارته. ومن قبل رأيته في يومي العيدين، الكبير والصغير. لم يكن العيدان يكتملان إلا عندما نشب على أطراف أصابعنا، ونرقب ظهور الدراجات البخارية. وسيارات الحرس، ثم عربة المصورين، ثم يهل على المحتشدين، بفوديه مشيب، تحيطه لمعة، فلا ترى إلا هو. في تلك السنوات كان أبي يحمل أخي الأصغر، ثم يطاول بعنقه الواقفين، في هذا التجلي رأيته بلا حرس. بلا

مصورين، بلا ضجيج لكنه بدا شاهقا خارج الزمان الأرضي. يفوق وجوده المادي بوجود غير مرئي. الناس حوله ماضون. لا ينتبه أحد. لا يلتفت أحد. اندفعت تجاهه، رأى اقبالي، تحول بعينيه ناحيتي، ولاحظت أنه منهك، متعب، قلت محملا صوتي معاني الحنين الذي لا يمكن تفسيره، والتفسيرات المطلوبة، والكلوم المدفونة..

ايه.. كيف حالك.. مالك؟.

هل تعرفني..

ومن لا يعرف من لا يعرف؟..

هز رأسه، وهنا لاحظت أن المشيب طق في رأسه كله.

اذن.. أنا في مصر..

دهشت.. صاح..

ولكني أرى ما لا يجب أن يرى:

توقف لحظة، ثم بدأ ينطق مستخرجا كلماته من خزائن الحيرة والتساؤلات..

هل اخترق الاسرائيليون الجبهة؟.

قلت: لا.

هل وصلت جيوشهم إلى القاهرة؟.

قلت: لا.

قال، ماذا أرى اذن؟ فسر لي، اشرح لي، تأخرتمونا في الزمان، وتقدمناكم، أجبني، اليست هذه أعلامهم؟ أليس

هؤلاء سياحهم؟ أليست هذه كتبهم وصحفهم؟.

قلت: هذا حقيقي، انني ضد ذلك، ولكنني لا أجاهر خوفا وتقية..

قال متعجبا: ماذا جرى؟ هل انقلبت الآيات؟؟ بدا صوته غريبا، بدا غير حقيقي، سألت نفسي يوما، أحقا عشت زمانه؟ هل رأيت عنه وله؟ لكن ها هو أمامي، لاحظت أن الناس يتجمعون، بعضهم يحدق، وان منهم من أدرك فولى، ومنهم من عرف فدنا، قلت والجمع يتزايد..

سأشرح لك.. ولكن فوق كل ذي علم عليم..

تجلى الأماني

قال تعالى: ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ صدق الله العظيم.

أماني النفس حديثها بما ليس عندها، صاحبها خاسر، يلذ له الزمان بها، فإذا رجع مع نفسه لم ير في يده شيئاً، فحظه كما قال من لا عقل له..

أماني أن تحصل تكن أحسن المنى
والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

تجلى الانتصار

.. سريت في النور الأخضر، في زمن الزهور المرجو، فرأيت نفسي أخرج من مدينة رباط الجميل عند شاطىء

المحيط، أرحل، وأعبر الحدود بلا راد أو مانع، دخلت سيناء الأبدية، ورأيت آثار الحرب القديمة، وهياكل الدبابات. واستعدت لحظات اختراق الشظايا الجسد الانساني، وصرخة الألم. وتذكرت أيامي عندما عملت مراسلا حربيا. أنقل إلى من لا أعرفهم ما يجري. ما يقوم به أبناء الوطن، كان من الممكن أن أموت في تلك الأيام التي لا يذكرها انسان الآن، كنت سأصبح نسيا منسيا في زمن السوء، وزمن التجليات، استمر سرياني في الشعاع الأخضر، عبرت سيناء، سلكت طرقا ممهدة إلى الدهر الفلسطيني. رأيت اللافتات عربية، والمقاهي، والضحكات، والحياة اليومية ومررت بمدن بدت لنا كحلم لطول ما انعزلت عنا، ورأيت بقايا حروف عبرية على لافتات صفراء تركت كذكرى وعبرة. كل شيء عاد إلى أصله، و«ان عدتم عدنا»، قال دليلي لماذا تقرأون ثم تنسون؟ هل نسيتم أن عدة ممالك قامت هنا تحت علامة الصليب، واستمرت ما يقرب من قرنين، جيوش، وخيول بريد، ونظم، وأجهزة دعاية، وأمراء، وأتباع، وفرسان الداوية، ثم زال هذا كله، لم يقل أهل ذلك الزمان بالأمر الواقع. تنبهت إلى الغضب في صوت دليلي، تنبهت إلى شحوب اللون الأخضر، إلى أن أوان التجلي ينذر بانتهاء، رأيت أبي، هو دليلي ومرشدي، بدا متعبا، كما رأيته دائمًا في الأعوام الأخيرة. السنوات التي لم أدرك في حينها أنها أخيرة، انتبهت إلى بناء قديم، مدخله غريب كأنه لا يؤدي إلى شيء، جدرانه من الدبش، خلو من

النوافذ، قال «أنذرتكم ولم تنتبهوا، أبديت الاشارة تلو الاشارة فلم تعقلوا، نبهتكم فتجاهلتم، حاولت فتعاميتم، لماذا الحزن؟».

ولى بوجهه الأسيان، نأى صوته عني، تختفي نبراته وتضيع. «على أي حال، سيأخذ الحزن وقته، ثم يولي كل شيء..» هممت بالرد، فثقل لساني..

تجل يقيني

.. ما من شيء يثبت على حاله، لوحدث ذلك لصار العدم، كل شيء في فراق دائم، المولود يفارق الرحم، الانسان يفارق من دنيا إلى آخرة مجهولة بلا آخر، البصر يفارق العين إلى المرئي، ثم يفارق المرئي إلى البصر، الليل يفارق النهار، والنهار يفارق الليل، والساعة تفارق الساعة، والدهر يفارق الدهر، الذرة في فراق دائم عن الذرة، الجسد يعانق الجسد ثم يفارق، يولج القضيب في الفرج، ثم يفارقه، تنبت الأوراق غضة، خضراء، ثم تفارق الأغصان، الفكرة لا تلحق بالفكرة، والصورة لا تمكث في الذهن، يجيىء شتاء، ويجيىء صيف، ثم ربيع، ثم خريف، كل يفارق إلى حين، كل في فراق دائم، الذات تفارق الذات، حتى الأشياء التي ظننا انها باقية أبدا، حتى الأيام التي اعتقدنا انها لن تتبدل قط، ولن تتغير، ولن تزول، كل شيء، كل شيء في فراق، كل شيء يتغير، كل شيء يتغير. فلنفهم!.

تجلى المحاولة

.. تجلى لي عبد الناصر ثانية، بدا غاضبا، لكنه يفعل، أمر بتنكيس أعلام الأعداء، وإزالته من فضاء القاهرة، أمر بالقاء القبض على جميع أفراد العدو المتواجدين في الديار، من سفير وأعضاء سفارة، ومندوبين، وممثلي هيئات، وجواسيس، ورسم باعتبارهم أسرى حرب، أمر، وأمر، لم يمتلك قلما وشعارا يوقع به، انما طاف بالميادين يزعق، يصيح، فالوسائل معدومة، والحيلة واهية، والقدرة قصية، والوجوه غريبة، والسحن غير معهودة، والأيام غير الأيام، والزمن خلاف الزمن، كان باستطاعته أن يبصر ما لا يبصره الآخرون، أخذه الهول، وتملكه جزع، ما يراه لم يتخيله يوما في صحو أو منام، ما يدور قاس، عبر النهر، ولمح أطياف الأهرامات وتجلى في الميدان الكبير، رآه غيري، لم يصدقوا عيونهم، ولى بعضهم فراراً، وامتلأوا منه رعبا، وتعلق به آخرون، اعتقدوا فيه، مشوا خلفه، بثوه، شكوا اليه، وعاتبته عجوز عمياء ادركت صوته، فشا الخبر في الخلق، هرول مراسلو الصحف الأجنبية، استقصوا، واستفسروا وتحلقوا، ودنوا، ظهرت الأخبار في موجزات الأنباء، وقع الاضطراب في أسواق النقد العالمية، اهتز الدولار، واضطرب الاسترليني، وازدهر الين، استنفر الناتو والساتو، وأعلن زعماء حيروت والمابام وما شابههما، انها الحرب! ، من الحواري خرجت النسوة حاسرات، مصفقات، ضارعات، شاكيات، خرج جمع من هنا وجمع من هناك،

وأحجم قـادة مراكز الشرطة عن اتخاذ قرار انتظاراً لما ستسفر عنـه الأحـوال، ارتجفت صـدور، واينعت قلوب، واختلف آخـرون، وفجأة خـرج جند كثيف، أعمـارهم تدور حـول العشرين، يقودهم ضابط يرتدي رداء أسود غـطيس، حلة غريبة، مليئة بالجيوب، والطلقات، يمر بمرحلة الزهو بنجمتي الرتبة التالية للتخرج والمخايلة بـالزي الغـريب المستحدث، أشهر خنجرا، دفع عبد الناصر في صـدره، أوماً، فتـدافع الجند، اقتادوه فتفـرق الخلق، نزل صمت بغيض، ثقيـل، فاينعت الهموم، وتدفقت مياه جديدة في أنهار البلوى . .

ترتيل

﴿ وشروه بثمن بخس، دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ .

﴿ والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

صدق الله العظيم

تجلي الكدد

رأيت محمد أحمد بن أياس الحنفي المصري، بدا مهيبا، تفوح منه رائحة الريحان الذي ينمو فوق المقابر، بالضبط كما تخيلته وأنا أقرأ بدائع الزهور في وقائع الدهور . .

جئتك من قبل . .

قلت:

أذكر عودتك في عام الهزيمة.. لكنك تركتني.

قال:

ينأى الحكيم عن حميمه اذا أوحشت الدار..

قلت:

القلب سليم، والود بين جوانحي مقيم..

سألني..

لكنني أراك مكدودا.

قلت:

مات أبي وأنا في غربة، لم أر اغماضة عينيه، ولم أحمل جثمانه، ولم أشهد لحظة مواراته، ولم أدر، ولم أعرف، ولن أدرك ماذا رأى في اللحظات الختامية، أو أي الصور أو الأطياف التي تجلت وتبدت له..

قال:

هل لك علامة؟.

قلت:

ثقل قلبي حتى موتي..

قال:

يا حبيبي، لا تحجبنك الحيرة عن الحيرة، اني للمقيد بمعرفة المطلق.

قلت:

زدني يا خلي..

قال:

تجل وتجل، ان النائم يرى ما لا يراه اليقظان!!.

ثم ذهب..

تجلى مغربي

.. تجليت لنفسي وأنا على سفر، أقف فوق رصيف قطار، أدخل إلى القطار، أرى أبي فوق الرصيف، أنه أكبر سنا من أي مرة تجلى لي فيها، غائر العينين، تلك النقطة من العمر عندما يمتزج سواد العين ببياضها، انحنى، امسك طرف جلبابه بأسنانه، يحمل عدة حقائب، كلها مليئة بالكتب، صحت..

أبي.. هل سأحتاج هذه الكتب كلها..

أومأ، قرأت شفتيه.

انت على سفر طويل.

ثم تلفت حوله، بدا حمله ثقيلا، والحمل يخصني، فتعجبت، ثم تحرك القطار، بعدت، ولم أعد قريبا منه، ازداد النأي، وبدأ زمن الفراق والفقد من قبل أن أعد له العدة، حلت ظلمات، ثم تجلى أبي داخل قصر قديم منمنم الجدران، فيه نخل وصبار وريحان وزهور صفراء لم نعهدها، قصر لأحد أقاربه، أحد أعمامي، من أين عرفت؟. لا أدري.

حال بيني وبينه الحاجز اللامرئي، حوله بساط من سندس أخضر، وفي السماء ألوان لا أسماء لها في لغات دنيانا، أخبرني

أن المكاشفة لم تتم بيننا في دنياه، رحل وأمور عديدة لا نعرفها عنه، قلت، اضرب لي مثلا، فقال، كان لـي أخوان، مات أكبرهما في طفولته، لسبب لا نعرفه، ومات الآخر في بداية فتوته عندما كان يسحب بقرة، جرجرته فجأة، سحلته، قلت، انت لم تقص علينا ذلك. قال، وانتم لم تهتموا، ولم تسألوني، ثم قال، دقق النظر هناك تستطع أن تـراهما، ولكنني عبثـا حاولت أن أرى، عبثا حاولت أن أسمع، انتبهت إلى تزايد المسـافة بيننـا، واحتويت القصـر الذي يحتـويني، كان القصر مغربيا، والمنمنمات اندلسيـة، ولىَّ بوجهـه عني، قال كمن يحدث آخرين، كنت أباكم، وأنتم أبنائي، شببتم، وأصبحتم رجالاً، وفتحتم بيوتاً، ولم تعرفوا شيئاً عني.

شرح

فما للانسان يتجاهل ويعمى، ويمشي في دجنة ظلها، حيث لا ظل ولا ماء؟.

تجلى الأرض والزمان المتغير

.. تلك رقعة محدودة، عند المفارق، وآه من المفارق، في طريقي اليومي الذي اعتدت أن أسلكـه، وطئتها أقـدام لم أرها، وستخطو فوقها أقدام لا تزال في رحم الغيب، كانت رمالا وصخرا ومن قبل لهبا، والآن مرصوفة بالأسفلت، وبعد

بناء مدينتي أصبحت مروية، نضرة بالخضرة، ملاعب للخيل، ثم صارت متنزها حتى أوائل القرن الماضي، نما العمران، وتكاثرت المباني، وجاء الترام، لكن طال الوقت أو قصر، لن تنصب المباني إلى ابد، ولن تبقى المفارق، ستعلو مبان وقد لا تشيد أخرى وربما انطلق منها الانسان يوما إلى الفضاء الخارجي، يلاحق الأفلاك في مساراتها، ربما داسها أبي مرارا في سعيه اليومي، وقد يدوسها أحد ابنائي، أو واحد من أحفاد أحفادي، انسان منحدر من صلبي لن يسمع عني، ولن يدرك أبدا ما عانيت في زمن السوء، لأن اسمي سيتساقط كورقة جافة من شجرة الأصل والسلالة، كما تساقط الذين سبقوني من أجداد جدودي، آه لو تجلى لي أحدهم، عاش منذ آلاف الأعوام، من هو؟ كيف عاش؟ بمن ارتبط؟ اصغى الى من يقول، وان عدتم عدنا، أدرك ان العودة محال، لأن الدنيا في فراق دائم عن الدنيا، أبصر رقعة الأرض في سفرها عبر الزمن الذي لن أعيشه، أرى تدفق الحركة فوقها بعد فراقي النهائي، وأتمنى لو أثبت رسالة أو علامة فوقها لمن سيطؤها، لمن سيعبرها، لعل وعسى..

تجلٍّ غامض

رأيت عبد الناصر، مكشوفا، حاسرا، مبهدلا، أقبلت عليه وعندما تكلم، تكلم بصوت أبي.

قال لي: نعم..

قلت له: نعم..

فبش وهش لفهمي عنه، وعندما أدركت سر فرحه، قلت له: لا..

فارتجف، وتغير لونه، وشك فيما عنده.

قال لي: كيف وجدتم الأمر؟.

قلت له: سوء ما بعده سوء.

ضرب بيني وبينه حجاب رقيق.

قلت له: لماذا؟.

غمغم، وتمتم ولم يحر جوابا.

قلت له: لماذا؟ لماذا؟.

شغل بنفسه عني، فقلت عاتباً: لماذا، لماذا، لماذا؟.

تجلى الحزن

«.. هذا فراق بيني وبينك».

تجلى الشهيد

رأيت نفسي في مركب بلا شراع، تطلعت إلى موج البحر، فجأة رأيت شخصا على بعد، مشى على وجه الماء، لمحت طريقة خطو أبي، تكلم فأصغيت إلى صوت صاحبي الذي استشهد يوم الجمعة، التاسع عشر من أكتوبر، في الحرب التي قيل انها آخر الحروب، عجبت واضطربت فارتج عليّ، الجسد

لأبي، انحناءة كتفيه لا أخطئها أبداً، أما الصوت فلصاحبي الذي عرفته، واحتميت معه بـظلام الليل خلف الكثبـان، عندما عبرنا الخليج والقناة إلى خـطوط الأعداء، قـال، أنا غاضب، قلت له، لماذا يا مقتول بشظايا العدو الذي أصبح صديقا؟ قال، لأنك لا تطل على امرأتي وعيالي، ثم اختفى، رأيت نفسي ماضيا لزيارة اسرة صديقي الشهيد، دخلت البيت بعد غيبة سبع سنوات، شممت رائحة استقرار، طبيخ متقن وأثاث في الظل ومبيدات حشرية وعطر، تقدمتني زوجته، بدا وجهها متوردا، رأيت حول الجفنين ظلال المساحيق بدلا من العتامة التي أحاطتها عقب رحيله الأبدي، لاحظت خلو الجدار المواجه من الشهادات وبراءات الأوسمة والنياشـين، جاءت الابنة، أصبحت عروسا شهية، ترتدي الجينز، وزهرة صناعية تتوسط شعرها الناعم. اتصـل الحديث، فـدار حول نـظام المـواعيد الجـديدة، وازدحـام النوادي بـالأعضـاء، واختفـاء مساحيق الغسيل المحلية، وظهور المسـاحيق الأجنبية، وخلو الصحف من الأخبـار المثيـرة، وظهـور مكـاتب المستثمـرين الأجانب في الضاحية لاكتظاظ وسط المدينة، وارتفاع أسعار الايجارات، وتعطل التيار الكهربائي أحيانـاً. قمت وسلمت وانصرفت، مشيت بين الناس غير مصغ، كأنني أدرك فراق صديقي الأبدي أول مرة. لم يأتيا على ذكر الكتاب الذي أصدرته عنه، وأرسلته إليهما، رأيت خلو الدنيا منه، خلال السنوات السبع التي خلت تجلى لي مرات، أحببت ذكراه مرات بيني

وبين نفسي، وعندما أصبح العدو صديقا، وتبدلت الأحوال ورفرفت الأعلام التي طالما نكسناها، تخيلت ردود أفعاله، وصار عزائي أن انفعالاتي ترديد لانفعالاته، مشيت، ومشيت، وتجلى لي الماضي القريب، تجلى صاحبي في ثيابه القتالية، اختراقه خطوط العدو الليلية، مخاطراته، مفاجآته، رأيته مقتحما، ورأيته منسحبا، لكن غيري لم يروه، ولم يلمحوه، ولم يذكروه، وأصغيت بقلب تكأكأت عليه الكروب، وتعاظمت به النوب، قلب أصبح مدحوض الحجة، وخفت أن يتجلى لي ثانية فانبئه بما لا يسره، فتمنيت الفراق.

شرح

﴿ .. وجعلنا من بين أيديهم سدا، ومن خلفهم سدا، فأغشيناهم، فهم لا يبصرون، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم، لا يؤمنون.. ﴾.

ومنها

التجليات الديوانية

بحر البداية

.. لما فهمت ما فهمت، وعرفت ما عرفت، وصرت إلى ما صرت إليه، لما أدركت أن العين تبصر، والتناول شاسع، لما تيقنت أن أنفاس الانسان عزيزة وان النفس الذي يخرج لا يعود، وانه لا ينبغي أن يصرف الا في الأنفس والأعز، لما ايقنت أن ما فات لن يرجع، وان كل شيء يتغير، وفرق عظيم أن يقرأ الانسان ذلك. وان يعيشه ويكتوي بـه، لما أطلت التأمل والنظر في الحول، والعصر، والدهر، والثواني، والدقائق، والساعات، والأيام والأسابيع والشهور والفصول والسنين، لما تغيرت الأحوال المحدقة بي، رحل أبي، وأولج قاتلي قدميه في موطني، ووطىء الأرض التي أول ما لامسها رأسي. ومد ظلاله داخل بيتي، وهـدد بالـدنس عشى، لما ساءت الأحوال، وأكفهر العمر، لما انحسر ظل أبي، لما ولما ولما.. لم أنكص على عقبي، قاومت وهني، وغالبت عظيم همي بعد نأي لذاتي، تأججت ويا للعجب رغباتي، فعقدت العزم على أن أرى ما لم يره بشر، وأن أعيش ما لم يخطر على قلب انسان، ان اتجلى، وأتجلى، ثم أتجلى، وضعت نصيحة

شيخي ابن أياس كحلقة في أذني، عندما قال لي: تجلَّ وتجلَّ، ان النائم يرى ما لا يراه اليقظان، وهكذا سعيت وسعيت حتى جئت إلى بحر البداية.

وقفت عند شاطىء، اصغيت لعلي أسمع، حدقت لعلي أرى، أرهفت لعلي أشعر، طال انتظاري، طال وقوفي، حتى كدت انثني، كدت أرجع، وفجأة أتاني الهاتف، صاح باسمي.

يا جمال..

.. عند اللحظة التي يتقرر فيها الفجر وليال عشر، خفق قلبي في صدري خفقة كاد ينخلع منها، هلعت، ولم ألم نفسي، ان الانسان كان هلوعا، خاصة اذا جاءه الهاتف الذي لا يأتي إلا في اللحظات الجسام لينبىء بالجلل من الأمور، أو لينذر بأمر عظيم، لكنه لا يبوح، لا يفصح، بعد أن تماسكت، ولملمت نفسي، وهدأت روحي، جاءني صوت عجيب، غريب، مجهول المصدر، فكأنه صادر من الجهات الأربع الأصلية.

ـ ماذا تبغي؟.

لم يتلجلج لساني برغم اضطرابي، قلت..

يا حسرة على مافات، يعذبني ما انقضى، وما ينقضي.. أما من وسيلة؟.

ولماذا الآن؟.

قلت:

ما جرى هزني، اطلب الفرصة.. أريد أن أرى الماضي.. أن أرحل إلى المستقبل..

قيل لي بحنو:

ولماذا الآن؟.

تتميم أول

قلت، صباح اليوم التالي لعودتي من سفري سعيت إلى زيارة أبي الزيارة الأولى، أبي الذي كان، كان يمشي، ويسعى، ويحن، ويروي، ويتألم ويستفسر عما نريد، ثم يحاول أن يلبي، لم أكن أعرف مثواه، لأننا في المدينة لم نبن مأوانا الأبدي، ليس عن تقصير، أو غفلة، انما عن قلة حيلة، وصعوبة أحوال، صحبني شقيقي، وجارنا، هما من رأيا لحظة المواراة الأخيرة، شهدا المعول يزيح الكومة أثر الكومة، سلكنا الطريق الذي يحزم المدينة، يمتد خارجها ويؤدي إلى مداخلها، وعند نقطة محددة رأيت منعطفا على ناصيته حوانيت قديمة، نجار، والثاني لاصلاح اطارات العربات المعطوبة، والثالث لبقال فقير، والرابع لأدوات البياض والطلاء على مسافة قريبة توجد قمائن حرق الجير، والخامس لبائع خبز، والسادس مغلق، والسابع بلا ملامح، لم أدر محتواه، ولجنا ممرا يغفل عن رؤيته العابرون، ضيقاً متربًا، مهجوراً. به يبدأ طريق تأبى المركبات دخوله، حده الأيمن جدران صفراء، صامتة، تتخللها أبواب

صدئة، مغلقة، في كل لحظة، بعد كل خطوة، توقعت أن يتوقفا، أن يشيرا إلى مدخل بعينه، لكنهما استمرا، وتبعتهما، بعد مسيرة عشر دقائق حان الحين، عرجنا إلى اليمين، ثم إلى اليسار، وقفنا عند مدخل فناء مفتوح، أشار أخي إلى مساحة من الأرض، مكشوفة بلا سور، رمال غامقة ولا نبات، لا صبار أو ريحان، قال ان أقاربنا أصحاب المدفن شيدا عينين جديدتين، لم يحددا مساحتهما بسور، أبي أول الداخلين، الراقدين، دنوت، تلوت، بكيت، ابتعدت، رحلت وعدت. أحاطا بي، قلت لنفسي ولم أقل لمخلوق.. أليس في هذا جور؟ أليس في ذلك قسوة؟ هذا العمر، تلك المعاناة الطويلة، تلك الأيام والليالي، هل تنتهي هنا وتصبح نسيا منسيا. هل يبهت أثره ويضيع خبره هنا، هل سيكون كأن لم يكن، أمعنت توغلت، فطلبت المسعى..

طرح

ولماذا.. لماذا الآن؟.

تتميم ثان..

قلت غير هياب أو وجل، انني عشت زمن الحرب، واجهت الموت، رأيت استقرار الشظايا بعد مروق. رأيت تفجر المباني، والآليات، رأيت آلام الجراح لحظة الميلاد على الوجوه، افزعني

مرور المقاتلات الاعتراضية والقاصفات الأرضية على ارتفاع منخفض حتى انني لمحت ألوان خوذات الطيارين، رأيت امرأة، ما زلت أذكر ملامحها، وطول قامتها، وسواد ثيابها، وخضرة الوشم على ذقنها، تعيش قرب الماء، في تلك الأيام كان للماء معنى، الخط الفاصل بيننا وبينهم كان عند الضفتين، كان للماء معنى ومغزى، اذا ارتفع رأس أكثر مما قدر له نالته رصاصات القناصة، كان الوصول إلى الماء مغامرة، وبطولة، وعملاً مرموقاً، أما تزويد الجند المرابطين هناك بالمؤن فلا يقدر عليه إلا كل ذي قلب جسور، في المنطقة الزراعية عاشت أم ضيف الله مع أولادها الخمسة، حفرت خندقا بيديها، مجاوراً للبيت المبني من طين وعيدان بوص، أسدلت على مدخله ستارة من قماش أصفر، لماذا؟ حتى لا يجرحهم انسان أثناءالحركة أو شن الغارات، وتبادل القصف المدفعي، هكذا قالت لي.

ولّى هذا كله، محى، غابت الصور، كأن شيئاً لم يكن، فهل يمحو الزمن الزمن؟..

فصل

قيل لي، ان المطلب وعر، والمبغى عسير، لكن طريقك ليس بمسدود، عليك بالديوان، قلت.. أي ديوان؟ قيل لي، لا تكن عجولا، أمور كثيرة لا تعرفها ولو تكشفت لك

الثمرات والنتائج، بدون اعدادك للعدة لحل بك كرب عظيم، اصبر يا جمال الصبر الجميلا، من صبر وعمل نبت وأعطى، تجلياتك وعرة طرقها لم يسلكها أحد، اسع إلى الديوان الموكل بتدبير عالمنا المحدود، اسع إلى رئيسة الديوان، فان فهمت فقد أدركت، وأن أدركت فقد وفقت.. ثم لفني صمت..

من مدائن التجليات

.. بعد طول انتظاري لعل وعسى، بعد هيهات، قررت الخوض في بحر البداية، لم أخش الغرق، ولم أرهب البلل، أبحرت وطال ابحاري، لقطع المسافات في البحر زمن يخالف زمن البر، فكيف الحال في التجليات، حيث تتجاور وتتضفر البدايات والنهايات، لم أدر كم انقضى عندما تجلت لي مدينة يغمرها الضوء الهادىء، يلفها البحر كما يلف البياض صفار البيضة، أما الضوء فليس بنهاري، وليس بقمري، وليس وليس.. عرفت وأنا أدنو من أبوابها أن الليل لا يلج النهار هنا، وان الأوقات لا تتغير كما عهدت، انما تتجاور متوالية ثم تكر كرتها، تجلى لي بناء شاهق ينبثق من منتصفها لكنني لم أميز التفاصيل، طفت بأسوارها الشاهقة والتي يعجز البصر الكليل عن رؤية نهاياتها، بدا لي باب صغير تسبقه قنطرة صلبة من فيروز، ولجته، ذهل لبي، وارتبك نبضي عندما رأيت مبانيها من أطياف ملونة حتى ليخطر للعقل المحدود ان يواصل المشي فيمكنه اختراقها، لكنه يفاجأ بصد لطيف، هين، حازم لم

أستطع إلا المشي فوق الأرصفة البلّورية، عند المفارق تتقابل اصداء الأضواءوظلال الألوان، أما المناخ فسبتمبري، لا يتبدل، لا يتغير امتد الشهر الذي يبدأ فيه الخريف، أصبح ازلا ممدودا، بدايات الخريف، حيث لا تنطوي النفوس كما يحدث في الشتاء، انما تتأهب لذلك، بداية انحناء، فلا بسط ولا انطواء، لا حر ولا برد، لا وضوح ساطع ولا قتامة مقبضة، رأيت أسوارا قصيرة مبنية، لبناتها من شعاع، لبنة من ضوء، ولبنة من ظلال، ولبنة من شفق، ولبنة من ألق، أو هكذا خيل الي، فمداركي مقيدة بما عرفته وخبرته، وما يلقى في صدري وقلبي من معارف جديدة انما يلقى بحسبان، بعد الخطو خطوات عرفت ان المسافات تضيق، لم أدر كم مر علي، كم انقضى، لكنني لم أتردد، لم أفكر في النكوص، قلت لنفسي ان الممكنات لا تتناهى، فما بالي باللاممكنات؟ بعد حين رأيت برجا مستديراً من ضوء أخضر، يتخلله باب مستطيل قمته دائرية، موارب، بعد اختلاس النظر لاح لي طريق من ظلال. لكنني لم أدن. توقفت. انتظرت. لم يطل وقوفي اذ نوديت..

افصاح..

. نوديت من مكان خفي، فتأدبت في وقفتي، وأطرقت.

ماذا تريد؟.

قلت: اسعى إلى رئيسة الديوان..

ماذا تريد؟.

قلت: همي كبير، لكنني سأوجز ما أرجوه، ان استعيد ما لا يمكن استعادته. قيل لي، مطلبك عسير. لكنك ما وصلت إلى هنا الا بالمحاولة. اختفى الصوت، خطوت عبر البرج، كل بصري عن احتمال البريق وتردد الأضواء والألوان التي لا اسم لها في عالم الممكنات، مشيت، وبعد خطوات أدركت ان الموجودات كلها تتخاطب..

فائدة

.. في صحيح الأخبار، ما من دابة الا وهي مصيخة يوم الجمعة شفقا من الساعة، وكان عليه السلام راكبا على بغلة فنفرت عند قبر لما سمعت عذاب صاحبه حتى كادت أن تلقيه، وقال في جبل أحد، هذا جبل نحبه ويحبنا، وسبح الحصى في كفه، وهذا حجر سلم عليه، ولا تقوم الساعة حتى يحدث الرجل فخذه بما فعل أهله، وقالت الجلود، انطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وقد أخبر تعالى ان الظلال ومن في السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس فما ترك شيئاً من العالم إلى درجة الانسان الا وقد اخبر عنه انه يسجد لله، قال: «وان ما من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم»..

تتميم

نوديت. .

يا جمال. .

فتوقفت. قيل لي. .

هل جاهدت؟.

قلت: حاولت. .

عبرت الميدان متئدا، تخللت أشجارا من ذكريات متداخلة، وصورا متدلية ورغبات منسية، وامنيات لم تتحقق، أدركت انني أوغلت وان الرجوع محال، لم يتبق لي الا المضي، أدركت - والادراك يبرق في فؤادي كما تباغتنا روائح الأيام الحلوة المولية - انني قاب قوسين فتحملت غربتي ونأيي وتصبرت، وهنا تجلى لي طريق ضيق أرصفته من مسك أبيض، وجوانبه من عنبر مقرور أو هكذا شبه لي، عند نهايته نوديت: هل طلبت العلم؟.

قلت: حاولت. .

نزل برد وسلام وسكون. فتجلى لي ما تحويه المباني في جملته وليس في تفصيله، ما من حركة في الدنيا الا ولها مقابل هنا، ما من جماد أو نبات، ما من ثابت أو متحرك الا وله صورة ومثال، ما من صوت الا رجعه هنا، حتى لحظة تماس الموجة بالموجة أدركت لكنني لم أر، لكنني عرفت أن منازل المدينة مسكونة، كل منزل اختص بشيء، فمنزل للصدى، ومنزل

للصوت، ومنزل للقلوب، ومنزل للحجب، منزل للزيادة، ومنزل للنقص، منزل للفقد ومنزل للجمع، منزل للوجدان، ومنزل لرفع الشكوك، ومنزل للجود المخزون، ومنزل للقهر والخسف والعسف، ومنزل للآيات الغريبة، ومنزل للاستعداد والتأهب، ومنزل للمباغتة، ومنـزل للسماح والمنـع، ومنزل للفضل، ومنزل لـلإلهام، ومنـزل للحظات الـوداع، ومنزل للحظات الأخيرة لرؤية الأحبة، ومنزل لعبور الجسور، ومنزل للحنان، ومنزل للرأفة، ومنزل للشكر، ومنزل لتعانق نظرات العشق، ومنزل لتلامس الأيدي برقة، ومنزل لتلاحم الأيدي بقوة، منزل للشكر، ومنزل للضر، منزل لليأس، منزل للنصر، ومنزل للهزيمة، منزل للربح ومنزل للخسارة، منزل لمصادر الضوء، ومنزل لتألق العيون، ومنزل لارتجاف الجفون، ومنزل لانفـراج الشفاه، ومنـزل لمفارق الـطرق، ومنـزل لمحـطات المسافرين، ومنزل للمودة، ومنزل للستر، ومنزل لرفع الضرر، منزل للسعداء، ومنـزل للأشقيـاء، منزل للغـرباء، ومنـزل للتائهين، منزل للجور، ومنـزل للعذاب المحسـوس، منزل للنسب، منزل للأعراض والتمائم، منزل للأوضـاع، منزل للكميـات، منزل للهـواجس، والأبصـار، ومنـزل لخفقـات القلوب، منزل للميلاد، ومنزل للموت، منزل للجزء، ومنزل للكل، منزل لما كان، ومنزل لما يكون، ومنزل لما سيكون، ومنـزل لما لن يكـون، منزل يضم صـور القارات، ومنـزل للمحيطات، ومنزل للأنهار، ومنزل للخلجان، ومنزل للشعاب،

ومنزل للشم الرواسي، ومنـزل للوديان، ومنـزل للكهوف، منزل للمدن التي كانت، ومنزل للمدن التي ستكون، منزل للقـرى القابعـة، ومنزل للقـرى المنبسطة، منـزل للنـواصي المندثرة، منزل للمداخل المؤدية، منزل للضواحي، والميادين التي قـامت يـومـا وستقـوم، منـزل للمنعـطفـات الضيقـة، والحارات، والأبواب، ودرجات السلالم، ومنزل للأبواب التي يسكن خلفها الأحبة، منزل للأقبية، ومنزل للقباب، ومنزل للأبراج ومنزل للقلاع، ومنـزل للمخابىء الحصينـة، ومنزل للمعابد، ومنزل للأركان الظليلة، ومنـزل للحدائق، منـزل للأمسيات، منزل للأيدي الممسكة بالزهور، منزل للقـاءات الصدفة، ومنزل لما لن يتكرر، منازل لا ثبات لها، ولا ثبات لأحد فيها، أدركت المنازل كلها في جملتها وليس فيها تحويه، ولم أتوقف، لم أسمع، غير انني فرحت واستبشرت، نوديت..

يا جمال..

قلت: نعم..

قيل لي: هل أدركت؟.

فقلت: يا ويلتا على ما فرطت!!.

وصل..

.. حل رضا، غمرني فسكنت، عشت لحظات ما بعد سقوط المطر الـرذاذي على الضواحي النائية المورقة بالخضرة،

ايقنت بقرب وصولي الى بعض مما أسعى اليه، عالمنا الأرضي ملخص، موجز هنا، البداية والنهاية، لا ماضي بعيد ولا مستقبل نائي، ما كان وسيكون في تجاور، ما لا كان وسيكون، ما كان ولن يكون، كل شيء فصل تفصيلا، فجأة انجلى بصري، فرأيت الديوان، لاح لي بعيدا لحظة اقترابي، بدا شاهقا ليس كمثله شيء في دنيانا، ولما رأيته، رأيته من الجهات الأربع الأصلية، فكأني انظر اليه بثمانية عيون، الممت بالتفاصيل فكأني أراه من أعلى ومن أسفل، لم ألق ما يسعفني من حروف الكلام، أقصد كلامي، حاول ذهني أن يشبهه بما يعرف فاستدعى مباني النصب التذكارية، لمن ماتوا في الحروب ولم تعرف اسماؤهم أو عناوينهم، واجهات المعابد الأسيوية المعقدة التراكيب، مداخل الممرات الجبلية، أدركت ان المركز هنا، والمحور هنا، لم ينادني صوت، لم يروعني هاتف مفاجىء، لم يرعبني لمس، انما خيل الى انني محمول، وانني أطفو في فضاء غروبي بلا غمامات، وتحتي قباب واهلة وصلبان وأسنة، قيل لي ان كل شيء هنا، أيامك وأيام غيرك، لكن شيئاً واحداً - ان جاز تسميته بشيء - لا يمكنك رؤيته مهما حاولت، لن تدركه مهما جاهدت. لن تصل إلى كنهه مهما عانيت، هجم علي ولفني أسى انساني كثيف، وقبل أي بادرة استفسار مني نوديت.

يا من كان، يا من تكون، ولن تكون..

اطرقت، اذن.. سأقف بين يدي الطاهرة، حامية النقاء،

ورئيسة الديوان، والعضوين النورانيين.

شرح

الديوان مركز الهيمنة على عالمنا الأرضي، منه تتقرر الخطوط العامة للمصائر، وتتحدد الاتجاهات الرئيسية، وما ينقضي يصير اليه، بدءاً من الحوادث الجسام حتى همسات طفل لم يخبر الدنيا بعد، ينعقد مجلسه مساء كل سبت دنيوي، مدته تبدأ بعد غروب شمسنا حتى شروق الفجر، خلالها يتقرر ما سيكون في سبعة أيام دنيوية مقبلة وتنظر المظالم، وتتقرر العقوبات، وينصف الحجر من فالقه، لهذا يفزع المكلومون، متوسلين برئيسته الطاهرة، يهتفون: يا رئيسة الديوان، ولا يضل نداء طريقه إليها مهما كان مصدره ومكانه، وزمانه، تصغى رئيسة الديوان، السيدة زينب الى أنين المخلوقات جميعها، حتى أنين الشجر من لسع الرياح، يساعدها عضوان، عضو إلى يسارها، سيد شباب أهل الجنة الحسين عليه السلام، وإلى يمينها شقيقه الأكبر، من مات مسموما، طيب القلب والسيرة، الحسن عليه السلام..

الديوان

.. وجلت كثيبا من العنبر الأبيض، بهرني ضوء، سرى في بصري ظاهرا، وسرى في أعصابي باطنا، سرى في أجزاء

بدني، وفي لطائف نفسي أصبحت عينـا، أصبحت سمعا، فرأيت بكلي، لم تقيدني الجهات. في الوسط تجلَّت لي رئيسة الديوان ملتحفة بوشاح من الندى الذي ينمو على حواف أوراق الزهر، إلى يسارها الحسين، إلى يمينها الحسن، بين أيديهم ما يشبه اللفائف الكبار، أخذني البهت، ثم الاشراق عندما رنت إلى رئيسة الديوان..

ما وراءك يا جمال؟.

قلت:

وجود محدود، ورغبة في وجود غير محدود..

قالت:

ما الذي دعاك إلى الخروج؟.

قلت:

حيرتي، وألمي، ورغبتي في الولوج...

وهنا التفت إلى سيد الشهداء، صريع كربلاء، فانشـرح صـدري، وتيسر أمـري، وتهلل قلبي، وحشت نفسي عن الاندفاع اليه حشمة وتأدبا ورهبة..

قال لي: ماذا يؤرقك؟.

قلت: ما كان وما سيكون.

لم أتمالك نفسي، فقلت مندفعا وما من حجاب بيننا..

كان أبي يحبك..

لم يكسفني لاندفاعي.. أومأ..

أعرف ذلك..

قلت: انت عبق حياتي الأول، عشت بجوار مرقد رأسك آمن أيامي..

أومأ: أعرف ذلك..

قلت: كنا نصلي في مسجدك العيدين، وهناك رأينا عبد الناصر ومواكبه في بدايات النهار..

هز رأسه: أعرف ذلك..

تشجعت فقلت: كان أبي ملازما لضريحك، دائم الطواف حوله، لم ينقطع عن صلاة به إلا لمرض أو سفر أو غم عظيم، كان يستجير بك في أيام الشدة، وكان يقول لمن يرضى عنه انه سيقرأ الفاتحة عند مقامك..

قال: أعرف ذلك..

قلت ولا مانع يردني، ظلالك تلف طفولتي وشبابي، كان أبي يمسكني بيد، ويمسك أخي بيد، ثم نمضي لزيارتك، نخلع نعالنا، ونلج ضريحك، نقبل أعتابك ونخرج لنطوف بالشوارع القريبة، باعة البخور، السبح، المناديل الملونة، المصاحف، كتب السير والملاحم، واللبان، والبخور، الطواقي، العنبر في علب صغيرة من الصفيح حجمها يماثل عقلة الأصبع، والعطور كنا نشرب الخروب ثم نتجه إلى المقهى القريب الملحق بفندق قديم ينزل به بعض أبناء بلدتنا، كان أبي يزورهم، يحكى لهم ويسمع منهم..

قال سيد الشهداء برقة..

أعرف ذلك..

قلت بحسرة..

تلك أيام ولت بلا رجعة..

قال: كل شيء وله أوان..

التفت إلى أخيه الأكبر، قلت: من أهلة طفولتي تبدو لي لوحة مطبوعة ملونة، بها الأخضر، والأصفر، والأحمر، يتوسطها والدكما عليه السلام، يلتحف بعباءة خضراء، بين يديه سيف في غمد، فوقه كتب بلسان عربي «أسد الله الغالب، على بن أبي طالب»، إلى يساره يقف الحسين، وإلى يمينه.. تقف انت..

هز الحسن رأسه، بدا كأنه مغمض العينين، انس قلبي، رأيت الابتسامة الطف من طلة الحبيب، وأرق من الشعور بالأمن عند طفل، ذهبت عني الرجفة، هدأت، وفكرت فيما سأصير إليه، تطلعت إلى رئيسة الديوان فتجلت لي محفوفة بظلال الندى الفجري، بهية سمحة، شرحة، مستفيضة، دالة، منجية، نجيبة.. قالت..

ماذا يحيرك؟.

قلت: تبدل الأحوال..

قالت: وماذا؟.

قلت: ما يبلى.. ما يزول..

قالت: وماذا؟.

قلت: ما من يقين باق..

قال: ثم ماذا؟.

قلت: عكوفي على الأماني، وانقضاء الأوقات قبل تحققها..

قالت: ثم ماذا.. ثم ماذا؟.

قلت: التحول، والتغير، والتبدل، تحيرني الأشياء في تفرقها، وتجمعها، في اختلافها، واتفاقها، الطاعة والعصيان، الربح والخسران، العبد والحر، الحياة والموت، الوصول والفوت، النهار والليل، الاعتدال والميل، البر والبحر، الشفع، الوتر، الصحة، المرض، البداية، النهاية، الفرح، الحزن، الروح والشبح، الأرض والسماء، التركيب والتحليل، الكثير والقليل، الغداء، الأصيل، البياض والسواد، الرقاد والسهاد، الظاهر والباطن، المتحرك والساكن، اليابس واللبن..

توقفت، كففت، بعد صمت قالت رئيسة الديوان..

لانك حاولت، لانك جاهدت، فسيتجلى لك بعض من بعض، وليس كل في كل، لانك محدود بوجود مقدر، ولن يتسع، ستتجلى لك لمع، واشارات، سيصحبك من حين إلى حين سيد شباب أهل الجنة، أصبر الصبر الجميل، فلو مددت الكلام وحاولت السعي وراء الحقائق لكلت يمينك ولحفي القلم، وضاقت القراطيس والألواح..

مدت يدها ذات الندى والطل، مستنى فأصبح البصر حديدا والتناول شاسعا قالت..

ثمة أمر واحد ـ ان جاز تسميته بأمر ـ لن يتجلى لك أبدا، لا تسأل عنه لأنك لن تحاط به علما مهما أوتيت، ولن تـنفذ اليه، ولا تتعجل، ان الانسان كان عجولاً. قلت..

قلبي مترع بالدهشة، والحيرة، والأمل، فـما من موضـع لمزيد....

ومنها

تجليات الأسفار

السفر الأول

سفر الميلاد

حقيقة . .

كل شيء في سفر دائم . .

بيان . .

طـريق أبي في الحيـاة غـريب، وطـريقي في طــريق أبي غريب . .

اشارة . .

الدنيا منزل من منازل المسافر، وانها لقنطرة على نهر عظيم جرار . . تعبر . .

التأهب

. . احتواني صريع كربلاء، سيد شبـاب أهل الجنـة بعينين سمحتـين وجبين وضـاء، ونـظرات محب شفـوق، حتى اني خجلت من التطلع إليه، تلك رقة لم أعهدها، وهذا حنان لم يسبغ عليّ مثله، سررت، وتبسمت، وتبشبشت ونزل في قلبي

أمن وشوق، أنست بعد وحشة، وأصبحت كأني في جماعة وحشد عظيم اقتربت فشممت له رائحة طيبة، ونفسا عطريا، سألني أنا. .

إلى أين السفر؟ .

قلت:

أتطول المسافات؟ .

قال:

الانسان لا تسهل عليه صعوبات البداية، الا اذا عرف شرف الغاية. .

أمسكت بيده ذات الندى والطل. . قلت. .

اني مسلم اليك ذاتي، لكنني تواق إلى لحظات الميلاد. .

فصل

كل شيء يدور، تدور الأيام في الأسابيع، والأسابيع في الشهور، والشهور في السنين، والسنين في الدهور، نهار يكر على ليل، وليل على نهار، فلك يدور، وخلق يدور، حروف تدور، ونعيم يدور، صيف يدور، وشتاء يدور، وخريف، وربيع يدور، شقاء يعقب راحة، وحزن بعد فرح، وميلاد بعد موت. .

ريحانة من سفرنا الأول

تجلت لي قريتنا في أقصى الصعيد، تجلت في الألوان،

الأصلية، أما مصدر الضوء فخفي، ضوء فجري ولا فجر، حمرة شفقية ولا شفق، لا حرارة ولا برودة، انما هي اللحظة المواتية، مع ان اسم اليوم مفقود، وموقع الشهر مجهول، والسنة غير معروفة. يوم بعيد، قصي، مضموم على نفسه، غير متصل بغيره، وصلت إليه بعد اقلاع ونأي، تجلت لي البيوت مضمومة، متساندة فوق مرتفع حتى تبتعد عن مياه النهر زمن الفيضان، محاطة بنخيل كثيف، وحقول، وطرق متربة، وسواقٍ لم تدر بعد. وأشجار دوم، وجميز، وسنط، وكافور عتيق، وتين له رائحة عسلية تطغى عند المنحنيات. الممت بالبيوت، والبئر البحرية، والجبانة القبلية. سريت في القرية، بصري حديد، وغطائي مرفوع، وصدري رحب، سمعي ثاقب، وقلبي نافذ، وحواسي مرهفة، عرفت انه ما من أحد يمكنه رؤيتي أو الاصغاء إلي. وان الحوار ملغى بيني وبين من أرى، شب في جنبي فضول، وعرفت ان اللحظة تدنو، دخلت البيت، رأيت ثلاث نساء يقفن، يرتدين الملابس السوداء الداكنة، احداهن قصيرة، نحيلة، شعرها جعد، على ذقنها وشم دائري أخضر. تجلت لي جدتي، ترقد بينهن، وعلى وجهها الم عظيم، تبدو لي دماء، أولى بنظري بعيدا، لكنني أعاود التحديق، تقول المرأة القصيرة على فترات متقاربة أن الفرج وشيك، وان الطلق تزايد، وانه مبارك باذن الله، رأيت امرأة أخرى نحيلة، طويلة، تخرج من المندرة، وتطلب من رجل يرتدي عمامة من اللباد يلف حولها شال من صوف بني

اللون، أن يذكر الله حتى يجيء الفرج، عرفت انه والد أبي، جدي، جدي الذي لن يذكر ملامحه أبي، لأنه مات بعد عامين اثنين من ولادته، شغلت حينا بملامحه، وإلى أي حد تنتسب إلي، أو انتسب إليها؟ فوق مصطبة مجاورة للفرن يتمدد فتى في السادسة وإلى جواره شقيقه الأصغر، أعمامي الذين لم أعرفهم لأني لم أرهم، وحدثني أبي عنهم لأول مرة بعد رحيله الأبدي وظهوره في تجليات الفراق، حاولت أن ألم بملامحهم ولكن عبثا حاولت، مع انني كنت أرى ما لا يمكن لبشر أن يروه، عجيب أن أطيافا صغيرة، وتفاصيل ضئيلة، تغيب عني، انتقلت ببصري إلى داخل المندرة، ورأيت المرأة القصيرة، لم أعرف اسمها، تمسك أبي المولود لتوه، تضربه ضربا هينا، لينا، على ردفيه وظهره، جاءت الصرخة الأولى نحيلة موجزة، تملكني روع، اقتربت أكثر، تعجبت عندما مررت من خلال المرأة الثالثة البدينة الصامتة طوال الوقت، لم أعرف اسمها أيضاً، التفت إلى جانب قلبي الأيمن، رأيت صريع كربلاء، دليلي، مولاي وصفيي ومرشدي. يغيب عني إذا غبت عنه بفكري، ويبدو لي إذا ما فكرت فيه، وإذا ورد على بالي، وضمد خاطري، اذا لفتني حيرة، أو لفني خوف، هو قاب قوسين أو أدنى مني، لا ينأى ولا يهجرني، يرفق بي، ليس عليّ بضنين، كنت وجلا، مروعا، مأخوذا حتى لا أقدر على البوح أو النطق. كنت كأني أنا، كأني الفرع الذي خرج منه أصله، كأني الصدى الذي أحدث صوته، كأني الولد الذي أبوه ابنه،

كأني القوس الذي اتصل بنصله، كأني الظل الذي أوجد مصدره، ذهلت فأنثنيت أجوس داخل روحي، نبهني حبيبي، أومأ برأسه الطاهر الذي حُزّ من القفا يوما وتمتم بشفتيه النوارنيتين اللتين لثمهما أشرف الخلق، وعبث بهما يزيد بن معاوية، أومأ باتجاه أبي المولود، حضني على اطالة النظر إلى الحبيب المفقود فأمعنت. أبي عمره دقائق، مغمض العينين، منبعج الرأس، تسرع المرأة القصيرة به إلى خارج المندرة، ملفوف في جلباب رجالي قديم، تجيىء به إلى والد والدي، يرفع رأسه، بوجه خلو من التعابير، تجري لحظة المواجهة الأولى، يبدو جدي حريصا على ألا يظهر سرورا أو غما أو انشراحاً كأنه لو أظهر شيئاً من ذلك سيبدي ضعفا لا يليق باشداء الرجال، تشاغلت بالنظر إلى أبي، رأيت شبها كبيرا بين وجهه وملامح أبيه، كان مغلق العينين صامتا، تقرص المرأة انفه الدقيق برقة، يصرخ أبي المولود، وتلك صرخته الثانية، يفتح عينيه مواجها الضوء للمرة الأولى، يبتسم جدي، يقول: «آه يا بن الفرطوس».. وهنا ذهب ابي، ولم أعرف اليوم، والتاريخ، والسنة، مع اني رأيت ما رأيت، وهذا عجيب!!.

اطلالة

.. التفت إلى الرحيم بي، فأومأ برأسه الجميل وكأنه أدرك ما فكرت فيه أشار إلى بقعة الأرض التي لامسها رأس أبي لحظة خروجه إلى الدنيا، ذكرني محبي وحبيبي بأن الموجودات

كلها تتكلم في أسفاري وتجلياتي، الأصول تتحدث وتجيبني، وهنا سمعت ما لاعهد لي به، ما لا أقدر على وصفه لبشر، ما تضيق به حروف الكلام من كل منطوق ولسان، أقول وشجني رقراق معتق ان تلك البقعة كلمتني، وكان الكلام هامسا، قالت ان أبي لامسها مرة واحدة ولم تتكرر، لحظة ولادته، العجيب انه قضى عدة سنوات في هذا البيت، لكنه لم يحب ولم يتمدد، ولم يمش، ولم يخط، ولم يلعب، لم يلامسها، ولم يطأها، وفي آخر زيارة إلى البلدة قبل رحيله الأبدي بشهر واحد، جاء، دخل كل البيوت، سلم، وتأمل، واستعاد، وتذكر، صافح حتى النساء، قضى ليلة في البيت الذي ولد فيه، بيت أبيه والذي آل إلى أحد أعمامه ظلما، هذا يطول شرحه، وسيأتي تفصيله في موضعه. قضى ليلته في الساحة الخارجية، لم يطأني، ولم يجلس قربي، ليس لأن البيت اتسع، وان مواضع الحجرات تبدلت، وان موضعي الآن صومعة قمح، أبدا، لم ينظر إلي حتى، فارقني ولم يعاودني لحظة ميلاده. سكتت بقعة الأرض، أطلت النظر والتحديق، كان السؤال يلقى في ذهني، وقبل أن ألفظه القى الجواب، هكذا أجابتني، قالت ان والد والدي لم يطأها، وان مر فوقها مرات لا تحصى، لكن أما أن يسبق بقدميه أو يتأخر، كذلك جدوده. لكن ثمة جد بعيد، عاش في الزمن القديم، اتخذ مني مجلسا، لم يفارقني لمدة تسعين عاما، لم يفارقني الا ليقضي حاجته في موضع معين بين نخيل كثيف اندثرت شجيراته منذ

زمن، عندما جاءني لأول مرة كان عمره يتجاوز المائة عام.

نظرت إلى جانبي الأيمن حيث دليلي ومرشدي الحسين، لم يبد مانعا، لم يظهر اعتراضا، أومأ فوقع تجلي الفؤاد، واستعدت الزمن المفقود، فرأيت جدي، بدا متين البنية فتيا، لكنه إذا وقف ينحني حتى ليلامس رأسه منتصف صدره، يتمايل اذا خطا، يقطب اذا نظر، يرتجف اذا أشار، يهمس اذا تكلم، يرتدي الخرق السود. عرفت انه سليم الحواس. حادها، مرهفها، وانه يرى في الظلام، ويسمع عن بعد في ضجيج العاصفة، سليم الأسنان، حدثتني بقعة الأرض فقالت إنها الأسنان التي تنبت بعد سن المائة، وان ظهورها بدأ بعد عودته من طوافه، تساءلت.. أي طواف هذا؟. قالت بقعة الأرض انها لا تقدر على اخباري الا بما جرى فوقها، أو في باطنها، واذا شئت فلأستقصي من مواطىء اقدامه، لكنني لم أشأ مفارقة الموضع الذي لامسه أبي عند قدومه إلى الدنيا، فطلبت الافضاء إلي بما تيسر، حدثتني حدثتني بقعة الأرض فأوجزت وألمحت، قالت ان جدي البعيد كانت له كرامات واشارات منذ ولادته، هكذا تحدث بعض الذين جلسوا على مقربة، قالوا انه كان يحملق بعينيه، دائمًا في السماء البعيدة، وفي رمضان لم يكن يرضع إلا ليلا وفي لحظة مرض ألمت به رفعت أمه يديها إلى السماء، طلبت له الشفاء فأجابها صوت خفي، آمين، وعندما شب لم يرتكب معصية، أو زلة، وفي يوم شتوي غائم، طرح أحدهم سؤالا عليه، قال له.. النعامة..

اهي حيوان أم طير؟.. لم يجب. انما أمعن الفكر، ثم دار على الناحية كلها، سأل، استفسر، لم يشف غليله ما سمعه، قرر أن يرحل بحثا عن الاجابة، اختفى من البلدة، من الناحية، لم يظهر له أثر، ولم يسمع عنه خبر، حتى عد مفقودا، ونسيه ناسه، ساح في العالم لمدة مائة وعشرين سنة قبل رجوعه إلى الناحية، ويلزم نفس البقعة التي لامسها رأس أبي، قضى مائة وعشرين سنة في نفس الموضع يغزل الصوف، يمر به الناس فيبتعدون، أو يؤمنون، أما الصبية فيتصايحون ويتساءلون عن هـويته عن اسمـه، ومنهم احفاد احفـاده. لا يعـرفهـم ولا يعرفونه، بعضهم يرميه بالحصى، ونوى البلح فلا يبذل جهدا لدفع الأذى عن نفسه، في آخر ايامه قبل أن يختفي نهائياً جاءه رجل مديد القامة، أبيض الشارب واللحية، ازهر الثياب، أنوار الجبين، سأل جدي، هل عثر على اجابة لسؤاله؟ هز رأسه من اليمين إلى الشمال، واختفى لحظة نزول الغسق. وهنا صمتت بقعة الأرض، وتلاشى التجلي، سألت ملهوفا، مـا اسم جدي؟ فلم أتلق اجابة، ولم يسعفني حبيبي، رأيت تغير ذرات التراب، وتوالي الأيام، وتعاقب الليالي، ونزول المطر الشحيح، ولسع الرياح، وانطواء الحر، والبرد، تقول بقعة الأرض لم يمسني بشر، ولم أكن موطئا لانسان الا لجدك القصي ورأس أبيك عند مولده، مـع ان موضعي معمـور.. قلت وعنـدي أمل في وصـل الحوار، والتلقي، مـا اسم جـدي البعيد.. ما اسم اليوم الذي ولد فيه أبي؟ رأيت أبي المولود

يرضع الرضعة الأولى، وأمه تسند رأسه الصغير، وفمه يحاول الالتصاق بالثدي المنتفخ باللبن. رأيته نائما. رأيته يحرك ذراعيه، وقدميه، رأيته يحملق تجاهي، ينظر الى مكان وقوفي، وكنت أتراجع على مهل، وصوتي داخلي ملموم. مضموم، فلا همس، ولا بوح. . .

زمزمة

إذا ما تجلى لي فكلي نواظر
وان هو ناجاني فكلي مسامع

وصل

تجليت برفقة حبيبي إلى يوم الأربعاء، التاسع من مايو، سنة خمس وأربعين، وتسعمائة، وألف، تجلت لي أمي متعبة، مستسلمة، ورأيت نفسي مولودا في نفس اللحظة التي ولد فيها أبي، لم أدر ما بداخلي ولم أحط بكنه معارفي، وما يدركه حسي. سمعت جدتي تقول لأمي «مبروك. . . جاءك ولد» تفتح أمي عينيها، تتطلع الي، يحملوني اليها لتراني، اقتربت لأرى نفسي، رأسي منبعج، جسدي مزرق، يشبه وجهي ملامح أبي لحظة ولادته، لكن ما من شبه يجمعني بجدي البعيد، تقول جدتي، ماذا تسميه؟ تقول أمي باعياء الوالدة التي جاءت الى الدنيا بمخلوق جديد، «لن نسميه قبل أن

ترسلوا إلى أبيه في مصر. . .»، الوقت فجري، والليل يتشقق، وريح عاصفة تهز الباب الذي يسنده خالي بظهره، وعيدان البوص الجافة توشك أن تتطاير، طقس عنيف في غير أوانه، تنظر جدتي إلى امرأة اسمها الدودة، رأيتها مرارا في سنيني الأولى، زوجها خفير نظامي، كنت أجلس اليها أمام الفرن وهي تدفع بأقراص العجين عبر فوهته، وتلقى بالبوص، والجلة، والوقيد، وتحكي لي الحواديت، امرأة طيبة وكنت أحبها، ماتت منذ سنوات لم أدر مقدارها مع انقطاعي عن البلدة، وقلة زياراتي، وابتعادي، نسيت ملامحها، تاهت في مجاهل طفولتي، لم أرها إلا في هذا التجلي بصحبة سيد شباب أهل الجنة، تبدو لي أكثر شباباً، وامتلاء، هي أول من امسكني، وأول من نظر إلي قبل أمي، وقبل أبي، وقبل جدتي، أول من ضربني لتنبعث مني الصرخة الأولى، رأيت دماء تغطي كومة حشائش خضراء فرشوها تحت أمي، أول ما لامست، تقول جدتي، اذهبي يا دودة إلى ولد حميد، وخليه يكتب خطاباً إلى أحمد في مصر، أطيل النظر إلى جسدي المولود، الدقيق الأطراف، المحدود، رأيتني مغمض العينين، ولا أقوى على مواجهة الضوء، تعجبت، وقلت: أهذا أنا؟ يهز حبيبي الحسين رأسه، يومىء، يقول: انت في دهشة، لكنها ليست صورتك الأولى. لسبب خفي، غمض علي، انتابني حزن دنيوي خفيف، فيه لطف، وشفقة، وكأن صفيي ومولاي ادرك ما حل بي، فانثنى يمسح بيده شعري، هدأت روحي، وراق بالي،

وعدت أسافر عبر التجلي، رأيت ولد حميد يكتب خطابا إلى أبي، ورأيت الخطاب يصل، وموظفاً لا أدري اسمه يقرأه لأبي، رأيت ارتباك أبي وسروره واختلاجات روحه وارتعاشات ملامحه، لم أطل النظر، اذ القى سيد الشهداء بطمأنينة محورها انني سأراه كثيراً فيما بعد، وسأتملى منه، رأيت حيرة أبي عندما لا يهتدى إلى الطريق الأمثل للتعبير عن انفعالاته، وعز على أن أراه مرتبكا فناديته خطوات تجاهه، لكن سيد الشهداء حاشني برقة، وحزم، ما من فائدة ترجى، الاتصال مقطوع، الولوج محال، قلت يا أسفي، ورأيت أبي يملي خطابا على شخص لا أعرفه، ويطلب من أمي، ومن خالي، ومن جدتي، ان يسموني بعبد الرؤوف. رأيت أمي تحتضنني، ورأيت جدتي تتلو التعاويذ، تمسك بعروس ورقية تثقب مكان العينين بإبرة، ثقوبا متتالية، كل وخزة في عيني إحدى النسوة الحاسدات، رأيت نفسي اتقيأ، وكنت ضامرا، نحيلا، ارتجف، وتلفني رعشة، اخذني قلق و اشفقت ان يحل بي مكروه، انتهيت إلى ابتسامة شفيعي، فأدركت انني أعيش، وتعجبت، كيف أخاف على هذا المولود الذي هو أنا وأنا هو ان يمت، رأيت أمي تبكي، وأدركت أنها تذكر ولديها اللذين رحلا قبل مجيئي، رأيتها تخشى الفقد والثكل، هممت أن اطمئنها، أن أقول لها انني سأعيش، كدت أنطق، ثم تذكرت فصمت، تذكرت قول حبيبي في الديوان، لكل شيء زمان، تقول أمي: اكتبوا إلى أحمد ليختار اسما غير اسم عبد الرؤوف، لو استمر يحمل هذا

الاسم فلن يعيش..»، تطمئنها جدتي، لكنها تصر، هكذا انبأتها الرؤيا، لم تشأ الافصاح، لكن الـولد سيضيـع منها، «اكتبوا إلى أبيه»، رأيت أبي يتسلم الخطاب الثاني، ثم يصغي إلى سطوره، ورأيته يملي الرد، ويطلب منهم ان يسموني جمال، لم يفكر طويلا، انما ورد الاسم على خاطره، ورأيت الشخص الـذي أراد أبي أن يطلق اسمـه عليّ، شـاب من أقاربـه الأقربين، طويل، ممتلىء، يسكن بيتا قريبا من النيل، ويدرس في كلية الحقوق، مات بعد ولادتي بسبعة شهور، رأيت أبي يبكيه، ويذكرني لحظة مواراته التراب، ويعود من القرافة إلى الحسين، ويشتري لي جلبابا، وطاقية، ورطلاً من الحلوى، ويرسلها الى البلدة مع مسافر ضرير، رأيت أمي راضية هادئة البال، تهدهدني، تغني لي: «نام نام وأنا أذبح لك جوزين حمام»، كنت ملفوفا في خرق سود، لم أستطع أن أرى وجهي، أو ملامحي ولم أعرف ما بي، وان خمنت انني اعاني ضيقا ما، ولم أعرف ابن كم شهر أنا، ثم شغلت عن رؤيتي لنفسي بالاستفسار عن النسـاء الثلاث اللواتي حضـرن ميلاد أبي، وعرفت انهن رحلن منذ زمن بعيد، وان أمي لا تذكرهن، لا تعرفهن، وشغلت بالمسـافة الفـاصلة بين بقعـة الأرض التي لامسها رأس أبي، والبقعة التي لامسها رأسي، وكانت مفروشة بالنبات الأخضر، فكانت سبعين ذراعا قديما، تصمت أمي، أدرك انني نمت، تميل علي، تقبلني، فيعاودني حزن في وقفتي، لكنه حزن غتيت، يكاد يعصف بي، تطرق رأسى، اخطو تجاه

سيد الشهداء مبتعدا عن أمي التي تحملني نائما وعلى ملامحها استسلام أمره عجب، يربت حبيبي رأسي، فيزداد شجني، ويحق لي التأسي...

حقيقة..

.. لم ير أبي لحظة ميلادي، ولم أر لحظة غيابه الأبدي، وما بين القوسين سر غربتنا..».

تجلي السفر..

.. لا نزال في سفر دائم منذ نشأة اصولنا، الى ما لا نهاية له، اذا لاح لك منزل تقول فيه، هذا هو الهدف والغاية، ثم تنفتح عليك منه دروب وطرائق أخرى، ما من منزل تشرف عليه إلا وتقول، هو نهاية المقصد، وإذا دخلته لا تلبث أن تخرج منه راحلاً، كم سافرت في أطوار المخلوقات إلى أن تكونت دما في أبيك وأمك ثم اجتمعا من أجلك عن قصد لظهورك أو غير قصد، فانتقلت منيا، ثم انتقلت من تلك الصورة علقة، إلى مضغة، إلى عظم، ثم كسى العظم لحما، ثم أنشئت نشأة أخرى، ثم أخرجت إلى الدنيا فانتقلت إلى الطفولة، ومن الطفولة إلى الصبا، ومن الصبا إلى الشباب، ومن الشباب إلى الفتوة، ومن الفتوة إلى الكهولة، ومن الكهولة إلى الشيخوخة، ومن الشيخوخة إلى الهرم، ومن الهرم إلى

البرزخ، فما ثم سكون اصلا، بل الحركة دائمة في الدنيا ليلا ونهارا. . .

وصل السفر. .

. . كأن استاذي، وشاهد أيامي، أدرك ما بي، وما جال بخاطري، وما راودني، فتوقفنا في الصالة العلوية لمستشفى دار الشفا بالعباسية، أعرف اليوم واللحظة، ليست عني بقصية، الطابق رابع ومخصص بأكمله للولادة، رأيت نفسي ارتدي حلة رمادية ولي من العمر واحد وثلاثون عاما وستة شهور وتسعة أيام وأربع ساعات ونصف، اقف في الممر المبلط، لا يصلنا أي صوت من داخل الغرفة المعزولة، يقف والد زوجتي صامتا، كذا شقيقها، ولم يكن أبي حاضرا، كأن الزمن تقدم به، ومنذ حول مضى في الدنيا غريبا، أو مضينا نحن عنه في الدنيا غرباء، ومع أن هذا لا يصح، ولا يجوز، لكنه أمر وقع، ولا حيلة لي الآن إلا ان أهيم، أتألم وأسعى، أتجلى وأسافر وأعرف الغربة وأعاني لياليها الدوامس، وأغرق في بحورها الطوامس أعاني ثقل الشوق الذي لا فائدة ترجى منه، ويأسرني الفقد الذي لا راد له، وأذوق مر الفراق الذي لالقاء بعده، والنأي الذي لا وصول يليه أو ينهيه، واتحسر على ما انقضى وما فاتني بلا فائدة ترجى، لو عرفت ما عرفت لسمعت وما تكاسلت وما توانيت، ولما ارتكبت ما ارتكبت، لكن أنى لي بمعرفة المصير، كنت جهولا، عجولا، خلق

الانسان من عجل، لم يتبق لي في الأزمان المغبرة الا أن أتجلى، وأسعى، وألوذ بشفاعة حبيبي، لعله يرضى، لعله يخفف، لعله ينجيني، رأيت الباب يفتح والطبيب يخرج، يبدو هادئا، ينتحي بي ركنا، يقول ان الولادة طبيعية، وانـه اضطر إلى اجراء جراحة بسيطة لن تترك أي أثر بالمرة. يقول متداركا، مبروك جاءك ولد، ثم يقول الأتعاب ثمانون جنيها، وعشرون أجرة تخدير، رأيت يدي تمتد بالمظروف الذي يحوي النقود، يقول شكرا، ثم يمضي، تمر دقائق قبل خروج الممرضة البيضاء تحتضن إلى صدرها لفافة، تتوقف أمامي، تطلب من شقيق زوجتي أن يغلق النافذة، الهواء بارد، تزيح طرف اللفافة، أرى عيني تحدقان إلى ابني المولود، مستطيل الرأس، مغمض العينين، رأيت لحظة المواجهة بيني وبين ابني، راعني انه يشبه ابي شبها شديدا حتى لكأنه نموذج مصغر لوجهه، كان مغمض العينين، تمسك الممرضة انفه، يصرخ مرتين متعاقبتين، تغطى وجهـه، تقف منتظرة، رأيت يـدي تمتـد بـالحـلاوة، خمس جنيهات، تمضي إلى غرفة المواليد الجدد، اليوم خميس، التاسع من ديسمبر عام ستة وسبعين وتسعمائة وألف، ما بين مجيء ابني إلى الدنيا وبـين ميلاد شفيعي ودليـلي الحسين، اثنـان وتسعون وثلاثمائة وألف سنة هجرية، وما بين مجيئه وميلاد جمال عبد الناصر ثمانية وخمسون سنة ميلادية. وما بين مجيئه وميلاد أبي مقدار لا أعلمه من السنين والشهور والأيام، نظرت إلى محبي وإمامي، ابتسم برقة وحنو، يهز رأسه وكأنه لا فائدة

من محاولتي، هل كان أبوك يعرف مقدار عمره؟ قلت لا، هل حاول أحدكم معرفة ذلك؟ قلت لا. قال، كيف ستعرف ذلك الآن ولماذا؟ ولم أتكلم لأنني لاحظت لـوماً أو ما يشبه ذلك في نبراته، لهجة من يعرف ولا يريدني أن أعرف، تجلت لي لحظة ميلاد أبي، ولحظة ميلادي، ولحظة رؤية ابني لأول مرة، رأيت نفسي أوجد ثلاث مرات في ثلاثة أماكن، اتلقى ببصر واحد، وأفهم بعقل واحد، لم أشأ أن أثقل على صفيِّي، فسألت نفسي بنفسي، هل تتشابه الملامح في لحظات البـداية، ثم تختلف عندما يبدأ السفر، ونفترق في كل مرحلة، فلا يتبقى إلا الشبه الخفي، غير المرصود، الذي لا يعيه عقل، حتى تتلاشى تماما مع أفول العمـر وحلول الهرم، لمـاذا لم أهدأ، ولم يسعفني مولاي؟ وتردد داخلي: هذا من أسرار السفر، أدركت انه ما من موضع لاجابة، رأيت نفسي لم أفارق الطابق الرابع، الردهة خالية، ولافتة صماء تطلب الصمت حرصا على راحة المرضى، ورائحـة مطهـر طبي، وسكون في ضـوء غسقي فخشعت، وانتبهت إلى صـوت غريب يحدثني بلغتي، نبراتـه غريبـة، وايقاعاته عجيبة، أدركت صدوره من أحد الأحجار المصفوفة في جداد الطابق الرابع، يقول لي انه قبل أن يؤخذ، وتشذب حروفه، قبل أن يضعوه في هذا الجدار كان ملقى في حقل قريب من المكان، كانت المنطقة كلها حقولاً خضراء، قبل أن تجتث وتـرصف بـالأسفلت، وتقـوم المبـاني، وهنـا تحـولت الموجودات فرأيت الحجر ملقى على مقربة من سكة حديدية،

وأعمدة تلغراف، وسماء منبسطة، والوقت ليس بليل، وليس بنهار، ورأيت أبي قادما من أقصى المدينة يسعى. رأيته متعبا، حواف جلبابه مثقلة بتراب، بدا فتياً ولم أدر عمره، ولا في أي السنين هو، وأن عرفت أنه بلا مأوى، وأنه في أيامه الأولى بالعاصمة، وانه لم يعرف بعد شوارعها، وانحاءها، وحاراتها، ودروبها، وانه لكي ينتقل من مكان إلى مكان فلا بد أن يسأل، وأن يستقصي، وأن يستوثق، وأن يبرز العناوين المكتوبة، أدركت انه يقصد أحد ابناء البلدة في الضاحية القريبة، وأن أمامه وقتاً طويلاً، رأيته ينظر حوله، رأيت حيرته، حيرته الخاصة، المنبعثة من ملامحه، ومن شقائه، ومن غلبه، يتوقف فجأة اثناء سيره ويتلفت حوله كأنه يرجو العون من خفي لا يرى، يقول« آه يا بوي..». يتمدد، يسند رأسه ألى الحجر، بعد لحظة يضع ذراعه تحت رأسه.. ذات الحجر الذي حدثني من موضعه في جدار المستشفى الذي ولد فيه ابني، تجليت داخل التجلي، سافرت خلال السفر، ورحلت إلى الرحيل، بينما الحجر يكرر برتابة: توسدني أبوك، توسدني. نظرت إلى مخلصي، بدا صامتا، حتى اخشعني صمته وأقعدني سكونه، وخطر لي، كيف رأيت ما رأيت، ولم أر لحظته هو..

تنبيه..

لا تطلبوا المولى الحسين بأرض شرق أو بغرب

ودعـوا الجميع وعـرجوا نحـوي فمشهـده بقلبي

السفر القصي..

.. هذا سفر صعب، وما فيه تلميح لا تصريح، واشارة لا افصاح، اليوم هو الخامس من شعبان، السنة الرابعة للهجرة، امرأة تحدثني، لا أعرفها،، تقول ان فاطمة الزهراء أولدته بعد حول من مولد أخيه الحسين، فجاءها النبي ﷺ وقال: هاتي ابني، فدفعته اليه وهو ملفوف بخرقة بيضاء، فاستبشر به، واذن في اذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، ثم وضعه في حجره وبكى، فقلت، فداك أبي وأمي يا رسول الله مم بكاؤك؟.

قال: أبكي لما يصيبه بعدي...

أسفار الميلاد..

.. لم أسأل ولم استفسر مع ان الخطوب كثيرة، والمسائل عديدة بلا حصر، لكنني خفت ان اضايقه، أو أخالف له أمرا بدون قصد، تبعته كظله عندما واصل السفر، وبعـد حين رأيت لحظة ميلاد زهرة من شقائق النعمـان، ورأيت لحظة انشقاق بيضة في عش صقر يقبع فوق ذروة. ورأيت لحظة موت حوت معمر، ورأيت لحظة بداية الغمـام في الأعالي، ورأيت انفلاق حبة قمح، ولحظة اخصاب نخلة، رأيت ميلاد

جمال عبد الناصر في حجرة رمادية ببلدة صغيرة نائية، ورأيت لحظة إخصاب بويضة داخل رحم امرأة في مدينة شهباء، مبانيها بيضاء، في أقصى أقليم الشام، رأيت النطفة ثم العلقة ثم الجنين في أطوار، ورأيت الأب يقول بعد الميلاد بدقائق، سموها «لود»، التفت إلى وليي ومرشدي متعجبا، أجابني باختصار سيكون لك شأن معها في التجليات المستقبلية، كدت اتعجب، كيف سألقاها، وهي من اقليم بعيد، وما من فرصة بادية، لكنني لم أسأل، رأيت تكور واكتمال كوكب بعيد، رأيت لحظة فناء نجم خارج المجرة، رأيت النجم إذا هوى، لحظة ميلاد البرق، وتفجر الشرارة، ورأيت جنين سنبلة، ميلاد اللبن في تلافيف الضرع، رأيت ميلاد الندى، ظهور الموجة لحظة اكتساب اللون لصفاته، الأحمر للأحمر والأزرق للأزرق والأصفر للأصفر، رأيت ميلاد فكرة، مجيىء معنى، رأيت ميلاد الفراق، واللقاء، وارتجافة الفقد، تدفقت الرؤى، اغمضت عيني عندما توهجت التجليات، لا عهد لي بذلك، تمنيت الفرار من تلك الأسفار، لكنه شد على يدي، وانتظر فانتظرت، حتى خف عني ذلك الذي روعني، وعندئذ مسكت على انفاسي، وعدت هادئا، قريرا، كأني غريق بعد النجاة، كأني مولود لتوي، ما طمأنني وقوفه إلى جواري، وشده لأزري، رأيته يملأ افقي المبين، ليس على بضنين. خطر لي التماس الصفح الجميل لو انني اخطأت بدون قصد. لكنه هدأني، فسلمت من الأذى، استسلمت وتأدبت، وسرحت في

كل ما رأيت.. وإذا به يقول بحنو: تجلد فأمامك أسفار طويلة..

لطيفة شعرية..

فقلت اخلائي هي الشمس ضوءها
قريب ولكن في تناولها بعد

تجليات الأسفار

ومنها

أسفار الغربة

حقيقة

اني من الراحلين أبداً، فليس لي استيطان أصلا..

دمعة

يـا رب لم نـبـك مـن زمـان
الا بـكـيـنـا عـلى زمـان

سفر الابدال

.. تجلى لي أبي طفلا يحبو، ثم طفلا يلهو، في أي زمن؟ ما موقع اليوم بين الأيام والسنة بين السنين؟ هذا ما لم أعرفه وما لم أقف عليه، لم يطلعني شفيعي ومولاي، قدرت تقديرا لكنني لم أستطع أن أحدد، أبن ثلاثة؟ أربعة؟ ربما يدنو من الخامسة.

في هذه الأسفار اثناء مواجهـة أبي وأحبابي وغـير أحبابي سألقى أنواعا وأنواعاً، فمواجهة من حيث اني أراه. وأخرى من حيث انه يراني، ومقابلة من حيث اني أراه ويراني، مرة أأتنس به، ومرة يأتنس بي، ومرة نأتنس معا، ومرة يوحشني. رأيته

مريضا، أمه مهمومة، تعلق إلى رقبته حجاباً مثلثاً، تـرجو شيخ المسجد أن يقرأ له ورداً وأدعية، تطيل النظر إلى وجه أبي مخطوف اللون، شاحب الرواء، تخشى أن يكون الجن قـد أبدلوه في الليل عندما تركته وحيدا، أبدلوه بطفل عليل من عندهم، وأضفوا عليه ملامح أبي، تجيئها الجدة نجمة التي تجاوزت المائة، نبتت لها الأسنان الخضراء، تزوجت من جني مؤمن في صباها، لذلك لم تقترن بالرجال قط، تنصحها بحمل أبي إلى الساقية المهجورة، تضعه بجوار بئرها الجافة، وعجلتها الخشبيـة المكسورة وان تقف ضـارعـة، متـوسلة بـأصحـاب الكرامات وأرباب الطريق، ترجوهم مساعدتها على استعـادة طفلهـا الصحيح وأن يـأخذوا ولـدهم المعتل السقيم، واذا استحال ذلك فـالعوض عـلى الله العلي القـدير، وليـأخذوا البديل، تمضي جدتي، بقلب دامع تترك أبي وحيدا. لا يعي هجره، يضمده الليل والسكون، تتردد حوله أصوات الليل الخلوي الغامض، خفت على أبي أن يأكله الذئب أو يختطفه بعض السيارة من الغجر الرحل الذين يعبرون القرى وعيونهم على الأطفال وما خف حمله، وقفت إلى جوار جسمه الضامر، رجوت مولاي أن يؤنسني، فاستجاب لي، قطعت الليل بطوله، لكنني قرب الفجر والنجوم تتناقص في السماء وملامح النخيل تتحدد، اختلط الزمن عليّ، وتداخلت الرؤى، وأشتد التجلي فرحلت إلى عدة أماكن في وقت واحد، نزلت مدنا متباعدة في آن معا، رحلت إلى الأزمان المختلفـة، فكنت أرى شوارع

المدينة الواحدة عند بداية انشائها، وأسمع ضجيج حركتها بعد قرن من زمانها، صرير الباب، تشقق جدار، خرير ماء، وصياح انسان، ويعار الشاة، وخوار البقر، ونهيق الحمار، ضجيج المواكب، زئير الجموع في أزمنة الاضطرابات، رأيت الأوقات الخشنة، والفترات الآمنة، تشعبت، تفرقت. مني رحلت إلى جهات متعددة، كأني قسمت إلى عدة أشخاص، يحركهم عقل واحد، ويرون الموجودات بعينين اثنين، ويتكلمون بلسان واحد، استمر ذلك، ثم تململت، وتجمعت، عدت بعد أن شردت، كنت أعي ذهابي في رجوعي، وإيابي في ذهابي، أرى ما سافر مني يأوي إليّ، وما رحل مني يستقر عندي، حتى تم اكتمالي، فتحت عيني، فإذا بالصبح ساطع ألق، أبي ليس في مكانه، فزعت، أخذتني الرجفة، وتملكتني الهدة، تجيىء أمه من بيتها تسعى. رأت مكانه خاليا، لطمت، عاطت، شقت ثيابها، وعندما مالت لتهيل تراب الأرض فوق رأسها ظهر أبي، خرج من بين أعواد الذرة، بدا ضاحكا، صحيحا، موردا، كأن لم يمسسه أذى، ليس به مرض، ذهبت عنه العلة، صاحت أمه تسأله، أين كان؟ ارتمت عليه، تحسسته، حملته، هدأ قلبها، وبردت نارها، لم تفض إلى انسان باستجابة الجن لها، وأعادتهم طفلها الصحيح، غير اني لاحظت ما لم تلحظه هي، رأيت تغير خطوه، يمشي بميل إلى الأمام بينما يلوح ظل خفيف لعرج، وهذا لم يكن به، ورثناه عنه، انتقل إلى ابني، وابنتي، وأحفادي من بعدي، ثم تجلى لي

أبي في فناء البيت، تقعد أمه مفتوحة العينين، لكنها لا ترى، عمياء، متى جرى ذلك؟ لم أتلق جوابا، يبدو أبي في السادسة أو السابعة، عرفت انه يتيم، وانه لا يذكر ملامح أبيه الذي رحل فجأة تاركا أباه ابن ثلاثة أعوام وعدة شهور، وهنا سافرت برجعة إلى ليلة نائية، جدي شاحب، متعب، عاد بعد أن قطع مسافة طويلة مشيا، لم أعرف الغرض من مشيه، دخل والعتمة هادئة، والنجوم بعيدة، قام ثم قعد، ابتعد ثم اقترب، نظر إلى السماء القصية، إلى نجوم ثلاثة تقع على خط مستقيم، عندما يتحرك موضعها إلى الشرق يصبح الفجر واجبا، لكن النجوم الثلاثة لا تبتعد كثيراً عن مركز السماء، يروح جدي ويجيىء، يأبى دخول الغرفة التحتية حيث تنام جدتي وإلى جوارها أبي، يقعد في الرحبة المكشوفة، يسعل مرة، ثم مرة، ثم مرات، يهتز جسده حتى ان سعاله يوقظ جدتي، تتساءل مخضوضة عما به؟ يقول انه متعب، وان صدره يؤلمه، تخاطبه من داخل الغرفة. تطلب منه أن يدخل. الليل بارد، يقول انه ينتظر حلول الفجر، تسأل جدتي بينما سعاله يهن ثم يهن، هل أغلي لك ورق الجوافة؟ سعاله يتقطع، كأن شيئاً يتعثر في حلقه، عرفت ان صوتها يبدو له بعيدا، وان طنينا يبدأ، وان داخله يرق ويهوي في بئر بلا قرار، وانه غير قادر على الرد، وانه يردد بلسان مثقل... خلاص... خلاص، وان آخر ما ورد على ذهنه من صور صورة ابنه الذي هو أبي، تخرج جدتي، تحيط جدي، تصرخ، تعول، وليت نظري شطر

أبي، مستغرق، نائم، يحلم بوقيد الفرن، ، ورائحة جلود القرب التي يحملها السقاءون على ظهورهم منتفخة بمياه البئر، غير انه ظامىء ظمأ شديداً يحمله أبوه، يستعد ليسقيه، ان رجلا غامضا يصرخ من بعيد، فيغدو أطفال كثيرون. . يستيقظ مفزوعا، نظرت إلى يميني، رأيت مولاي، شفافاً ، رهيفا، أبديت الرغبة بصامت نطقي فأذن لي، عندئذ بدأ معراجي إلى منزل الأحلام. .

سفر خاطف

. . رحلت إلى حلم بعيد لأبي في ليلة لم أدر موقعها من طفولته، لم أعرف موقع المكان الذي يتمدد فيه، كنت بمفردي لكنني متصل بشفيعي، تغيرت الألوان والموجودات، وأصبحت حي القلب، فطنا بمواقع الحروف والألفاظ، ممسكا بجوهر المعاني، رأيت نفسي، وكنت أدري انني الواقف في مجال رؤيتي، رأيت ما فوقي وما تحتي، ما يحيطني، تبدل فجأة وجهي، أصبح وجه جدي، لم أروع ولم أفزع، لأنني كنت أعي أن الواقف هو أنا وان تبدلت ملامحي، أو تغير حجمي، أو تلاشى وجودي المادي، شغلت بما تيسر لبصري من المكان، النبات أخضر، وصحراء قريبة، خط من بيوت متضامة، كل بيت من أربعة طوابق، أبي في شرفة الطابق الثالث، ملامحه تراوغني، فأراه طفلا، ثم شابا، ثم هرما، ثم تتداخل مراحل العمر. . سألني:

أنت من؟.

فقلت:

أنا جمال..

فقال:

جمال من؟.

فأجبته:

جمال.. الذي سينبت من صلبك وسيكون ابنك..

بدا حائراً، لا يفهم، أدار ظهره لي بعد تحديق، وإذا به يقف على شاطىء بحر عريض بلا آخر، بحر متوحد الزرقة كأنه مرآة، يمسك جفنة معدنية منقوشة، يملؤها بماء البحر المالح، يقذف به بعيدا، يتحول الماء إلى بخار يتصاعد إلى عمق الكون، تستمر حركة يده، أدرك أن سنين طويلة مرت عليه، ينزح ماء البحر، سألته..

عم تبحث؟.

التفت اليّ ويده لا تتوقف ولا تكف ولا تهن.. قال.. عما ضاع مني..

لم أدر كم انقضى، غير اني سمعت الأسماك والحيتان والأصداف والشعاب وسائر مخلوقات البحر تستجير منه وتستغيث: لو استمر سيجف البحر، وتنكشف القيعان، وتنتفي الحيوانات، تنهد البحر مضطرا، القى بين يدي أبي بما ضاع منه، هرعت لأعرف، لكن حيل بيني وبين ذلك، استدار

بعد حين فإذا بجسده ضامر، وعليه تعب وغبار أيام ثقيلة لا يمكن نفضه، قلت: عندما تغيب ستمضي في نفس ساعة رحيل أبيك، ستقول نفس الكلمات، لكن لن توجهها إلي لأنني لن أكون إلى جوارك، انتبهت إلى انني أحاوره بدون كلام، بمجرد النظر نتحدث، ليس بيننا كلام معتاد، والاصطلاح بالنظر اصلا، كنت إذا نظرت اليه علمت جميع ما يريده مني، واذا نظر إليّ علم جميع ما أريده منه، فيكون نظري سؤالاً، ويكون نظره جوابا، وقد يكون نظري جوابا، ونظره سؤالا، مني اليه تنتقل أحاسيس جمة، ومشاعر تضيق عنها الفاظ الدنيا ولغاتها ولهجاتها، قال لي، وردد..

لكنني لا أعرفك...

نطقت بالنظر الأسيان..

انت لم تنجبني بعد..

صمت عني، آذن سفري بانتهاء، انسحبت، تراجعت بدون خطو، يعبرني غمام سابح، ندف فوقها ندف، كنت فيما يبدو ثقيل الوطأة على رؤياه في منامه، استيقظ مكروش النفس، حزينا، رأيت الإمام الحسين إلى جواري، وكان أبي في حدود الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، هكذا قدرت، يرقد في بيت غريب عنه، عرفت انه ضيف، وانه سيمضي في صباح الغد، إلى أين؟، حجب ذلك عني، عرفت انها المرة الأولى التي اقترن فيها بأبي قبل أن ينجبني، عرفت انني في هذه الفترة

من عمر الدنيا كنت ذرات متفرقة، متوزعة، وعناصر شتى، بعضها ولج داخله، وبعضها في سبيله اليه، وبعض لم يستدل اليه بعد، عرفت أن آلاف المواضع احتوتني، وان شيئاً مني ما زال قصيا، نائياً، بعيداً عن التحقيق، رأيته بعد استيقاظي يبذل محاولة لتذكر ملامحي، رسمي أو اسمي، لكن تفاصيل الحلم تبددت من ذهنه، كذا اسمي الذي نطقته، لكن الحلم ترك احساسا مبهما أقرب الى الكدر..

انتهى معراجي الخاطف...

تلقين..

.. لما كان العالم أكرى الشكل، لهذا يحن الانسان إلى البداية، النهاية متصلة بالبداية، لا بد من نهاية والا ما كان ثمة بداية، أول النشأة الانسانية رحم ضيق حيث لا هواء ولا حروف ولا كلم، وآخرها قبر حيث لا ظل ولا رؤى، أولها يتمدد على الظهر رضيعا، وقرب نهايتها يرقد على الظهر هرما، عاجزا، أولى الخطى مرتجفة، مترددة، وآخر الخطى مرتعشة، واجفة، رقبة الوليد مثقلة بالرأس، تهتز، يسيل لعاب الفم، ترتجف الرقبة العجوز، وأيضاً. يسيل لعاب، في الطفولة تلفه الوحدة فيبكي، في الهرم تشتد عليه الوحدة فيأسو ولا يبكي، أولها ظهر منحنٍ كذا آخرها، عند الخروج إلى الدنيا لا يدري بشر ماذا يعقل المولود؟ وعند الخروج من الدنيا لا يدري انسان ماذا جال بعقل الراحل وأي صور رأى، أي فكرة طرأت؟

هكذا تلتحم النقطة بالنقطة، تتصل الدائرة، ويكتمل الشبه بالعالم الأكري.. فتعلم!!.

سفر الموجودات

.. تدفق سفري بصحبة مولاي عبر حجب وفراغات مجهولة لي، تعجبت اذ يشمل الديوان هذا كله، عرفت انني على صلة بسائر الموجودات، سمعت نداءات الأغصان، وحوارات الأحجار، وهسهسات النجوم، ولغيات الندى، ولهجات الرياح، وصريخ النيازك، واستغاثات الشهب، وانين الذرة عند إنشطارها، واصداء تمدد الكون النائي، كنت أفهم ما يلفظ وما يقال، تتقرب الموجودات ممن انا برفقته، تناجيه، تدعوه، تؤنسه، تبدي الاستعداد للبوح، للنطق، حدثتني جدران البيت الذي أقام فيه أبي مع أمه العمياء، كلمني الجدار الشرقي عن تحذيرات أمه المتكررة، ان ينتبه إلى عمه، أن يأخذ حذره منه، انه يبغي به ضراً، حدثني الجدار القبلي عن لهفتها عليه إذا خرج ليملأ أو ليقايض بائعاً متجولاً على شيء كأن يستبدل قدح قمح، بحفنة ترمس، حدثتني صومعة القمح والفرن، والمصطبة الأمامية عن وحدة جدتي، عن خشيتها الليلية، عن قيامها، وتحسسها الطريق إلى ابنها الذي هو أبي، عن شمها لرائحته، اصغائها إلى أنفاسه، ثم تلمسها طريقها إلى الباب، اغلاقه بالضبة والمفتاح، واطفاء اللمبة الساروخ حتى لا يستدل غريب أو قريب على مكان نومهما، حدثني

الباب عن جلوس أبي أمامه، يرقب لعب الصبية، اذ يشرع في مشاركتهم يتذكر تحذيرات امه فينأى، يتابع الأشقاء الـذين ينصرفون معا، أو يتشاجرون، يتمنى لو عاش شقيقه، لو أن له أخاً، يتمنى الذهاب إلى الكتاب، أن يحفظ الحرف ويكتبه، ان يجمع الأرقام ويطرحها، ان يعرف كيف يخط اسمه، يكتب اسم النخلة، وزهر البرسيم، ونوار القطن، وثغاءالشاة، أي حروف تعبر عن صوصوة العصافير، والحروف التي تجمع الفاظ القرآن، يتخيل نفسه في الأزهر البعيـد، يقف أمام شيـخ مهيب، يتلو القرآن، بعد أن أتم حفظه، يجلس وأمـامه كتب ضخمة، مجلدة، يقلب صفحاتها، طريق طويل يبدأ بذهابه إلى الكُتاب، لكن أمه تأبى، ربما اختطفوه عند ذهابـه اليومي، عـاش أبي يخشى عمه، إذ يلمحـه قادمـاً يجري مـرعـوش الأنفاس، رأيته يجري، يجري، حتى اشفقت عليـه لتسارع أنفاسه، ناديته أن يتمهل لكنه لم يسمعني وكان مستحيلاً أن يسمعني، لأنني أراه ولا يراني، أعرفه ويجهلني، أسافر إليه ولا يسعى إليّ، التفت إلى مولاي لأعتذر إن كنت اخطأت بندائي عليه، وجدته متشاغلاً عني بالنظر إلى أبي، في عينيه رقة، وحنو، وإذا بالنجم القصي يحدثني من ركنه الأيمن في السماء، يخبرني عن الإمام الحسين، رفعت رأسي مبهوراً، تعطلت مني حاسة الكلام، فصرت سمعا كلي، قـال النجم القصي أن الحسين أقام منذ مولده مع جده رسول الله، أشرف الخلق أجمعين ست سنوات وسبعة شهور وسبعة أيام، وأقام مع أبيه

أمير المؤمنين سبعا وثلاثين سنة، ومع أخيه الحسن سبعا وأربعين سنة، وأقام في الدنيا ست وستين، قال النجم القصي إنه رأى خروج رسول الله من بيت عائشة ومروره على بيت فاطمة، سمع الحسين يبكي فقال لابنته، ألم تعلمي ان بكاءه يؤذيني؟ قال النجم القصي وضوءه الواهن الحي يأتيني ويدنو مني ان الحسن والحسين كانا عند جدهما وقد أمسيا فقال لهما اذهبا إلى أمكما، فهابا الذهاب لأن الليل دامس، وهنا برقت برقة فمشيا، في ضوئها حتى أتيا أمهما، أخبرني النجم القصي انه رأى رسول الله يسجد لصلاة العشاء، واقترب الحسين، كان طفلا، اعتلى ظهره فأطال رسول الله رقدته حتى نزل الحسين، بعد الصلاة قال له أحد الحاضرين، يا رسول الله انك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة اطلتها حتى ظننا انه قد حدث أمر أو انه يوحى إليك. قال: كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته، قال النجم القصى وصوته يسري إليّ عبر الكون الغريب، إنه سمع رسول الله يبكي ويخاطب الحسين قائلاً: ستقتلك الفئة الباغية، ثم سألني النجم النائي بضوء دامع ووميض حزين: اتدرك في أي زمن أنت؟، وهنا عادت إلى قدرتي على النطق والبوح، تطلعت إلى الهادي الملازم لي فأذن لي بصمته عني، لم أتوقع سريان صوتي عبر المجرات والفراغات السماوية، لكنني أجبت بقلب حزين وكبد مرضوض: زمني الدنيوي زمن سوء وانقلاب أحوال، قال النجم القصى وبريقه الخافت يشيح عني

وصداه يولي: تتبدل الحال بـالحال. ثم نـزل صمت، ظل بصـري مشدودا إلى جهتـه، إلى الفراغ المؤدي إليـه، حتى أدركت ضياع الأثر، احتوى الموجودات صمت عجيب لا عهد لي به، ثلجي قاتم، كأن أطراف الكـون استجابت لشجني الشفوي الذي مبعثه خفي عني، في غماره أطلت عليّ نخلة من الباسقات المورقات، همست إليّ بنغم طيب فيـه أبديـة ومحايدة وسر عجيب، حدثتني عن أبي، بدأت أرى ما تفضي به إليّ، رأيت أبي طفلا، قدرت انه ابن عامين، لم أسأل عن عمره لأنني ايقنت من استحالة الرد عليّ لما واجهته من صمت عني بهذا الصدد، وان لم تهن رغبتي، اضمرت النية في التوجه بفضولي إلى شفيعي، إلى رئيسة الديوان عندما تحين لحظة قد تكون ملائمة، لعل وعسى، رأيته مرحا في الأرض، يلعب أمام جدي، وهنا طلبت الرحيل المباغت، فرأيت أبي مولودا تهدهده أمه، تلاعبه، تناغيه، تناديـه بألفـاظ المحبة، رأيت لسانه صغيراً، رقيقاً، عيناه منتفختان لم تتخلصا بعد من زنقة الولادة، تزايـد أساي، وهن غصني، وتضعضـع قلبي، ما أوسع الفارق بين ما أرى، وبين وجه أبي الذي ودع به الدنيا، الوجه المثقل بمواقع السنين والأيام، بالغضون، بالحنين الذي لم يرتو، القلب الذي لم يشبع، والتعب البادي حتى في لحظات سروره، لمت نفسي، وعنفت عمري، لانني عايشته طويلاً، خبرت لحظات ضيقه، وأطلعت على منابع آلامـه، ولم يدر بخلدي انه كان طفـلا يومـاً، وانه هـدهد، وانـه لوعب،

ودوعب، التمست العذر، ومن هو مثلي ليس له إلا التماس العذر بعد ان فات الأوان، ثقلت اعذاري فكتمت عني ما بي، رشحت عيني الوسنى فأخفيت دمعي في أغوار حلقي، حنت النخلة عليّ ، مالت بجريدها العالي حتى لامسني. قالت لي الشواشي: لا تحزن، ستعلم عدد السنين والحساب، خفف هذا عني فأنست بعد وحشة، رأيتها فارعة لا تهتز إلا في الليالي العاصفة، قريتنا مسورة بالنخيل، رحل بصري إلى الموضع الذي احتز فيه رأس سيد الشهداء. رأيته مضمدا بالنخيل، حدثتني نخلة أبي: لك عودة إلى كربلاء، حدثتني عن موت جدي، وتيتم أبي، وطمع عمه، واستناده إلى الجزع المتين، وتخطيطه التراب بعود قش، وتفكيره في الأرض التي ورثها أبي ومقدارها فدان ونصف فدان، وأربع وعشرون نخلة موزعة على البلدة، اذن لي بالرحيل الخاطف، فرأيت نفسي أمشي مع خالي عند منحنى ينز رائحة التين العسلية. وفضاء غروبي تتخلله دقات وابور الطحين، مكتومة، تتوحد بالفضاء الصامت الغريب المؤدي إلى المجهول، يتوقف خالي، يشير إلى نخلة بين النخيل: هذه نخلة أبيك، رأيت جزءاً من زمني المولي، نصحب أبي، أنا وأخي الأصغر، نمشي بين بيوت البلدة، يظهر عم أبي، قصير القامة، نحيفاً، عمامته كبيرة، نتراجع، نتوارى خلف أبي، لا نمد ايدينا، اذ نزور البلدة لا نذهب إلى أهل أبي وناسه، لانقطاعه عنهم منذ زمن ولسماعنا انهم أرادوا به الأذى، لكن أي أذى؟ وكيف؟ هذا ما لم نحط

به علما ولم نعرفه، رأيت أبي راجعا لتوه من قريتنا، اطلت التحديق فرأيت عمري في حدود الثانية عشرة، يحكي أبي أخبار سفرته، ثم يصمت قبل أن يقول، انه باع النخلات، تسأل أمي: ألم يكن ممكنا رهنها؟ يقول: لم يقبل أحد والمدارس اقتربت والأولاد في حاجة إلى مصاريف، وملابس جديدة، هل يعقل ان يذهبوا بملابس السنة الماضية؟.. عدت إلى النخلة الوحيدة الفارهة وكنت مقدد الأحزان، أقبلت عليها، تلك تمت إلى أبي وان لم تعد ملكاً له، تلك عانى من أجل الاحتفاظ بها ما عانى، ثم باعها لينفق من ثمنها علينا، أطلت النظر إليها، مددت البصر، وهنا نظر إليّ أمامي الحسين. فهمت عن صمته، يطلب ألا أسرع، أن أحذر العجلة، ان الانسان كان عجولا، عدت اصغي إلى النخلة، حدثتني فقالت انها شهدت ابي من الأعالي يعيش مع امه العمياء بعد رحيل ابيه أربع أو خمس سنين من عمر الدنيا، كانت أمه تخشى أقاربه، وتخاف الأيام الدانية فتدخر المال القليل، يقول لها أبي: هاتي لنا لحما نأكله، تنظر إلى الجهة التي يجلس فيها، تقول: أنا أعمل من أجلك حتى لا تصيع في كبرك، يرتد ابي إلى صمته، حدقت اليه بالبصر الموله، قدرت انه ينسل من طفولته في تلك السن المبكرة، وانه يعول الهم في عمر لا ينشغل فيه غيره الا باللهو، لم أره يلعب حيث يجب اللعب، ولا يجري حيث يجب أن يجري، رأيته يواجه الدنيا صامتا، يقضي جل وقته في تقشير عيدان البوص وتكوين أشكال متداخلة، يمر على مقربة من

المسجد، ويصغي الى أصوات الأطفال، يرددون وراء الفقيه الحروف، والكلمات، فيأسو، ويتمنى ثم يبتعد، عادت النخلة تميل عليّ من عل، غرب زمان أبي، ورأيت شيخا مهيبا، قادما من بعيد، يمشي على هباء، فانتظرت ما يكون . .

يا من تقضي . .

. . يكتسب ما حولي لونا لا مثيل له في عالم الحس، درجة واحدة فلا ظلال، ولا تموجات، أزرق وليس بأزرق، يتقدم الشيخ عبره، يواجه سيد الشهداء، لم أسمع حوارا لكنني فهمت انه يأخذ الاذن، يستدير حتى يواجهني، عرفته، تعانقت نظراتنا، لم أكن قد واجهته منذ ان جاءني بصحبة احبابي وأوليائي، عندما تعانقت نظراتنا، ثم ولى عني بدون لفظ، وأشحت عنه بدون كلام، لكنني نفذت وفعلت . . في هذه المرة تحدث إليّ، قال الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي . .

. . اعلم ان الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام، الذي هو أول جسم انساني تكون، وجعله اصلا لوجوه الأجساد الانسانية، وفضلت من خميرة طينته فضلا خلق منها النخلة، فهي أخت آدم، وهي لنا عمة . .

قلت: تلك نخلة تمت إلى أبي. وكما مضى هو ستمضي هي. طال الأجل أو قصر، وكل ماضٍ عدم، وكل مستقبل لا وجود له، ستجتز يوما ويصفر سعفها، ثم يجف ويذبل،

سيشق جذعها، ربما امتد جزء منه في سقف بيت لا نعرف أهله، وربما نصب جزء آخر في جسم جسر خشبي يصل ضفتين متقاربتين لا ندري من سيطؤه.. قال الشيخ الأكبر..

لا ينجو حذر من قدر..

صمت ثم قال..

في منزل البقاء بالديوان ستجد مثيلتها، مخضرة، مثمرة دائمًا، ومن عجائب مطعوماتها انه أي شيء يؤكل منها أو يبلى أو يتساقط ينبت بديل له في نفس زمان أكله أو قطعه، اذا قطفت منها ثمرة فزمان قطفك إياها يتكون منها مثلها، فلا يظهر فيها نقص أصلا..

سمعت هاتفا خفيا يصيح..

يا من تقضي، ولا يقضى عليك..

واختفى الشيخ الأكبر..

النبوءة..

.. رأيت علياً بن أبي طالب في إحدى سفراته يمر بكربلاء، كان الحسين يافعا بعد، آمناً غوائل الدهر وعواديه، رأيت أباه يقف ولا يترجل، يضطرب قلبه اضطراباً عظيمًا، يطيل النظر إلى البلدة المحاطة بالنخيل، إلى الفرات ومائه المتدفق، إلى السماء المرفوعة بغير عمد إلى تراب الأرض، ثم يبكي، فيسأله من معه، لماذا يبكي؟ لكنه لا يجيب..

التمهيد . .

. . عادت النخلة الحبيبة تحدثني فأصغيت، قالت إن عم أبي راح يلف البلدة، يزور البيوت ويتحدث إلى الأقارب، إلى الأغراب، إلى المقيمين، إلى العابرين، يكلمهم عن الأرملة العمياء التي مات زوجها وتعيش مع طفلها الذي لا يدري من أمور الدنيا شيئاً، انها تمشي على هواها، تجلب العار للمرحوم شقيقه ولابنه من بعده، رأيته يجلس عند السواقي وقرب البئر القبلية، في الرحبة المبللة بضوء القمر والنجوم النائية، يتكلم بلسانه ويديه. له تهتهة واطراقة. واشارة من أصبعه الصغير، يردد. . إذا كانت سيرة المرأة بهذا الشكل فهل الولد ـ يقصد أبي ـ من صلب ابيه حقا؟ . . تحدث طويلا وعينه على الفدان ونصف الفدان من قبل ومن بعد . .

تجلي الوجوه المتتابعة . .

. . تمهلت نخلتي، اخضر جذعها، وأبيض سعفها وتباطأ عن الاهتزاز حتى سكن، سرى داخلي ترتيل خفي، تساوى عندي القرب والبعد واقترن الشرق بالغرب، شددت الرحال إلى الجهات الأربع الأصلية وأنا واقف لم أبرح مكاني، سفري خاطف، والبرق حولي بُرَيق، والأنغام خفية، مرقت عبر مدن هاجعة في ضوء غروبي واهن، تمهلت خطاي في ضواحي آوى سكانها داخل بيوتهم فما من انسان يدل أو يرشد، ترقرق مكنون

فؤادي، وتبسبست الأزمنة أمامي، وترددت أصداء اللحظات المارقة، والأوقات المتباعدة عني، المنقضية، وصلت إلى انحاء شاسعة، رأيت وجوها جمة، رأيت أيدي تقبض على حفن من تراب كربلاء، تحمله اينما اتجهت، رأيت اللحظات التي فار فيها تراب البقعة المشهودة مختلطا بلون الدم فأنبأ بما سيصير وما سيجري لمولاي ودليلي، رأيت وجوها من جيشه قليل العدد، رأيت وجوها من الجيش الذي عرفته وعرفني وشهدت حربه قبل اغبرار الزمن، رأيت وجوها متحلقة حولي، كالقناديل الهائمة، رأيت وجوها ظمأى، وجوها تميل بعد عبور القناة لتقبل الرمال المحررة، رأيت وجوها باهتة، وأخرى ساكنة. وجوها ناطقة. وجوها زاعقة، مصدر الصرخات لحظة الالتحام بالعدو، رأيت وجوها غائبة، وأخرى هويتها حاضرة، وجوها حائرة، وقلة أبية، رأيت وجوها مثقلة بالغربة، بالوحدة، بالعزلة، ورأيت وجوها ونيسة، ضاحكة. رأيت وجوها قادمة إلى الدنيا لتوها وأخرى ماضية إلى مجهول محض، وجوه ساعية، وأخرى قاعية، رأيت وجوها في وجوه، مبحرة عبر الشظايا، تغوص، تطفو، تمسك بالحد المتين، تلك ملامح مفتقدة للأنس، وهذه متألمة، وتلك عابسة. وجوه أعرفها. وكثرة أجهلها، تتوالى المرئيات، أطياف، وشفق، تداخل، انفراج، تباعد واقتراب، في الخضم لمحت وجها لم أره إلا مرة واحدة في زمن الجراح النازفة، أيام وقوع الهزيمة، توسلت إلى شفيعي أن يوقفني عنده فاستجاب لي. خاطبته بضمير صارخ

وذاكرة جلية، قلت له: غبت عني بعد أن رأيتك المرة الأولى والأخيرة، لكنك باقٍ في قلبي، والبقاء الحقيقي في القلب، كالموت لا يكتمل إلا إذا استقر في القلب. وتذكرت بألم ينهل مني ويستقي، زيارتي لزوجة صديقي الشهيد، لا مبالاتها، وتبدد الذكرى، وسريان النسيان. قلت له: انت تسكن عندي في منزلة الصاحب والمثل والقدوة، قلت: لن أكذب ولن أدعي. قد تمر أيام لا استدعيك فيها، لكنك حي دائمًا اذ تتداعى المعاني حولك، انت رأيت أيام الضياع العظمى بداية فقد عصره بأكمله، مفتتح زمن البلوى، كنت لا أطيق العودة إلى بيتي، أخشى الهجوع، وأخاف الانفراد، من مقهى إلى مقهى تنقلت، من شارع إلى شارع، ظهر الجند المتعبون المنسحبون من خط الدفاع الثاني، أذكر أحدهم مبهدل الثياب، منكوش الملامح، ضجت سيناء بالظمأى، والقتلى، وشبعت الضباع والذئاب، سمعت اصواتها المسترخية في ليالي يونيو الحارة عند خروجها إلى الخلاء تطلب شم الهواء لتهضم اللحم الآدمي، وقالت إحدى مجندات العدو الذي صار صديقا..

وصل في فصل..

أقول أنا:

عجبت لناسي وقومي، ينتصرون إذ يهزمون، ويهزمون عندما ينتصرون..

وصل في وصل

.. قالت المجندة: غاصت مدرعاتنا في الأجساد كما تغوص السكين في الزبد، وفي حجرة رمادية الطلاء بمبنى احدى الصحف قابلته، كان مبحوح الصوت بعد طوافه يوما وليلة وجمع من الخلق وراءه يهيب بعبد الناصر الا يذهب، الا يمضي في تنفيذ ما قاله عندما أطل بوجهه مكروبا من شاشة التلفزيون، قبل ظهوره بثوان كنت آمل في مفاجأة يعلنها أو تطور في انباء القتال يخفف بدايات جراحاتي، لكنني عندما رأيت ملامحه الشكلى تضعضعت أمانّي، تدكدكت الأيام، في الحجرة المطلية باللون الرمادي قال صاحب الوجه المتألم: لا فائدة ترجى من الكلام الآن، ضاع الوطن الأول، ويضيع الآن جزء من الوطن الثاني، ما من حل إلا القتال، انصرفنا، افترقنا، أمام المبنى سألت صاحبي الذي يعرفه: من يكون؟ قال إنه فلسطيني يدرس الزراعة في القاهرة، وينظم الشعر أما اسمه فمازن أبو غزالة، توالت الأيام الثقال، ذكرته والأوجاع متمكنة مني، وسوء الليالي تلفني، كم مر من الزمن حتى قرأت اسمه في الصفحة الأولى للجرائد، ربما شهر أو شهران، ذات صباح من هذه الصباحات المؤدية إلى الشتاء، أطل عليّ اسمه من سطور الصفحة الأولى عندما كانت معارك الثأر تنشر في الصفحات الأولى، كذا صور الشهداء، كان ذلك قبل انقلاب الآيات، وتبدل المعاني، قبل أن يصبح الأخوة ألد الأعداء، والاتصال بهم أو التعاطف معهم، يجعل الواحد منا جاسوسا

أو خائنا، اذن. . استشهد مازن أبو غزالة ـ أقول استشهد ولا أخشى ـ فوق مرتفعات طوباس، ما زلت أذكر الموقع الذي سالت فيه دماؤه، ورأى منه الصورة الأخيرة ـ ترى ما هي؟ ـ ما زلت أذكر موضع الخبر من الصفحة، وعبارات البيان، ما زلت أذكر طوباس، اذن. . انا حي القلب. .

ملتقى خاطف. .

نعم. . الذكرى لمن كان له قلب. .

وصل في وصل في وصل. .

. . رأيت وجه مازن عند انهيار الجسد. جاءته الشظية من جانب الصدر الأيمن، ولت ملامحه عني، رأيت قبسا ضئيلا من يوم كربلاء، عبد الله بن مسلم بن عقيل يقترب من الإمام الحسين، يقول: أتأذن لي بالقتال؟ يقول له الحسين، يا بني كفاك وأهلك القتل، يقول: يا عم بماذا ألقى جدك محمدا وقد تركتك، والله لا كان ذلك أبداً، يتقدم، يحمل على القوم، يقاتل، يرميه رجل بسهم، يخترق جانب صدره الأيمن، يسقط صارخا، متحشرجا. .

وا أبتاه. . وانقطاع ظهراه. .

تلوح ملامح مازن في أفق قصي، زعقت. .

مازن. . عرفت كيف تموت، ولم نعرف كيف نحيا. .

رأيت وجه جندي عمره يماثل عمري، نقف في خندق محاط بأكياس الرمال وصفائح مضلعة من حديد، يشير إلى الضفة الأخرى من قناة السويس يقول: بعد قليل تتغير نوبة الحراسة عندهم، رأيت وجهاً هائماً، حائماً كقنديل مضيء معلق بخيوط لا ترى، لم أعرف صاحبه، رأيت وجه أبي كماكان يبدو في تلك الأيام التي لم أكن أدر انها أخيرة، رأيته متعبا، ينظر إليّ من داخل عينيه، وكنا نقف عند محطة للأوتوبيس، وثمة رجال ونساء ينصرفون، يتفرقون، العودة الليلية، رأيت وجه أبي، يسعى في صباح باكر، يحمل افطارنا، طبق الفول، ودورقا مليئاً باللبن، رأيته كاملاً، يرتدي الجلباب، ويمشي في طريق أعرفه، واحفظ ملامحه لكثرة ما عبرته في صغري وفي كبري، في مبتدئي وفي خبري، طريق يصل بين حارة الدرب الأصفر، ومدخل حارة الميضئة، وكان البقال في موضعه، والمدرسة الابتدائية، وتاجر الخضار، والمسجد الأثري القديم، ومدخل الحمام الصغير الضيق، والمقاعد مرصوصة أمام المقهى، رأيت هذا كله، وكان يتكشف لي جزءاً فجزءاً، لكنني لم أر غير أبي، الطريق خال تماماً، لون الضوء برتقالي، درجة من اللون كونية لا أرضية، ثم رأيت نفسي فجأة، ولم يبد على ابي انه لاحظني، أو رآني، استمر في مشيه وكنت أمشي إلى الخلف، أواجهه بصدري وملامحي، يتقدم وأتراجع، لا أخشى التعثر أو الكبوة، كنت أرى بظهري، كنت أواجهه في حركته، قامتي تماثل قامته، كل شعرة من رأسي بحذاء شعرة من

رأسه، عيناي تقابلان عينيه، وأنفي يقابل أنفه، ونفس التعبير الذي أراه على وجهه، منطبع على وجهي، ناديته فلم أسمع صوتي ولم يسمعني، لكن خيل إليّ أنه التفت إلى جهة ما، فجأة تراءت وجوه، تدفقت ملامح، رأيت وجه الرياح، وجه المطر، ملامح الندى، وجه الظل، وجه الليل، وجه النهار، النهار المشمس والنهار الظليل، وكان ذلك أشمل من عيني، من حدقتيّ المحدودتين، لم أحتمل، لذت بحبيبي لكنه شغل عني بالنظر إلى جهة لا أقدر على تحديدها، جهة ليست من الجهات الأصلية أو الفرعية تطلعت إلى ناحية خاطبتني منها النخلة الباسقة، لكنني لم أرهـا، بل أدركت أن أوانها آذن بانتهاء، ربما تعاودني فيها بعد، توارت عني، صمتت عني، ولا قدرة لي على انطاقها، كنت حزينا ولا أخشى الحزن، فالحزن اذا فقد من القلب خرب..

تنبيه

ما يجمعه وقت، يفرقه وقت.

درس

أعلم أن العالم الدنيوي الذي نحن فيه الآن له انتهاء يؤول اليه لأنه محدث، وحكم المحدث أن ينقضي..

أمنية

ليت الجاهل يعلم بما ليس يدري . .

نشوء الحيرة . .

. . أطلعني مولاي وقرة عيني على بعض من أسرار رحيلي، عرفت انه من بين رفاق سفري الأصوات والروائح والأحاسيس ودقائق ما يفنى وما يستحدث، عرفت انني إذا أخلصت الاستجابة للتجليات رأيت، وإذا رأيت سمعت، وإذا سمعت شعرت، وإذا شعرت استقصيت، وإذا استقصيت فهمت وإذا فهمت أدركت، وهكذا اندفعت، انجرفت إلى تلك اللحظة النائية من الليل المنطوي في غيابات الدهر، رأيت جدتي نائمة، أخبرني الحر الشديد ان الخلق ضجوا منه لطول اقامته، وثقله، وقال بعضهم ان مثله لم يقع منذ سنوات، تخففوا من الثياب، واحتموا بعتمة الليل، ضاق صدر أبي، فصعد إلى أعلى السقيفة، نام فوق أقراص الجلة الجافة، وعيدان البوص، كان يرتدي جلباباً قديماً، ولى وجهه باتجاه السماء، نظر إلى النجوم، إلى ضباب غامض يتخلل الفراغات، وهنا أخبرني نجم قصي انني مقبل على لحظات سيستعيدها أبي مراراً، في أمكنة متباعدة، في أوقات مختلفة، في الصحو والنوم، أخبرني الليل الجليل أن ملامحه أثناء النوم بدت متعبة، أكبر من عمرها الحقيقي، وأن نومه هادىء، لا صوت يصدر

عنه، صدره منتظم في تنفسه، هذا ما أكده لي أيضاً الهدوء الجنوبي المشحون بالنذر، وجن قلبي، تمنيت لو أزعق، لو أهزه محذراً، لكنني لم أفعل لاستحالة تحقق ذلك، هنا نطق الصمت، سمعت السكون يقول انه كان مستكنا، لا يبدده الا نباح كلب ناءٍ، أو أصداء بعيدة غامضة المصدر، قادمة من أعماق الدنيا، واهتزاز أغصان أو أوراق لمرور حيوان ما عبرها، وعواء ممطوط لذئب يقعي، حدثني الصمت المستكن فقال ان الذين قدموا إلى البيت كانوا حفاة، تسلقوا الجدار البحري المبني من اللبن، هبطوا الفناء الداخلي، ثم ولجوا الغرفة، بركوا على جدتي العمياء، صرخة ثاقبة، فيها فزع انساني، ونهاية لا بداية بعدها، ومباغتة، وعماء في عماء، حدثتني الصرخة فقالت انها آخر صوت نطقته قبل أن يكمم فاها، قبل أن يغوص النصل أربع عشرة مرة في جسدها، وهنا كلمني الذعر الذي ألم بأبي، قال ان أبي لم يستيقظ بسبب ضجة، أو صرخة، كان مستغرقا، خلوا من الأحلام في هذه اللحظات لكن ثمة شيئاً غامضاً، سبباً يستعصي على التفسير، جعله يقوم لاهث الأنفاس، قلبه يدق، وعرقه ينزف، أكد لي الذعر الذي ألم بأبي أنه لم يوقظه، لكنه حل بروحه وسكن جسده لحظة ان فتح عينيه، وأن أموراً غامضة رافقته عند تمكنه من أبي، وأن هذا كله دفعه إلى الجري، إلى القفز فوق أسطح البيوت المجاورة، عاد الصمت ليحدثني عن نباح الكلاب الذي بدأ، نباح ليلي منذر متلاحق، في هذه

اللحظة رأيت القتلة داخل البيت يتقدمهم عم أبي، يبحثون داخل الصومعة، في غرفة الخزين، فوق الفرن، ثم صعدوا السطح، تكسرت عيدان البوص، وأقراص الجلة تحت أقدامهم، رأيت النصل الذي قطع الأوردة، وانهى حياة جدتي، خفت ان يعثروا على أبي، ان يلحقوا به، رأيت وجه أبي مغموسا في خوف ورعب وظلمة، سمعته يردد. استر يا رب.. استر يا رب.. أمي، أمي، لم يكن قد عرف بعد بما جرى لها، علمت بمقتل جدتي قبل أن يعلم، واطلعت عليها في لحظاتها الأخيرة قبل أن يدري أوَ يتخيل انني سأكون ابنه، كنت قريبا منه، وكان دانياً مني، حدثتني مسام جلده عن عرقه الغزير، رأيت ارتعاش اطرافه، رأيت تهدجه، رأيت لحظة ميلاد هذه النظرة التي لازمته حتى في أوقات مرحه وتخففه من كدوراته، نظرة الشقاء والضنى، نظرة تعب وحيرة، نظرة الرغبة في الهجوع، في التماس الراحة ولو لمقدار محدود من الوقت، اصغيت إلى صوت نحيل، اسيان، لم أدر مصدره، أو كنهه، يقول لي أنها ليست بنظرة، لكنه ملمح أيضاً، وصفة، ومعنى وعلامة، ما رأيته ميلاد الحيرة والخوف من المجهول اللامرئي، لكنك لم ولن تعرف مقدار الحنين الذي أنهك أباك طوال عمره، وحزنه الشاحب الرهيف، الحاد كنصل السكين عند استعادته هذه اللحظة، قبوعه في الليل الغميق مطاردا بالموت، واليقين من انه لن يرى امه ثانية أبداً. لحظات اذ يستعيدها تعكمه وتدهمه، تضفي الرجفة على خطاه، والقلق على تعوده،

والسكوت المفاجىء أثناء حديثه، والغم لحظات سروره، والشرود عند اصغائه، وتأتي بالكوابيس إلى نومه، تدفعه إلى الترديد بصوت مرتفع.. آه يا بوي يا أنا... ابتعد الصوت عني، غير انني رأيت لحظات متوالية متتابعة، من أزمنة متباعدة، يجلس فيها أبي صامتا بيننا، يقول فجأة.. آه.. آه.. يا بوي يا أنا.. يقعد في شرفة آخر بيت سكن فيه، البيت الذي كان بسقفه وجدرانه آخر ما رأى، يسند رأسه إلى يديه، يقول فجأة.. آه يا بوي.. يأكل، يجلس بين ضيوف جاؤونا من البلدة ويتحدث، يضحك، ثم يسكت فجأة، آه يا بوي... يأكل، يمضغ، يبلع، يصمت.. آه يا بوي! يسعل، يعبر طريقا مزدحما، يغص بالخلق في وسط المدينة، يتوقف، بينما يعبره الزحام من جميع الجهات، يقول.. آه يا بويا يا أنا!..

واقعة..

.. ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثمانين ميلادية. ليلة تفصل غروب يوم الاثنين عن شروق الثلاثاء، عدت بعد سهري إلى بيت صديقي الذي أقضي فيه أيامي بمدينة باريس الأوروبية، فردت الأريكة بنية اللون المنقوش قماشها بورود زرقاء والتي تتحول إلى سرير، غسلت وجهي وأسناني، وملأت كوبا أحرص على أن يظل قريبا مني أثناء نومي خوفا من ظمأ مفاجىء، نمت، لم أدر بماذا حلمت؟ أو ماذا رأيت؟ لكنني فزعت من نومي، قمت مكروبا، أنفاسي

متلاحقة ودقات قلبي متسارعة وعرقي وفير، وأطرافي مرتجفة، لم أدر أي حلم رأيت؟ أو الصوت الذي ايقظني أن كان هناك صوت؟ لكن بؤرة ما هزني كان أبي، كنت ملهوفا، خائفا عليه، وعندي شفقة وحنو عظيمان، قعدت في الفراش مرددا بلا توقف، بلا فواصل سكونية، مالك يا بوي.. مالك؟..

ثم تداركت نفسي، نظرت حولي، بدأت أعي، تلك حجرة ليست في بيتي، هذا بيت ليس في مدينتي، أنا في مدينة نائية عن موطني، أنا في سفر بعيد عن أبي، أبي بعيد عني، خف كربي، قلت بصوت مرتفع: هل سأصدق الهواجس؟ نظرت إلى ساعتي، كانت الثالثة والثلث من فجر يوم الثلاثاء بتوقيت باريس، نفس توقيت قاهرتي..

تفسير..

.. تجلى لي الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي، ولما كنت لا أقدم على تصرف أو فعل إلا إذا نظرت إلى سيدي الحسين ثم استأذنه بالقول أو النظر، لهذا تطلعت اليه، فاذن لي.. بادرني الشيخ الأكبر فقال ان ما جرى في باريس ليس بغريب على بعض الأفراد دون غيرهم وانني يجب ألا أطيل التفكير في ذلك لأن أمورا عديدة لا تزال مستعصية على الادراك لكنها ستعرف يوما..

لاحظت انه يتحدث إليّ بدون أن يقترب مني، وان مسافة

تفصلني عنه لم استطع تحديدها، تبدو لي قريبة، بعيدة، لكن صوته لا يتغير، وحجمه في نظري لا يدركه نقص أو زيادة حدثني برقيق اشارة ودقيق عبارة:

رأيت مثل ذلك لوالدي ـ رحمه الله ـ وكان قبل ان يموت بخمسة عشر يوماً أخبرني بموته، وانه يموت يوم الأربعاء، وكذلك كان، فلما كان يوم موته ـ وكان مريضا شديد المرض ـ استوى قاعدا، غير مستند، وقال لي: يا ولدي اليوم الرحيل والبقاء، فقلت له: «كتب الله سلامتك في سفرك هذا، وبارك لك في لقائك!». ففرح بذلك وقال لي «جزاك الله يا ولدي عني خيراً، كل ما كنت اسمعه منك تقوله ولا أعرفه وربما كنت أنكر بعضه هوذا أنا أشهده»، ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء، له نور يتلألأ، فشعر بها الوالد، ثم ان تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمت بدنه، فقبلته وودعته وخرجت من عنده، وقلت له «أنا أسير إلى المسجد الجامع ألى أن يأتيني نعيك»، فقال لي: «رح ولا تترك أحداً يدخل عليّ» وجمع أهله وبناته فلما جاء الظهر، جاءني نعيه فجئت إليه، فوجدته على حاله ـ يشك الناظر فيه ـ بين الحياة والموت، وعلى تلك الحالة دفناه، فسبحان من يختص برحمته من يشاء..

قلت: «اذن سافر أبي في نفس اللحظة التي فزعت فيها؟».

قال الشيخ الأكبر:

«نعم».. ثم اختفى..

ماذا لو؟.

.. ماذا لو انه نام بالغرفة إلى جوار أمه؟ ماذا لو أنه لم يفزع من نومه؟ ماذا لو انه لم يول مبتعدا؟ تساءلت فعدت أراه بجوار أمه، الليل ثقيل والصمت جاثم، لم يحدثني الصمت ولم يشرح لي النجم القصي، انما رأيت الظهور المفاجىء للقتلة، النصال ترتفع وتهوى، يتمكنون من أبي، وهنا أحاطني عماء، وتبعثرت في الموجودات، تفتت إلى ذرات غير مرئية، وتلاشيت في منزل النسيان فلم التئم، ولم أكن نطفة، ولا علقة، ولم أكن شيئاً، لم أنطق، ولم أبصر، ولم أصغ، تبددت، وذاب وعيي في لا وعيي، استغثت، استنجدت، امسكني شفيعي منهيا ذلك التجلي الثقيل، كنت مرعوشا فطبطب عليّ، واساني، وحنا عليّ، اسر إليّ بما جرى عندما غاص النصل في ظهر أبيه علي بن أبي طالب، قال أنه رأى قاتل أبيه بعينيه لكنه لم يمد إليه يدا، لم يعذبه كما ادعى بعض المؤرخين من عملاء معاوية أوصى والده بذلك وأنفاسه تتناقص وتمضي إلى التلاشي، قال له ولأخيه الحسن: عزمت عليكما لما حبستما الرجل فإن مت فاقتلاه ولا تمثلا به. قال مؤنسي انه رأى قاتل أبيه بعينيه، هنا لمحت التأثر في صوته، فاطرقت صامتا وأنا متحير، لا أدري ماذا أقول؟ وكيف أواسي انا من يواسي الدنيا؟ وكيف اخفف عمن يخفف آلام الشهداء، أنى لي بمخاطبة من هو بجراحات الدنيا خبير، عليم؟، وكأنه أدرك ما بي، فتركني أعود إلى أبي، أو أعاد أبي إليّ.

سلام . .

. . السلام على الأيـام الرواحـل، السلام عـلى الأعمار المنقضية، السلام على البهجة الزائلة، والبسمة الحانية، والأنة الشاكية، واللحظة التي لا يمكن استعادتها أبداً، السلام على أيام الجهاد، والثرى الذي احتوى، والظلال الوارفة، السلام على ما هو آت، السلام على الدهر المهلك، المحيى، القائم بالسنن، السلام على الطل والندى. . السلام، السلام على المن والسلوى. .

السفر إلى البدايات والنهايات. .

. . سافرت برفقة إمامي إلى تلك الأيام من حياة أبي، دنت مني الموجودات بعـد طول نـأي، ودنوت منهـا بعد شتـات عجيب، حدثتني الليالي المتوالية عن بداية هجاج أبي، وهيامه على وجهه، حدثتني مواطىء قدميه عن خطوه المتعب، عن كده وتعبه، عن قعوده عن قيامه عن تمدده بقرب السواقي المهجورة، والآبار التي جفت، وعند حقول القصب، عن هربه من عمه الذي سكن البيت، وراح يبحث عنه ليقتله وتؤول اليه قطعة الأرض والنخلات، كلمتني السكـونات المسـائية، وافصح لي الصمت الغروبي، عن خـوفه، عن حـذره، عن افتقـاده السقـف، والفراش اللين، والبـاب المغلق، ورائحـة الطعام في القدر الفخاري فوق الكانون، ورائحة الارغفة لحظة

خروجها من الفرن، عن قراءته الفاتحة كي يبعد الشياطين والأرواح الشريرة السارحة وأرواح المقتولين الهائمة، الأرواح التي تظهر للناس في صور مختلفة، على هيئة بشر ثم تنقلب إلى صور الحيوانات والسعالى، تطول وتقصر، ترسل الشرر، حدثني قمر ضنين الضوء غير مكتمل عنه، عندما لبد بين النخيل في المنخفض الممتد تحت بيوت البلدة، ورؤيته لخيال غريب يمرق عبر السعف المتشابكة، يقفز يتدلى، يتقلب، يقذف أماكن نائية، بحجارة مستديرة لم يدر أبي من أين يتناولها ومن أي جعبة يستخرجها؟، تلاِ أبي الفاتحة، وآية من قصار السور، اختفى الخيال، فيما بعد عرف انه عفريت قاطع طريق، وانه يظهر في الليالي شبه المظلمة، وانه يقذف مواضع بعيدة جداً بالحجارة، حدثتني الليالي المتعاقبة عن ارتعاده ورجفته، ودعائه ان ينقضي الظلام، ان يسرع النهار بالمجيىء، عن خوفه من الذئاب، من الضباع، خاصة الضباع، سمع انها تتعقب الانسان بصبر، باصرار حتى ينال التعب منه، عندئذ تثب عليه، تضربه ضربة واحدة، تطرحه أرضاً، تبدأ لحس أجزاء معينة من جسده، ما حول الاست، باطن القدمين، حتى تتفكك الأعصاب، عندئذ تبدأ الالتهام الشره، كلمتني نخلة نضرة، سخية الطرح، قالت انها مدينة بوجودها واهتزازها اللطيف، واخضرار سعفها إلى أبي، لم يكن ممكنا ان توجد لولا دفنه لنواة بعد أن أكل بلحة صفراء صغيرة مستطيلة، عاش اياماً على البلح المتساقط وثمار أخرى، تلك البلحة الصفراء تأملها بعينيه الأرقتين ومسح

التراب عنها بيديه، بعد أن أكلها شرد ذهنه، ساح بفكره، وتذكر امه، ترحم عليها بصوت عال، ثم بكى، واثناء بكائه دفن النواة الصلبة في الطين، فوق نفس الموضع تساقطت دمعات من مآقيه، دموعه أول من روى البداية، قالت لي النخلة انها منذ بزوغها إلى الدنيا، في نفس اللحظة المماثلة تذرف دمعتين وان جمارها من دمع أبي القديم، ولن ينزف كله إلا إذا ذبحت أو اجتثت من جذرها المتين. تعجبت وتأثرت، قلت:

اذن انت مسقية بدموع أبي؟ تختزنينها في رحمك المكنون؟ قالت النخلة المزهوة النضرة، لولا أبوك لما كنت ولما تمايل سعفي عند هبوب النسمات، لما كان طرحي، واخصابي. كدت اطلب لحظة بزوع الدمعتين غير ان مفرج كروبي امسك يدي مسكا هينا لينا حازما، قادني فرأيت قبرا وحوله رمال صفراء ناعمة متوحدة اللون كأنها لا تفارق الأصيل أبدا، منها تنبت شجيرات شاحبة الخضرة، لم أعهدها ولم أعرف اسما لها، اشار قائلاً: هذا مثوى ابي أمير المؤمنين، وتلك الشجيرات منا ونحن منها، صحبني إلى رؤية أخرى، رأيت قبر جمال عبد الناصر الرخامي، رأيته مهجورا من الحراس، من الناس، اما الزمن فمتقدم عني غريب عليّ ، عرفت ان القبر خالٍ منه، فكدت أستفسر، لكنه أشار إلى ورود حمراء صغيرة يتخلل كلاً منها دوائر زرقاء، تتوسط كل دائرة نقطة بيضاء، قال ان هذه الورود منه وهو منها، اضمرت السؤال ولم أعين وقتا لنطقه، صحبني إلى رؤية تالية، إلى قبور غير مطروقة، لا يعرف

الطريق إليها انسان، لا تزار أيام الأعياد والمواسم، ولا يقف عند اطرافها باعة الزهور الصفراء الغامقة، زهور الموت، ولا يقصدها الفقهاء، قبور بلا علامات، تحوي رفات جنود ماتوا في حروب متتالية، رأيت سيناء وضفتي القناة وأماكن متباعدة من الوادي، رأيت خنادق مطمورة لا تبدو معالمها، وأساسات مدكوكة لقواعد خرسانية اقيمت يوما، طلع على وجه نسيته، لم أره في زماني الدنيوي إلا للحظة عابرة، عامل أجهل اسمه من عمال البناء الصعايدة محمول على محفة، ساقه اليمنى مبتورة اثر غارة من طيران العدو، العدو بلغة زمني القديم، وجه خرج صاحبه من قريته القصية يسعى طلبا للرزق، جاء مع الترحيلة إلى الجبهة، تذكرت اين رأيته.. في قسم بمستشفى عسكري غص بالجرحى، لم يكن قد استقر بعد فوق سرير، رأسه لا يلامس المحفة، في عينيه اسى وخوف من أيام صعبة سيواجهها بلا قدرة، بلا ساق تعينه وتساعده، هذا القلق، تلك الملامح السمراء، شكل مقدمة الرأس، ليست غريبة عني، لوهلة خطر لي أن ملامح أبي تلقى بظلال، أشفقت وجزعت أن تكون ساق أبي قد بترت يوماً مع انها لم تمس بسوء، وأبي نفسه سافر بلا عودة، لكن رحيله لا يمنعني من الخوف أو الضيق لو فكرت في احتمال أن مكروها كان سيصيبه يوماً ما، رأيت أوراقاً مطموسة المحتوى، وفوارغ ذخيرة، وأسلاك تليفونات ميدانية مدت عبر الحذر والخشية، وانفعالات شتى، رأيت شظايا صدفة، وسلسلة بها حلقة محفور عليها رقم جندي،

رأيت دروبا في التيه، وأصداء نظرات حذرة، وروائح سابحة في الأعالي، أشار مولاي بأصبعه في حركة دائرية، قال: هؤلاء من قومك. هذا منهم، وهم منه. ثم صحبني إلى رؤية تالية، إلى قبر أبي، وهلع قلبي، لم أجده، انما رأيت مبنى شاهق الارتفاع، أبيض، أصم، نوافذه مصمتة، غريب لا أعرف ما بداخله، رأيت فراشات صغيرة عاجية اللون لا ترى في ضوء الدنيا العادي، قال: هذه من أبيك، وأبيك منها، قلت ملتاعا، وهل تعي انني أنا، وانها هي هي؟ وهنا صمت عني، عدت إلى أبي الطفل المطارد من عمه، عدت لتصبح بدايتي في نهايتي ونهايتي في بدايتي، تجلت لي غمامة بيضاء هينة، لينة، تسبح فوق ذرى شاهقة، جبال بعيدة عن موطني، لم يذهب إليها أبي ولم يسمع بها، رأيت خطوطا نحيلة فوق السفوح المتعرجة، المتقلبة، بعد تدقيق، عرفت انها مياه ناتجة عن ذوبان الثلوج، وانها بدايات الانهار، هذه الخيوط النحيلة ستلتقي بخيوط أخرى، ستتكون خطوطاً اغلظ، تحفر مجرى أعمق، ثم يلتقي المجرى بالمجرى، ويصب المنبع في المصب، والمصب في المنبع، تتوحد البدايات بالنهايات، والنهايات بالبدايات، وهكذا تتدفق الأنهار الكبيرة إلى البحار إلى المحيطات إلى الأعالي، من يرى وهن البداية لا يمكنه تصور عنف النهاية، انتبهت إلى الغمامة تناغيني وتلفت نظري، دهشت، وكنت أرى الغمام في الأعالي لأول مرة، أتجول بينه وعبره بلا حاجز، أخطو فوقه، وأميل عليه، وكان بامكاني أن

اتكىء لو أردت، قالت الغمامة والسماء تلوح منها: أنا أحتوي أبيك، أنا من أبيك، وأبيك مني، تساءلت: كيف؟ فقالت والريح طيبة تدفعها إلى مستقر لا أعلمه، انها في ذلك الزمن كانت ماء ثم اصبحت بخاراً، ثم صارت غماما، وضبابا وندى، ثم عادت سيرتها الأولى إلى حين، في إحدى مرات التحول والتقلب والتغير كانت جزءاً من مياه ترعة تخترق قرية أبي، ترعة تمتلىء دائمًا بمد الفيضان الذي كان يغرق تلك النواحي، قالت الغمامة انها لامست جسد أبي، تساءلت: كيف جرى ذلك؟ قالت: كان أبوك يهيم على وجهه، يخشى الظهور في دروب القرية، لم يكن يمتلك إلا جلباباً وطاقية وسروالاً، الجلباب تهرأ، تمزق، كان أحياناً يغسله، ينشره في الشمس ليجف، وإذا مر انسان يستر نفسه بالماء، هكذا نزل إلى الترعة ليحجب عريه أثناء مرور أربعة من الجمالية يسوقون جمالهم المحملة بالقش والحطب والجريد، قضى وقتاً ليس بالهين لأن ثلاثة جاؤوا، توقفوا، قرفصوا، وبدأوا الكلام، وزادوا وعادوا فيه، عندما ذهبوا خرج متعباً، وكنت أنا قطرات أبلل جسده ومسامه، طرح نفسه في الشمس، وكان ذلك أوان تحولي وتغيري، فارقت جسد أبيك بخاراً غير مرئي ألى الأعالي، لكنني أودعته أثراً لم يظهر الا عندما أوغل في العمر وتقدم، قلت: هذا صحيح يا غمامة لا أعرف مرساها أو مجريها؟ حدثتها عن آلام عاودت أبي في الأيام الديسمبرية، إذ يظهر يخطو متثاقلاً، يكز على أسنانه، يلفظ الآهة المكتومة، تلتوي

ملامحه، يكتم الشكوى، يطلع السلم درجة درجة بصعوبة، قلت لم يذهب أبي إلى أطباء من تلقاء نفسه، في الليالي الشتوية يتمكن منه السعال، يهتز جسده تطلب أمي منه أن يذهب إلى طبيب، فيقول بعد أن يهدأ قليلا انه سيذهب غداً إلى قصر العيني، ويجيء الغد. . ولا يذهب، يعود أحياناً بأوراق شجر الجوافة، يغليها في الماء، يقول ان ذلك المشروب يشفي السعال يطلب مني صحيفة قديمة، يطبقها، يضعها على صدره، لكن السعال لا يخف، يتكرر في ليالي الشتاء، يعقب النوبة بآهة. . آه يا بوي، لم يذهب إلى طبيب، لو انه. . ، صحيح، لكل شيء قدر، صحيح، للأعمار حدود، حدود،لكن الدنيا اسباب متقابلة، متعارفة، متداخلة، لو ذهب إلى طبيب! ابديت الحسرة القصوى، غير أن الغمامة قالت، انت تحدثني عن أشياء أجهلها، ما أعرفه ميلاد ذلك الألم، الذي سرى ثم قضى، بداية توغله من العصعص، قلت: هذا موضع لم نحط به خبراً، قالت: انت تنسى أو تتناسى. جزعت لقولها، فرأيت أبي مستنداً ألى كتفي وعمري بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، نقف داخل مستشفى عام، طبيب شاب يرتدي معطفا أبيض يقول لطبيب آخر: إزمان في العمود الفقري، وسعال مزمن. بدا أبي مستسلما، صامتا، كأنه لا يبالي بما يقال، بما يجري حوله، تلك ملامحه التي اعتدتها اثناء المرض، تقبل سكوني، انساني، وجلد، رأيت رجلا ينصحه بالذهاب إلى اعرابي في صحراء الهرم يقوم بعمليات الكي لكنه لم يذهب، لم

يذهب أبداً! اخبرتني الغمامة انها طافت فضاءات لا نهاية لها ولامست صخورا لم يرها بشر، وانها أسرت زمنا في مناطق الجليد حتى حررها دفء عابر نادر، التصقت بقضبان حديدية لنوافذ بيوت هاجعة، وقضبان زنازين عالية، وكوات في جدران دور عبادة، تمددت فوق الواح زجاجية، وحطت فوق مداخن باردة، وأسلاك، وعلقت في فضاءات صباحية، وغروبية، وليلية، حتى فرقتها أشعة شمس فطفت إلى ذرى عالية، خفت المناجاة الغمامية، نأت عني، وأدركت انني راحل في الآماد التي لا يحدها بصر ولا تقع في نطاق عينين، عرفت انني أدنو من منزل الأصوات الباقية، حيث كل ما لفظ حي لم يفن، ولجته فسمعت جملا قيلت في جلسات مسائية هادئة، آمنة، فيها وصل، ونجوى، وكلمات مصاحبة للإيماءات، ولحظات الادراك المفاجىء، وجمل قيلت عند بدايات الطرق المؤدية، الشروع في سطر، وخشية من غيبة، واستفسار عن وصول، وتقدير لمسافات، وتحيات عابرة، اجهدت سمعي أثناء مروقي، سمعت صيحات حراس حدودية، ونداءات ليلية تطلب الافصاح، وسلاماً تعزفه آلات نفخ نحاسية، ارتعشت تأثراً، هذا مني، نوبة رجوع تعقبها نوبة صحيان، كيف أضل أو أنسى هذه الاعتبارات الطقوسية، لحظة مواراة جثمان صاحبي بثيابه العسكرية عدا الحذاء الذي خلع عنه وأعقب ذلك تمدده هامدا، صرخة جندي من رجاله: انظروا انه راضٍ، هادىء، زعقة حانية ملوعة من ضابط عرفه وحارب معه: سلم لي على

أخي. أمانة لا تنس، سمعت صوت أبي، وقف شعري، واقشعر جلدي، صوت أبي، صوت أبي الذي يشحب في ذاكرة مسمعي، ابي يود عني، متى .. لم أعرف، كان توقفي مستحيلا، كنت محكوماً بالمضي والسريان الدائم، اما محاولتي الاستزادة، فغير ممكنة، ورغبتي بالبقاء هنا أو هناك لا تلبى في كل الأحوال، سمعت حفيف الموج. الموجة اذ تدرك الموجة، ثم تصفيق، تصفيق، هتاف، عبد الناصر يخطب، تعجبت، هل وقع التوحد؟ الصوت لأبي وادراكي انه لعبد الناصر، والكلمات نطقها عبد الناصر من قبل، يؤمم القناة، يحكي التاريخ الطويل، سنقاتل.. سنقاتل.. سنقاتل، من فوق منبر الأزهر يخطب، يقول انه لن يغادر مصر، انه باق وان أولاده في مصر، لم يرحلوا إلى أي جهة، الصوت نضر كأنه يخرج لتوه، عندما لفظ ما سمعت كنت أتنفس هواء الدنيا، وأعي ظهور شموسها وتعاقب لياليها ومجيء الأعياد وحلول الحزن ونزول الأسى بالنفس، وكان أبي يمشي في الأرض، يضمنا بيت واحد، ويظلنا سقف واحد، وأسمع صوته في الصباح وعند بدايات الليل، استعدت بعيني عقلي ظهيرة تلك الجمعة، ميدان مسجد الحسين والزمن خريفي نوفمبري فيه بدايات شتاء مقترب، صفوف من متطوعي المقاومة الشعبية، يمسكون البنادق، صوت جماعي يتصاعد، لا يروح من بالي رجل يرتدي جلبابا وجاكتة قصيرة.. ربما كانت جلدية.. ربما، عناوين الصحف تعلن ان بور سعيد دفعت ضريبة الدم،

مشيت وعندي حماس، ورغبة مجهولة في المشاركة، ابتسمت عندما سمعت صوتي في المدرسة، أخبر زملائي ـ كنت أكذب ـ ان احد اقاربنا الأقربين يحارب الآن في سيناء، سمعت صوتي في الحارة، انادي أخي الأصغر، أخبره انني رأيت طائرة معادية تحترق ـ كنت أكذب ـ تلك أيام راحت، أصواتها باقية، لكنها شذر، لا تسمع بترتيب وقوعها، أصوات هائمة، يجد بعضها طريقه إلى السمع فأفهم، والباقي يتبدد ويضيع، فلا قدرة لي عليه، أصوات تعيد بعض المذاق، عبير واهن، لكن الأيام نفسها تظل بمنأى عني، ضائعة، خطر لي ان ما ضاع لا يمكن استعادته، ولكن طردت المخاطر عني، لماذا أسعى اذن. . وكيف يرد مولاي علي؟ أصوات تلك الأيام، في الصالة الضيقة نجلس، صفارة الخطر المتقطعة، صفارة الأمان المتصلة، وانفجارات بعيدة، صوت من عرض الطريق ينادي بحزم، بلهجة أمر، مطالبا شخصاً ما أن يطفىء النور، سمعت صوت أبي، لكن كنت أعي انه لعبد الناصر، عبد الناصر يتكلم بصوت أبي، حواره الهامس عندما زار قرى الإسماعيلية الأمامية، والخطر في بور سعيد على مرمى، اصغي إلى رياح، أعرف انها رياح ذلك اليوم بعينه، سمعت صوت أبي مرة أخرى لكن المتكلم ليس أبي، يتحدث ألى جندي في آخر زيارة ميدانية، يسأل عن وجبات الطعام، أتكفي؟ عن مرات الاستحمام؟ عن مدى الاسلحة البرية؟ يتردد الصوت في غرفة مغلقة، اجتماع يحضره عدد من قادة كتائب الصواريخ. ما

امكانية اسقاط الطائرات الإسرائيلية المغيرة المعربدة بـواسطة كمائن متقنة؟ ما الوسيلة وحائط الصواريخ لم يستكمل بعد؟ ثم سمعت صوت أبي من أبي، يدعو لي ولأخوتي، يدعو لي ولزوجتي وابني الذي لن يعي صورته ولن يذكر ملامح جده، كان عمره عند رحيل أبي ثلاثة أعوام وخمسة شهور ونصف، خطى أبي تطوف ضريح الحسين، سمعت صوته يقول لي متعبا وكان ذلك قبل ثلاث سنوات من سفره الأبدي، من ارتقائه الضوء وضياعه بين النجوم الذاريات ـ أنا خلاص يا جمال.. أنا في النازل. اهتف: لا تقل ذلك يا أبي.. عمرك مديد باذن الله. لكن خاب فألى وذوى أملي، اسمع أنات رجل قدم من الريف إلى المدينة في الزمن المملوكي ولسبب ما قبض عليه وصلب.. يتردد سؤالي، لماذا الموت ظلما، لماذا الاجهاز على العمر قبل الأوان؟ اسمع هتافا، الاستقلال التـام أو الموت الزؤام، يجيئني صوت إمامي في زمن سحيق البعد: أنا ترجمان الخائفين، أنا صوت من لا صوت له، اني لم أخرج مفسدا ولا ظالما وانما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن رد عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله بيني وبين القوم بالحـق وهو خير الحاكمين، سمعت أمية يقهقه ساخراً عندما بلغه موت الحسن بعد أن دس له السم، أمية ابن هند ماضغة كبد حمزة عم الرسول، يقول: لله جنود من عسل! سمعت همهمـة، غمغمة، مصمصة أسى، ومهمهـة دهشـةٍ، امـرأة

تستنجد، امرأة يتعثر طلقها، امرأة ترجو شخصاً مـا الا يتركها وحيدة في الدنيا! لم أدر من أي عصر؟ سمعت تراتيل جنائزية بلغة غامضة، مندثرة، لا تفصح عن معانيها، ولا رموزها، غير انها أورثتني حزنا ثاقبا فريا، سمعت تدفق ماء في منطقة صخرية، سمعت شلالا يهدر، سمعت موجة ترتد عن الشاطىء، سمعت خرير صنبور غير محكم الاغلاق، قطرات مطر متوالية تصطدم بـأرض صلبة، بـأرض رخوة، بـأرض تغطيها الحشائش، بأوراق نبات كثيف، بزجاج مقهى عريض، سمعت الماء يملأ كفى أبي عند الوضـوء صباح يـوم جمعة، صوت طائر حط لتوه على شاطىء بعد رحلة طويلة لا يدري انسان مقدارها، سمعت نداءات طيور تتجمع في سماء شمالية أسراباً، مع سريان البرد الخريفي، تستعد للاتجاه إلى الجنوب، سمعت كرواناً ليلياً يمرق، طيور منقرضة هائلة الحجم، حمامة قمرية تقف فوق ايريال قديم مثبت إلى سور السطح، الوقت ظهيرة ولعبي توقف، انتـظر خطى أبي فـوق السلم، عودتـه اليومية، مرتديا حلته الصفراء، ممسكا بالطعـام أو قرطـاس الفاكهة، صمت ظهيـرة، حارة، هـديل القمـرية مستمـر، متقطع، شجى، يشي بايقاع الزمن الخفي، النائي، القصي جداً، اصغى، لكن صوت عودة أبي لم يبدأ بعد، صوت جميل يرتل، يولي قبل ان يفصح، وطلع نشيد يشيد بأيام كفاحية، لم أشهدها ولم أعرفها، نقير نحاسي، مناجاة انثوية، حيرة، فتاة تقول انها لا تدري ما يجب ان تفعل، امرأة تتحدث عن هجر

قاس، صرخة منبعثة من لحظة المتعة الأولى، صوت حنون خام رقيق، يقول ماذا تريد مني؟ أوشكت أن أجيب، تلك عبارة قيلت لي، وأجبت عليها، لكنها ولت كل ما في منزل الأصوات ترديد، ورجع قديم، اصطكاك ركبتين، صلصلة، همس، أبي يتحدث إلى أمي والليل يتقدم، يحدثها عن هدايا سيأخذها معه عند سفره إلى البلدة، أرز، صابون، قماش، موسيقى حانية، اختلاط اصوات في مطعم صغير، اللغة غريبة، الملاعق تحتك بالأطباق، صوت تلاقى حافة كأس زجاجية بحافة كأس أخرى، كباس موقد الغاز، يتتابع في سرعة، تضطرب النيران قبل انتظامها في وشيش منتظم، تلك أمي، الموقد أمامها، وطعامنا فوقه، قوائم الطبلية الخشبية تستقر فوق الأرض، نتحلق حولها، أبي وأمي وأخوتي، يوزع أبي «مناب» كل منا، خاصة اللحم، صوته يرشف الشاي، اعملوا لي كباية شاي، صغير غامض، متصل، متقطع، اصوات سحيقة البعد، وقع اخفاف الجمال على رمال صحراء، صوت ذرات الرمال المتناثرة المتخلفة عن الخطى، رواحل الحسين؟. ربما صوت امتداد جذور شجيرات في أراضٍ صحراوية، أصوات ليلية، صدى طلقة طائشة، تميز أذني بين انفجار وآخر هذا مكتوم، اذن.. اصاب الهدف. من؟ اين؟ كم الخسائر؟ انفجار يعقبه رنين وصدى، اذن.. طاش التصويب، انفجار.. هذا لمدفع، وذاك لدبابة، هذا صاروخي وذاك لغم أرضي، أقف بين من سيعبرون؛ أظهر أقصى الود

تجاهم، بعد لحظات سيمضون إلى قدر، إلى خطر، إلى عدو انقلب فيما بعد إلى صديق - كما قالوا، كما زعموا - سمعت أصوات مرافقتي لهم أول مرة، الحركة الحذرة، النزول إلى القوارب، سمعت ايقاع نبضي، علامات خوفي، لا أكذب ولن أزعم ولا أدعي غير ما جرى لي على الرغم من مرور الحول اثر الحول، خفت لكنني حرصت على أن أبدو جلدا، أستجيب لنظرات صاحبي الهادئة، المستهيبة، الباحثة أغواري، سمعت تمايل قارب المطاط عندما نزلت اليه، سمعت الابحار معهم عبر الماء والنجوم فوقنا والليل يغشانا، ابتعادنا عن مواقعنا، في البحر، في الوحدة، مع الاتجاه إلى العدو يتزايد القرب الانساني، نزل داخلي أمن، سمعت اشارات لاسلكية، وخطواً حذراً، وخطواً متهوراً، وخطواً بين . . بين، سمعت خطى ثابتة، وخطى مترنحة، خطى أولى حذرة، مستكشفة، واهنة، غضة، وخطى أخيرة مرتجفة ضعيفة، طلقات مباغتة، صرخات الهجوم وصرخات الدفاع حيث يسترد الانسان زمنه الوحشي، سمعت صوت المفاجأة في أصل جوهره، مصدره ومنبعه قبل أن يتفرق ويتجزأ، سمعت الصدى، التردد الكوني، الاشارات مجهولة المنبع، سمعت شجيرات جافة تهيب بي أن أقف، أن أصغي إليها. طلبت ذلك فوقعت الاستجابة، تساءلت الشجيرات بصوت قادم من منزل التساؤلات، لماذا الموت في الحرب وقد جرى ما جرى؟ لماذا اذا كانت النتائج معكوسة؟ لماذا وقتلتنا يتجولون الآن

مزهوين في المدن التي كانت مستعصية؟ الم ترهم في الأحياء القديمة التي لازمها أبوك وأودع عمره في كل جزء منها؟ هم هناك يستفسرون، يستقصون . . لماذا؟ وهنا أدركت انني أفارق منزل الأصوات، وانني قد أعبره لكن لا أدري متى؟ أو كيف؟ رأيت مساحة من الأرض، نطقت فقالت: وطأني صاحبك الذي تحمله في غدوك ورواحك. هل تذكر زيارتك لزوجته ومعايشتك لنمو الانسان، وضياع الوجود الإنساني؟ أومأت، قالت بقعة الأرض: وطأني أخيراً ثلاثة، أحدهم هو الذي صوب مدفع البرج الرئيسي، هو ضاغط زناد الطلقة التي تناثرت إلى شظايا، إحدى الشظايا اخترقت جانب القلب الأيمن واستقرت، هنا مسني ضر غريب فتساءلت: هل جاء قاتل صاحبي إلى هنا؟، بدا لي صديقي الذي كان! رأيته يمشي واقفاً ويقف ماشياً، جرحه طري ينزف، ما زال ينزف، دمه يبلل القميص الكاكي، بالضبط عند موقع القلب، حدثني فقال انه يشكرني لأنني استجبت له عندما جاءني في الحلم وطلب مني زيارة أسرته التي كان ربا لها. بدا مهموما، متقدما في الضنى، وهذا ما لم أعهده منه في حياته، في لحظة بدا لي ما تأخرت في اكتشافه، وجهه وجهه، أما ملامحه فلعبد الناصر، وعندما تكلم سمعت أبي، قال: تسأل عن قاتلي، انه أول من زاركم، أجبت وعندي حدة وعتاب: لم يزرني أحدهم يا ابراهيم. كرر متجاهلا نطقي باسمه: انه أول من زاركم. قلت وحنق يتمكن مني: مالي أناو. . قاطعني بهدوء باتر

كأسلوبه في المباغتة: أول من زاركم انتم الأحياء، بدا حزينا، سمعته يقول بصوت أبي: لم تكن حياتي كلها الا حلما. حزنت وتفتتت روحي وصرت كلي غصة، حرت، هل أرد على أبي، أو أحاور صاحبي الشهيد؟ أو أحملق الى عبد الناصر، اعتصمت بالسكينة، قال: ماذا جرى.. أهو السبات الذي يطول؟ أم أنه المحاق يبدأ؟ أم إنه النسيان؟ ذهب عني، أو ذهبوا، نزل بي ضيق وكدر، رددت حائراً، لماذا رحلوا.. وما الجدوى؟ انتبهت الى ملاذي الأعظم يرمقني بما يشبه الاستنكار لما أقول، صحت اعذرني يا سيد الشهداء، ترى ما حل بنا؟ لم يجبني قلت متهدجا، اشفق على ضريحك الذي أودعته أمان طفولتي وعمري الأول، وعطر أبي، وجعلته سدرة المنتهى لبلواي في دنياي، انت تعرف ما أجهله، لم أتأكد من تبدد عبوسه. قلت: انت ركني الشديد. يلتفت إليّ حانياً، اهتف مطمئنا: الآن حق لي الخوف!.

آيه

«.. الله الذي خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة».

صدق الله العظيم

حقيقة

«.. النفوس الانسانية جبلت على الجزع والخشية في أصل

نشأتها، الجزع في الانسان أقوى منه في الحيوانات، أما الشجاعة فأمر عرضي، الا ترى الطفل ابن الشهر أو الشهرين ينتفض مفزوعا، مرتجفا، من الصوت المفاجىء...

تعاقب الرؤى

رأيت مولاي الحسين في زمنه الأصلي، عصره الأول، دهره الخاص، يجلس داخل بيته وحمله ليس بهين، يستشعر دبيب المقبل، بداية تغير الأحوال، تبدلها، وان ما يبصره لفظيع، لا تلوح علاماته جلية، تختفي فلا افصاح، لكنه يبصر ويرى، منذ ان دس السم لشقيقه الأكبر وثمة حزن لا يغيب، يكسو محياه الجميل، ينكت التراب بأصبعه، أو ترحل نظراته إلى ما لا يراه غيره، انه يأخذ جانب الحذر، يحتاط لنفسه ولمن حوله، معاوية يستهدفه، يرسل إلى المدينة عيونه وأرصاده، صباح كل يوم يرسل والي المدينة تقريرا إلى دمشق، به حركات الحسين، معاوية لا يكتفي بذلك، بل يوفد واحداً من عتاة شرطته السريين، يستقصي خروج الحسين ودخوله، تردده على المسجد، مجاورته لقبر جده المصطفى، توقفه في الطرقات، حديثه إلى الناس، عطفه على الفقراء، والغرباء، والضعفاء، والذين نأت بهم الحال عن أوطانهم، أوفد معاوية شرطياً سرياً آخر أصله رومي، وشرطياً سرياً ثالثاً، ورابعاً وخامساً، كل منهم يجهل الآخر، لا يدري ان هناك من يقوم بنفس عمله في اللحظة ذاتها، في دمشق يطلع معاوية،

ويقارن، رأيت الحسين هادىء الملامح، أسيان المحيا، لا يجاهر بعدائه لمعاوية، لا ينقض العهد الذي أخذه على نفسه، اقتربت منه، والظروف حوله جامحة، اثرياء القوم يلتفون حول معاوية، الأثرياء القدامى، والأثرياء الجدد، المصالح تتوطد وتنمو، ومصالح تتولد، والمناصب تتعدد، والتطلع في ازدياد، تتسع الفتوحات، وتمتد الأمصار، تواكبها الاطماع، بذل الوعود، وتتعاظم أساليب الترهيب تتنوع، رأيت أيام حبيبي المنزه، تنقلت فيها، تنوعت وتكاثرت، دخلت قصر معاوية في الشام، ودهشت بل فزعت لمظاهر الغنى هذا الذهب وتلك الفضة، الخز والديباج، ثياب معاوية، تأنقه، عطره، رأيت ذكاءه وخبثه، وتلونه في المجلس الواحد مرات وقدرته الفائقة على اظهار خلاف ما يبطن، ولم تكن ايام المصطفى بنائية، لم يمض على هجرته إلا ثلاثة أو أربعة أو خمسة وأربعون عاماً. من عرفوه وشاهدوه وخاطبوه وقعدوا معه وحاربوا خلفه ما زالوا أحياء، اما تواضع أبو بكر وزهد عمر فالعهد بهما أقرب. سمعت بأذني ما قاله معاوية لندمائه في ليلة صفا فيها الزمن وراق له: لن يتبقى تأثير لأهل البيت، النيل علنا من سيد الخلق صعب والخوض في ذلك وعر، لكن من يمتون إليه.. سمعت ما هو أشنع، لم أطق ذلك ولم احتمله فانصرفت، ثم سلكت طريقي في شرطة معاوية، رأيت اهتمامه بالشرطة السرية، وبث اعداد لا حصر لها منهم بين الخلق، خاصة عجائز النساء اللواتي ينفذن إلى أدق الخبايا، يستمعون،

يدونون، يدسون السم لهذا، أو يكيدون لـذلك، يـوزعون الأقـاويـل، والاشـاعـات، رأيت قـادة النـواحي، والـولاة، والساعين الى البلاط وطلاب الـرضا، والسـاعين من أجـل الترقي والكتبة في الـدواوين، رأيت الشعراء والقصـاصين، ومصيغي الأمثال، يحدثون الناس عن افضال معاوية، وحلمه وتقواه، وكرمه ثم كرمه، ثم يعرجون بقول السوء إلى الإمام الحسين، إلى الحسين وكل من والاهما، رأيت ما أكد لي ـ عبر زمان غير زماني ـ ان ما يتصوره العقل مستحيل الوقوع، يمكن حدوثه، كل شيء يتغير، لن أنسى، استمر سفري في زمن حبيبي الأوفى عبر منزل الرؤى، مررت بمحطات غريبة، رأيت أبي واقفاً ينظر برقة وطمأنينة، هممت بالنداء عليه، أخبره انه في المدينة المنورة، على مقربة من قبر الحبيب المصطفى الذي تمنى طوال عمره الحج إليه وزيارة قبره، وغاب عنا قبل تحقق أمنيته، قبل أن نحققها له بعد أن أصبحنا قادرين، آه.. لم نفعل، رأيته في زمن الحسين شابا، حرت، صحت به، لكنني كنت مبتعدا عنه كراحلة تنأى بسرعة بالغة عن منطلقها، راح يتضاءل حجمه، حتى صار نقطة، ثم معنى، وعندئذ رأيت صاحبي الشهيد، وقفته التي أعرفها، رأيت دمه طريا في موضع جرحه، جاء إلى زمن الحسين ينزف، لمحني، هممت بالنداء، لكنه ولى عني أو استمر ابتعادي، ثم لمحت جندا كثيفا، في جسد كل منهم جرح طري غير مضموم، غير ملتئم، قمصانهم كاكية، والخوذ رمادية، والأحذية متربة، بعضها مبلول بمياه

القناة، كنت قادراً على عد الشعيرات البيض في رأس أو صدر أيٍّ منهم مع سرعة مروقي، يتأهبون للصياح، قبل أن يصل صوتهم إلى مسمعي بعدت، رأيت أبي، رأيته نحيلا، ضامر العود، متعب الخطى، الشيب يكلل رأسه كـله وهذا لم يحدث في دنياه، رحل والشيب غـير متمكن منه، أي زمن هـذا؟ ضمني حنين وانهكني شجن، تمنيت التوقف، لكن سرياني دام عبر منزل الرؤى، حمت في المحاق، وقطعت اليباب الشاسع حتى رسوت عند مولاي الأبي وفي حلقي غصة، كنت استعيد ملامح أبي المتعبة، أعي انه قريب وانه بعيد، وانه لم يعش هذا الدهر القصي، كنت أجهل جذره ولا أقف على جده النائي، برغم ذلك حملت أيامه الصعبة معي فبكيت منها قبل شروق شموسها ورثيت لـه منها قبـل أن تلوح نجومهـا، أو تبزغ أقمارها، وتهب رياحها، قبل بردها، قبل حرها، ندبتها وهي بعد بعيدة لا تزال في رحم الغيب، تألمت منها وهي مستقبل لم يأت بعد، تقدمت في تلك الأيام الدوارس، توقفت عند الحبيب، فاجأتني رائحة ضريحـه في قاهـرتي القديمـة، العبير الخفي، البخور، وبقايا المسك والعطور المتبددة وماء الورد والسجاد القديم وخشب الصندل العبق وبرودة الرخام وكساء النجف الأحمر المعلق، والخزف المنقـوش، والعاج الـراقد في خشب المنبر، وأوراق المصاحف العتيقة، وتلؤلؤ المشكاوات، وعبير الأشواق وتضرعات المكلومين، وليت بوجهي تجاهه، لم أره، فدهمتني وحشة، مع انه انبأني عند ولوجي إلى الديوان انه

سيصحبني جل الوقت وليس كله، لفتني وحدة، وأغرورقت نفسي باليتم، والفقد، وخفت حتى كـدت أبكي، لم يطل ذلك، تجلى لي في زمنه الدنيوي، رأيته يجلس والدار غير آمنة، معاوية مات، يزيد ابنه يضيق عليه ليأخذ البيعة، ما يجري حول مولاي عجيب، تنقلب الأوضاع، تنتقل من النقيض إلى النقيض، ما يجري عجيب، يبـايع النـاس يزيد، الدنـانير، المنـاصب، الترهيب، التـرغيب، تحول الخـلافـة إلى ملكيـة تـورث، رأيته يفكـر في التقلب، التحول، التغـير، مداراة النفوس لما تبطنه النفوس، النأي عن موضوع الرسالة، شراء ما يفنى بما يبقى، يتكدس الجهد في خزائن القلة، ويتحول إلى قلائد من ذهب وفضة وأحجار كريمة، وغير كريمة، يتجسد السوء في يزيد، الفاسق، شارب الخمر، عظيم الجثة، مجدور الوجه، قبيح الظاهر، قبيح الباطن، ها هو في أعز موقع، في أمنع مكانة، خليفة محمد رسول الله، يستدير الزمان والعيون ترقب، أفئدة تلحظ، أفئدة زائغة، وأخرى بين بين، الحق ساطع والحقائق جلية، البرهان مستقيم، لكن ما من انسان يجاهر، ما من أصبع تشير وتفصح، الوفود تتوالى عـلى قصر يـزيد في دمشق، تتوطد أركان دولة الظلم، تمتد دعائم القهر، تتبدل المعاني وتنقلب القيم، الاستثناء قاعدة الـوقت، ماذا يجـري للناس والهجرة لم يمض عليهـا ستون؟ كيف تـظهر الـوجوه خلاف ما تبطنه النفوس؟ كيف تنطق الألسنة بما يخالف الألسنة والضمائر؟ كيف تعبر الملامح عما يخالف محتوى الباطن؟ كيف

تتغير الحقائق وتهتز الثوابت؟ في الدواوين وأوكار الشرطة السرية ومقارها العلنية تبدي الاقتراحات بقتل الحسين ان لم يبايع؟ يقول الكثيرون باهدار دمه، هو التقي، النقي، يعاتب أحدهم والي المدينة، لماذا لم يقتل الحسين في داره عندما رفض البيعة ليزيد؟، تجلى لي الحسين مهموما، يفكر في فقراء الدنيا، الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم، وهم كثر، وهم في كل زمان غير زمانه، يفكر في المستقبل الآتي، الرحمة، انعدام الخوف والضيق، التقوى وخوف الحساب، لا يعنيه أمره هو، بل انه لم يفكر في شخصه أبداً، لا يتوجه إلى الخلق باعتباره ابن بنت رسول الله، ولكن لما يمثله جده من معنى ورسالة، يطرق جميل المحيا حزينا، يتذكر جماعة من فقراء المدينة، يتقدمهم رجل شرطة مستتر، يهتفون ليزيد، ما يؤلمه أن يتحمس هؤلاء والضر كله لاحق بهم، وهم لا يعلمون خبايا الغد، ازددت اقتراباً منه، وحنوا عليه، لم يحدثني عما أرى وأطالع، انما آثر صحبتي إلى أيامه الشداد لأطالع بعيني وأعرف واستخلص العبر واعرف المبتدأ من الخبر، ترقرقت حنايا قلبي، تقدمت منه، خاطبته وأنا معزول عنه، بيني وبينه ستار لا يرى، ناجيته وأنا لا أدري، أيسمعني أم لا يسمعني؟: مالي أراك بادي الضنى؟ ثقيل الحمول، ما لدموع عينيك متجمدة؟ ما لانساني عينيك قلقين؟ ما لاحزانك سوافح؟ ما لاشجانك بلا حد؟ تطيل التأمل في الدهر القلب كما أطلت أنا من بعدك؟ يؤرقك طمس المثل وتحول القيم كما أرقني ذلك؟ في

مركز الديوان شكوت اليك حيرتي وغربتي وها أنا أواجه حيرتك، ليتني عشت دنياي في دنياك، ليتني قضيت أيامي في أيامك لأهون عليك، لأذب عنك السوء، هنا شعرت بوجوده إلى جواري، التفت، ولم يعد الاشراق عني ببعيد، رأيته إلى جواري، وفي نفس الوقت رأيته أمامي، رأيته هو ينظر إلى هو، لم أدر إلى من أتوجه بحديثي. مولاي الذي يصحبني يرق لي، ومولاي الدي أمامي يتأهب لمواجهة البلايا، يستعد لزمن مدلهم، مقبل، قلت مندفعا، حسن النية، أبيض السريرة، ان ما يحيره سوف يحيرني، وما يؤرقه سوف يؤرقني. في زمنه تحولوا وتبدلوا وتغيروا، وفي زمني سينقلبون ويتقلبون، الفروق فادحة، فأين زمني من زمنه. قلت وأنا أحاوره..

علمتني يا شفيعي أن الأشياء تتبدل حتى ما نظن انه يستعصى علي التغيير.

قال وهو يحاورني.

تذكر ان الأسوأ يتغير إلى الأحسن، كما يتبدل الأفضل إلى الأردأ، والا لما كان التغير والتبدل في الأصل..

قلت وأنا أحاوره..

عشت يا إمامي زمنك الرديء قرب نهاية عمرك الدنيوي، أما عمري فيمضي من خبيث إلى أخبث، اسمح لي، دعني أقص عليك بعضا من زمني..

يهز مولاي رأسه، أقول والصوت مني جريح.

تعرف يا أخضر القلب، يا طاهر النفس، انني شببت وكان

أول ما وعيته، ما أدركته ان وطنا بأكمله انتزع من بنيه، وانهم قاسوا هجاجا وشتاتا.

أومأ فتدفقت الشجاعة في عروقي.. قلت أحدثه..

تحرير فلسطين. دارت الدروس حول هذا الهدف والمعنى، كذا ترددت الأغاني، وضعت الكتب والمؤلفات والمحاضرات، سجلت الرسائل العلمية، قدمت الأفلام والمسرحيات، وتم اختيار نوعيات السلاح، ومشت الطوابير في القيظ والحر. فوق الأراضي ذات النتوءات، وفوق الأراضي السهلة، الخضرة والصفرة، ودفعت الكمائن الليلية، الاهم ثم الأهم ان دماء نزفت، وأرواحا أزهقت، اعزاء راحوا، مع الزمن أسر الموضع الذي أسرى منه جدك المصطفى، زعقوا، فلسطين الجريحة، فلسطين ناري، فلسطين عاري، العودة إلى حدود ١٩٤٨، العودة إلى حدود ١٩٦٧، ثم العودة إلى حدود ١٩٧٣، لكنهم جاءوا يا إمامي إلى عقر داري، أنا الذي عشت الحرب، سمعت هدير طائراتهم في الأعالي، تبدو كنقاط بيضاء محومة آتية من ناحية الشمس، ثم تتفجر الأرض، رأيت الشظايا لحظة اختراق الأجسام، رأيت بعيني موت الأحباب، ورأيت هجرة الأهل لبيوتهم. في ساحة قرب البحر بمدينة بور سعيد انحنى رجل يرتدي ملابس صفراء، عامل حكومي فيما أظن، ركع، قبل الأرض، حيث منبع الأصول ومستقر الفروع، لا أعرفه، لكن وجهه عالق بذهني، لا أدري ان كان عاد مع العائدين، أم أصبح نسيا منسيا، رأيت الأشجار تتوقف عن الطرح

والاخصاب بعد أن أفزعتها الشظايا، وتكالبت الجروح عليها، فالأشجار تفزع كما يفزع الانسان..

قال امامي:

أعرف ذلك..

قلت وقلبي ينبض وسفري يشتد:

رأيت وضع الخطط وتكدس الجهود، واستنفار القديم المنسي..

قلت بعد وقفة هينة:

كنا نحارب ولم نكن بخائفين.. فكيف.. كيف بعد ان صرنا قادرين؟ في ليلة تغير هذا، رفرف علمنا بجوار علمهم، تلقت اذاعاتنا المرئية والمسموعة البث المباشر منهم، رأيت الزي العسكري المعادي، ارتفعت أسلحتهم في تحية، وروى الوصافون، المنافقون، الخانعون، السباقون إلى الموائد في كل النواحي اللقاءات الحارة، المؤثرة، وارتفعت اللافتات، وخرجت حشود محشودة، صفقوا، وهم لا يعون، ولا يرون الضرر الآتي والضرر اللاحق، ثم أصبحت اعلامهم جزءاً من الواقع اليومي، ما كان مستحيلا تصوره وقع، أومأ ايماءة قلت..

ثم تدفقوا الى شوارعنا القديمة ومناطقنا العتيقة، تغامروا وتندروا ترفعوا وتفحصوا، لا يطيب لهم الجلوس الا قرب ضريحك ومرقد رأسك..

قال مولاي وهو يحاورني:

جمال.. ما من حادث مخلوق من عين وأثر وخبر، من نجم وشجر، من رسم وطلل وحكم وعلل. الا.. ويلحقه التغيير.

خفف عني حديثه، وخفف عني انه ناداني باسمي، أي أنه خصني داخل تخصيصه لي بمصاحبته لي، وهنا رأيت جمال عبد الناصر واقفاً، مستغرقاً لكنه شاخص إليّ ، بدا بعيداً ودانياً، ثم رأيت أبي يقف عند موضع مغيب الشمس، تمنيت أن أصل إليه، رأيته وحيداً، كان شديد البعد عني، لكن بصري ميز تعبيراً، رأيته على وجهه، تعبيراً ومعنى أعرفهما، لحظة عودته إلى البيت حاملا بين يديه افطارنا او غذاءنا أو كسوة العيد، رأيته ينظر إلى الطرف القصي من الكون، التفت فرأيت مسلم بن عقيل في زمنه الخاص، يصغي، الحسين يطلب منه أن يمضي إلى الكوفة، إلى أهلها الذين كاتبوه، طلبوا منه أن يقدم، ان يسرع ليقيم العدل، ليقوم الزمن المعوج، ان يمحو الظلم ويرسي العدل، سمعت مسلم يقول له ان هذا البلد مشؤوم، فيه قتل أخوك، وجرح أبوك، لكن الحسين يصر، جاءته الرسل، ليمض الى هناك ليجلو الأمر، فالسكوت على الجور جور، يمضي مسلم، مولاي يرنو إلى، عبد الناصر، أبي، رأيت أمي في الزمن الذي كنا فيه معاً، رأيت اشقائي، وزوجتي وابنائي وأحفادي من بعدي وأصحابي، أصحابي الذين اختلفت معهم، وأصحابي الذين رافقتهم، رأيت من أحببت، من خفق لهن قلبي، رأيت كل من جاورت، في السكن، في

الطريق، في السفر، رأيت كل من رأيت، كل من وقعت عليه عيناي يوماً، وكل من اقتفى أثرهم بصري، كنت أراهم كلهم في آن واحد معاً، فرضى قلبي، وأقبل أملي..

دقيقة..

التئام الجمع سرور وغبطة، وحلول الفرقة فكاك وهلاك، معها تبدأ الحيرة المذمومة التي لا راحة بعدها ثم يقع الضعف الذي لا يليه قوة، ليت الجمع يـدوم حتى تتحقق الأحلام البسيطة الانسانية..

رقيقة

تجلد، فان في الغيب ما شهدته، وغاب عنك..

ما كان، ما سيكون..

.. ودعت مسلم بن عقيل، ابن عم مولاي الحسين عند خروجه من مكة، تجليت له على صورة صاحب له، رافقته مقداراً من الطريق الوعر غير الممهد، وعر المسالك، ثم حاشني مولاي عن الاستمرار. عرفت فيما بعد، عرفت بعد أكثر من ألف وثلاثمائة عام ان دليليه ماتا من عطش وحر، وانه أبدى التشاؤم لكن قرة عيني ومفرج كربي طلب منه الاستمرار وكنت الرسول الذي حمل اليه الأمر بالاستمرار، ذهبت إليه في صورة

رجل من صحب الحسين، ابلغته أمر مولاي ثم تركته في سفره هذا، عدت إلى مكة، عند مشارفها حام حولي ثلاثة من شرطة يزيد، أخذني خوف، وحذر، نأيت بخطى حثيثة عنهم فرحلت إلى زمن أبي، أدركته في لحظة افتقاد مرة وعر عليّ تحمل ثقلها، وصلت إليه وهو صبي عند أهل أمه، لا يقيم في بيت واحد، وليس له فراش ثابت، ولا يظله سقف واحد، ولا يأكل من ماعون بعينه، بدا لي هادئاً، غريباً، واليتيم غريب كما عرفت بعد مدى طويل، عندما أصبحت يتيما بلا أب، رأيته لا يسعى إلى التحرش بانسان يماثل عمره أو يكبره، هادئـاً، صامتـاً دائمًا. يقلقه المأوى، واللقمة، لا يخالط الصبية الذين يماثلونه عمراً. بمنأى عنهم، داخله شعور بتفوق، وأمل بزمن غامض ينتظره، زمن سيصبح فيه ذا شأن، يفكر في الدنيا الفسيحة، تلك المدن البعيدة، وهذه الطرق المؤديـة، وامتداداتهـا، في الموضع الذي تغرب فيه الشمس، في الأزهر حيث أسرار العلم وأسرار الحرف، لو أن اليتم لم يلحقه، لكنه يغمض عينيه ويرى لحظة يمكنه فيها قراءة المكتوب وكتابة المقروء، ليس ذلك عليه ببعيد، رأيته ينام تحت سقف بيت رجل سقاء، حدثتني قطعة جلد قديمة. لصلها موضع من بطن ماعز، امـا الآن فجزء من دلو جلدي معلق إلى بئر عتيقة قل عليها اقبـال الشاربين، قالت انها لامست ظهر ابي عندما كانت جزءاً من قربة تمتلىء بالماء للظامئين، كان ينقل الماء إلى بيوت عديدة، رأيته يمشي متثاقلاً، يمسك فم القربة بيده الصغيرة، يلهث

عند صعوده أراضي تميل إلى ارتفاع، يطرق باب بيت كبير، يدخل، يفرغ الماء في الزير، لا ينظر حوله، هكذا يجب أن يكون السقاء حتى لو كان صبيا صغيراً، يجفف عرقه، درت حوله، رأيت الحدقتين، يود أن ينام، اقتربت منه، وقفت على مقربة حتى شممت رائحة ثيابه وشعر رأسه ويالعجبي، انها نفس الرائحة التي نفذت إلى أنفي في طفولتي، كنت انتظر عودته في الظهيرة، أجري، اتعلق بعنقه، يحيطني بيديه لو كانتا فارغتين وينحني لي لو انه يحمل قرطاسا به طعمية ساخنة، أو أرغفة، أو خضاراً، أو لحماً، أو.. فاكهة، لم يردني، ولم يكسفني، كنت اشم رائحته التي تختلط برائحة حلته الصفراء الكاكية، نفس الرائحة التي وهنت مع الزمن فيما بعد لقلة عناقنا وندرته وتباعدنا، هي، هي، أشمها، رائحة أبي الخاصة، تلك ولت، افلتت مني إلى الأبد، لم يعد لها مصدر، ولا أثر عندي، ربما تبقى شذاها في ثيابه التي أغلقت عليها حقيبة ولا يساندني قلبي لأفتحها حتى الآن، ادركت انه من رضا مولاي وحنوه عليّ اتاحته الفرصة لي كي استعيد ذلك العبير الأبوي حتى تمنيت لو أن ذلك لم ينته، تشاغلت عن وقفته، وعندما عدت إليه لقيته نائماً، متعباً، فتمنيت لو اني حملت قربة الماء عنه، لو ساعدته، لكنني أدركت عبث ذلك، وقلة جدواه فولجت احلامه، رآني أقف على رصيف قطار، أنا مسافر وهو مودعي، قال لي:

رافقتك السلامة.

ثم يقترب مني، يسألني..

لكن انت من؟.

قلت:

انا ابنك الذي سيكون..

تهلل وجهه فرأيته شاباً مليحاً، قال..

بك تنتفي غربتي..

أومأت، لكن تهلله ينقطع فجأة، يقول وكأنه يحدث نفسه..

لكنني سأعود كما بدأت، غريباً، مقطوعاً.

وهنا بدا متعبا، عجوزاً، نحيلا كما بدا في أيامه الأخيرة، رفع إليّ عينيه، قال..

ستسمع بي وتذكرني، وتطلبني فلا تجد..

جزعت، صرخت والقطار يتحرك:

سامحني يا أبي..

يقف فوق الرصيف، يداه مبسوطتان إلى أسفل، أسرع القطار فبدأ البعد ولاح القفر، استيقظ أبي، خرجت من حلمه العابر، رأيته في بيت رجل آخر من أقاربه ولم أعرف درجة قرابته، ولم أر لحظة انتقاله من بيت السقاء، هذا الرجل تخصص في جني ثمار النخيل، رأيت أبي يربط خصره بحبل، يتسلق الجذوع، يقطف البلح، في الليل يرقد فوق فراش من القش، في الليل يجض، في الليل يتقلب، يتذكر أمه فتدمع عيناه خفية، يكره أن يراه مخلوق باكياً، وبرغم ضيقه وجوعه وتلطمه كان يشعر ان هذا كله عارض، مؤقت، وان اياماً

أخرى في انتظاره، وانها ليست ببعيدة، في بيت الرجل لم يشعر أبي براحة، كان للرجل أولاد عديدون لم يتركوا أبي في حاله، جلس أصغرهم فوق المصطبة، يطلب منه أن يناوله السطل ليشرب فيناوله أبي، تطلب منه المرأة أن يحضر لها بعض اقراص الجلة الجافة من فوق السطح فيحضر لها أبي. تطلب منه أن يوقد الفرن فيوقده أبي. ثم رأيته يعمل في ماكينة الطحين، يعبىء الأجولة بالدقيق، الذرات الناعمة تغطي وجهه وذراعيه، رأيته يلتقط دودة القطن والشمس شديدة الوطأة،رأيته يسوق قطيع ماعز يقوده باتجاه الترعة، يصيح به أحدهم فيشمر ثيابه، يحمل عنزة صغيرة، يخوض بها الماء الرمادي، رأيته يعبر الماء يحمل صبيا يصغره بعدة أعوام، اسمه عبد اللطيف، رأيته يجدل سعف النخيل الأخضر في أشكال هندسية صغيرة، يجمع التين ذا الرائحة العسلية، يرص أجولة قمح، يربط أعواد البوص الجافة، يحمل طاولات العجين، يصغى إلى أحاديث رجال متقدمين في العمر يفترشون الرحبة الفسيحة، من معارفي عنه انه لم يكن ينسى اسما سمعه، أو لقبا، أو حوارا، أو وجهاً رآه، أو منحنى طريق، يعرف كل من في البلدة، الانساب والصلات والجسور غير المرئية بين الأرحام، يستقصى ويستفسر ليعرف، يحذر عمه، يستقصي أخباره، اذا عرف بمفارقته القرية إلى سفر قصير، أو تعوده لمرض فإن حموله تخف، ويتجول في مدى أوسع وأرحب، رأيته يجلس خلف جدار من لبن، بمفرده، يستريح

يفكر، يدبر ، رأيته وحيداً فقوي حزني وعصف بي ماضٍ بعيد قاس، أصبح الضوء غريباً، تقطعت سبلي وتزاحمت استفساراتي، وحننت ألى صوت لم يبق منه صدى أو أثر، كذا الملامح المبهمة، والنغمة الغامضة، تابعت أبي يمشي في درب مجهول لي على جانبيه بيوت غريبة، موصدة، سعيت وراءه، أسرع فأسرعت، ناديته، لم يلتفت، دنوت منه، مددت يدي، انتبهت إلى ملابسه التي لم أعهدها، التفت إليّ ، تعجبت، توقفت، رأيت أمامي مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى أهالي الكوفة، لم أر ملامح أبي، كنت في زمن غير زمنه وغير زمني. . .

لطيفة شعرية

حين قرى الهوى وقلنا سررنا
وحسبنا من الفراق أمنا
بعث البين رسله في خفاء
فأبادوا من شملنا ما جمعنا

لطيفة شعرية

كنت السواد لمقلتي
فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت
فعليك كنت أحاذر

لطيفة شعرية

واني لاستهدى الرياح نسيمكم
اذا هي أقبلت نحوكم بهبوب
وأسألها حمل السلام اليكم
فإن هي يوماً بلغت فأجيبوا..

سماع..

لما تيقنت أني لست أبصركم
أغمضت عيني فلم أر أحدا

نوى

وكان سراج الوصل أزهر بيننا
فهبت به ريح من البين فأنطفا

تجلي الوصل..

الوصل نقيض القطع، الوصل حياة والقطع موت، الوصل أصل، والقطع عارض، الوجود مبني على وصل، الأنفاس المتصلة تعني استمرار الحياة فإذا انقطعت الوصلة بين النفسين مات الانسان، أما الأجنة فلا تتخلق، ولا تتكون، ولا تنبض إلا بعد وصل..

التنقل والترحال..

رأيت ملامح أبي في جسم عبد الناصر، يرتدي طربوشاً أحمر وجلباباً أخضر من الصوف، هو أبي وهو عبد الناصر لكن حضورهما لا ينتمي إلى العالم المألوف، كذا الحركة والخطو، رأيته يسعى في طريق ترابه ناعم، يتوقف أمام مقهى ريفي يتجمع فيه الذين هم على سفر، رأيت نفسي أجلس في ركنه البعيد، كنت أرى ما بداخله وما بخارجه في آن معاً، المقهى في الكوفة، يا لعجبي، مقهى في زمن لم يوجد فيه مشروب القهوة بعد، وفي الكوفة.. كيف؟ يتوقف أبي، يسأل بصوت عبد الناصر..

جمال ابني هنا؟.

يسكت الرواد والزبائن، لماذا لا أجيبه؟ لماذا الصمت؟ هممت فثقل لساني، جمد صوتي وتعثرت الكلمات في حلقي، لماذا لا أقوم؟ لماذا لا أصحبه؟ جاوبني صوت أجهل صاحبه..

أوانك لم يحن بعد..

انصرف أبي مبتعداً، وحيداً، مستوحشاً، الخطى منه، وميل القامة عند المشي لعبد الناصر، قام رجل قصير يرتدي زي أهل الكوفة زمن الحسين همس..

من يرتدي الأخضر والأحمر.. أهو أبوك؟..

قلت. نعم..

قال .. هذا لباس النعيم..

ثم وهن صوته عندما قال..
لا يزعجك ما ستراه..

كدت أسأله عم يعني؟ لكنني نظرت المقهى خالياً من رواده، استطالت جدرانه وضاق فراغه وشحب هواؤه، رأيت مقعدين بلا مساند، يفصلهما مقدار مترين، يتوسط المسافة مكتب بلا أدراج، متسخ، عليه بقع حبر جفت وخطوط وبصمات غامضة، تلك زنزانة، داخل سجن، والسجن من سجون ابن زياد والي الكوفة، يدخل ضابط مرتدياً الثياب المدنية، ثياباً من عصري، يجفف عرقه بمنديل ورقي معطر، ملامحه ليست غريبة عني.. لكن متى.. اين؟، لم أحط علما حتى ذلك الوقت، ينظر إلى طرف حذائه، يحركه مرات، تنبعث جلبة، خطى، صفع، بصق، ركل، أراهم يدفعون عبد الناصر، معصوب العينين، موثق اليدين، يرتدي الثياب التي رأيته فيها عند ظُهوره أول مرة، القميص الفضفاض، والبنطلون الواسع، أوقفوه أمام الجدار، وبدا لي حريصا على رفع رأسه، أراه هو والضابط أمامي. اثنين لا ثالث لهما، لا أرى من يدفعون به. لكنني اسمع احتكاك احذيتهم، اصوات وجودهم وحركتهم، عرفت انهم من رجال الشرطة السرية قساة القلوب، عرفت انهم أول ثلاثة وصلوا ألى الكوفة ليخوفوا الناس من الوقوف إلى جوار الحسين ومناصرته، في هذه اللحظة برق خاطري فأدركت شخص الضابط، هو من ضربني وصفعني ولكمني وهددني وسب أمي وأبي، هو الذي أبدى لي

الرقة واللين ثم انقض عليّ يروم فقأ عيني، عندما اعتقلت في اكتوبر عام ستة وستين وتسعمائة وألف، كان عبد الناصر وقتئذ ملء العيون، مهاباً قوياً، جليلاً، قاسياً على من ابغضـوه، وعلى بعض من أحبوه، وكان هذا الضابط شاباً مختالاً مزهواً برتبة رائد واسمه منير، ألم بي غثيان، وضيق لزج، ركزت نظراتي على يديه اللتين صفعتا وجهي، وقبضتيه اللتين سددتا اللكمات إلى صدري، واستعدت ما ملأ عليّ خاطري بعد خروجي من المعتقل. أن أرى من صفعني، من سبني، تزايد ضيقي وتمنيت مفارقة هذه الزنزانة. في هذه اللحظات ترددت على مقربة مني انفاس خفـاف، لطاف، التفت، إبتـل قلبي بالسكينة، شفيعي يقف على مقربة، انست روحي، وعمرت جسور الرضا والوئام فرحلت لتوي إلى مدينة الكوفة ذاتها، تجلى لي مسلم بن عقيل في درجة من النور الأحمراني مستمدة من مكونات الديوان الشعشعانية، نـظرت إلى قرة عيني، إلى الحسين، وجهه مضوع بالحنين، مأوى ومرقد للطف الجميل، انجذبت إلى محياه الرقراق فشف قلبي وتمنيت لو دام على وقت النظر إليه، عرفت ان الشوق الانساني القديم يملأ عليه كيانه وهو يواجه ابن عمه ومبعوثه، ها هو مسلم، تجلى لي في لحظة تضاءل تشاؤمه الذي رافقه منذ موت دليله، بايعه أربعون ألفاً من أهل الكوفة، يكتب إلى الحسين، «أقبل فان الخلق معك»، رجال الشرطة يرفعون الأمر إلى حاكم الكوفة، ينبهونـه إلى خطورة ما يجري، يتجه الحاكم إلى المسجد، يصعد إلى المنبر،

يحمد الله ويثني عليه، يطلب من القوم الا يسارعوا الى الفتنة والتفرقة، يصيح فيه أحد رجال يزيد..
هذا رأي المستضعفين..

يقول..

لأن أكون من المستضعفين وأنا في طاعة الله أحب إليّ من أن أكون قوياً في معصية الله. رأيت التقارير تدبج بالحبر السري في مقار الشرطة ومأوى العيون الخفية المبثوثة، يراجعها ويضيف إليها هذا الضابط الذي لا يغيب عني بملامحه، تخرج التقارير إلى دمشق، تنبه وتحذر من أمير الكوفة النعمان، تحذر من تقواه، من نظافة يده، والأدهى.. تعاطفه مع الحسين، الضابط لم ير يزيداً أبداً، لكنه يدرك المطلوب تماماً، ينصح بتغيير أمير الكوفة بآخر يقدر على الامساك بزمام الوقت، انه يضمر غرضاً خفياً، ان يسند إليه منصب أعلى، ربما في دمشق نفسها، منصب يمكنه من جمع قدر لا بأس به من الثروة، والحوطة على مساحة أرض، هناك الأقل منه، استولوا على الضياع واشتروا الجواري الحسان، أنه يتخيل نفسه سارحا في البرية، أو سائحا في المدن، يلتقي صدفة بالحسين، يمسك به، يطعنه، يحتز رأسه، يذهب إلى يزيد، يقول له، قتلت من أدعى أنه أحق منك، قتلت من جرؤ فامتنع عن مبايعتك، ثم يتأهب لتلقي العطايا والمنح، تجلى لي يزيد في دمشق،، وعندما بدت لي ملامحه دهشت، تلك ملامح أعرفها، طالعتني وضقت بها، رأيتها ونفرت منها، أبصرتها عن قرب واحتقرت صاحبها،

كيف جاء إلى هنا؟ لم أشأ الاسترسال في الدهشة فكتمت وحجبت، تجلى لي وأمر الحسين يقلقه، ما يتحدث به الحسين ولى زمنه، حديث زهاد لم يعد له محل، قيم مندثرة، انه يسعى إلى أردأ الخلق فيوليهم، وإلى أحطهم فيعينهم، لا يثق أبداً بمن ثبت صلاحه، لا يقرب من عرف بورعه وتقواه، انه مقدم على لحظات تغير وتحول، وتلك لا تحتاج إلى من يمسك العصا من الوسط، المهم الآن، من يوليه امارة الكوفة؟ من؟ انه يستعرض التقارير، يصغي إلى هذا وذاك، يتأمل الأوصاف والسمات، لا يستغرق وقتاً طويلاً، يهتدي إليه، انه فاجر، قاس، لم يعرف صلة الرحم، ولم يرق يوما لمسكين، غشوم، غليظ العبارة على من لا يستحق، انه عبيد الله بن زياد أمير البصرة، الوقت لا يحتمل، يصدر الأمر بتولية ابن زياد، ان يتوجه فوراً إلى الكوفة، تجلى لي عبيد الله بن زياد، قبيل خروجه من البصرة تتاح له الفرصة كي يبدي الولاء ويعلن، عندما ابلغوه انهم قبضوا على رسول الحسين إلى البصرة أمر باحضاره إلى الميدان الكبير، استل سيفه وضرب عنقه، وهكذا رأيت مقتل أول رسول في الإسلام، اغمد ابن زياد سيفه بدون أن يمسح ما علق به من دم، خطب في الناس، قال ان يزيد ولاه الكوفة، وانه عزم على المسير إليها، وانه استخلف أخاه عثمان بن زياد، حذرهم، هددهم، خوفهم، أقسم أن يأخذ الأدنى بالأقصى، والبريء، بالمذنب، رأيته يستدعي هذا الضابط، يطلب منه ان يرسل عيونه الخفية إلى الكوفة،

ليندسوا، ليتحدثوا عن بطشه وقسوة قلبه، وسخائه على من يتبعه، ثم سأل الضابط ابن زمني عن الحسين، عن زيه، وعن عاداته، في صحوه، في نومه، ولوازم عباداته، وصفة مجلسه، وطعامه، ومواعيد تناوله، وساعات نومه، وعده الضابط ان يقدم اليه تقارير تفي بكل ما يطلب، في نهاية النهار خرج من البصرة وعليه رداء أبيض وعمامة سوداء، تلثم في منتصف الطريق، الأخبار عنده تقول أن الكوفة ملتفة حول مسلم بن عقيل، وان أكثر من أربعين الفاً بـايعوا الحسـين، اذن.. التحوط ضرورة، والحذر واجب سديد، رأيت ابن زياد يعبر أسوار الكوفة متخفيا في لباس الحسين، بعض الناس يرونه فيظنون انه الإمام قد جاء، يقولون..

مرحبا يا ابن بنت رسول الله.. قدمت خير مقدم..

وهنا سافرت وأنا واقف، عدت إلى تلك الزنزانة، رأيت هذا الضابط بعينه، بملامحه، بقامتـه الممتلئة، لكنـه يرتـدي الثياب التي رأيته فيها أول مرة، يدور حول المكتب، يقف أمام عبد الناصر معصوب العينين، يسأل بصوت مغاير لصوته..

لماذا قدمت الينا؟..

تمر دقيقة..

ترتفع يد الضابط مفرودة الأصابع، تهوي على الوجه الذي طالما أطل وأشرق وحنا، يتوقف الضابط ليرى تأثير الصفعة الأولى، تماماً كما جرى معي. العجيب انني تألمت وتوجعت

كأن المضروب أنا، كأن المعذب أنا، تمضي دقيقتان كاملتان، ترتفع اليد مرة أخرى، الصفعة أثر الصفعة، لم أسمع آهة، ولم تصدر أنة، أحمر جلد الوجنتين، واحمرت راحة يد الضابط، خفت ان تصدر عني صرخة فزع، كنت موصولا به، في سعي إليه، خفق قلبي خفقة ذات مدلول ومعنى، أمامي عبد الناصر، والحضور لأبي، الرائحة له، رائحة ثيابه عند عودته اليومية، الرائحة التي لا يمكن لي ان اخطئها أبداً والرائحة التي لن يتكرر مذاقها أبداً، عبير زمني الآمن، وعطري المتبدد، تعاقبت أيام وليالٍ مكتملة الأهلة، صحوة سماواتها، رائقة ظلالها، عذب نداها، ساعاتها مدتني بالمنى وشوقتني إلى ما أهوى وما أحب، حتى إذا اتصلت بأسبابي نفست عليّ به الدنيا واستكثرته عليّ ، فسعت بالتشتيت إلى الألفة، وبالفرقة إلى الالتئام، وبالُمر إلى المسرة، وبالنقص إلى الجمع، فكسفت بهجتي، وأرهقت نضرتي بالفراق، ويبست جذع وصلي، واجدبت اخضراري، تشتتنا في الآفاق بعد ان ضمنا وقت واحد، وجمعتنا أرض واحدة ، وأظلتنا سماء واحدة، ولمتنا ليالٍ فقيرة مادتها، غنى محتواها، وانفعلنا بكبرياء ضد عدو استهدف ذلنا، تمزقنا.. وقد كنا كالأعضاء، المؤتلفة، اللدنة، المنعطفة وها هو أبي يهان، ويصفع، فتتهدد أيامي، ويتبدد معناي، وتذوي الرائحة الغالية، يترمد قلبي، لا أقص رؤياي على أحد، الوذ بالنظر إلى ونسي وعاصمي، يبدو شجيا، بوجهه يعشش حزن قديم كبقايا الدمع في المآقي،لم يخطىء بصري، ولم

يكل، ولم يخني فهمي وادراكي.

يزعق الضابط فجأة بعد تراجعه ثلاث خطوات..

كيف تضربونه؟.

روعت زلزلت زلزالا، اللغة غريبة، لم أتعلم مخارجها في طفولتي ولم أتهج حروفها، يقشعر بدني، لغتي العربية غير متداولة، محظور النطق بها أو الحوار، التحية، والنداء على الحبيب أو القريب، وترجمة المشاعر، والبوح بعبارات الحب، واللطف، والأنس، والنكتة اللاذعة، محظور التخاطب بها عبر الدواوين، أو تلقينها للأطفال الذين تتفتح عيونهم على دنيا غريبة، في أي زمن أسود رسوت، وفي أي وقت أغبر استقر سفري؟ تدكدك قلبي الموهن. ينزع الضابط العصابة عن عيني عبد الناصر، يفك قيد يديه، يشير إلى المقعد القصير بلا مسند، يجلس إلى المكتب، يبرز علبة سجائر خضراء. نفس العلبة التي مدها إليّ واعتذرت لأنني غير مدخن، يهز عبد الناصر رأسه، أكاد أثب، انها نفس هزة رأس أبي، لا يمكن أن أتوه عنها، هزة دماغه، عندما يكظم ضيقا، أو يخفي غيظا، يفتعل الضابط الود والرغبة في القرب، يقول..

« تعرف انني أدركت ايامك، انني انتمي إلى جيل يطلق عليه اسمك، رأيتك مراراً ولكن ليس عن قرب، فلم يكن لمثلي ان يحلم بلقائك، تأثرت بكلماتك وطربت للأغاني التي ذكرتك، انت باق، وان تكن هنا فهذا سوء فهم. انت لم

يقبض عليك مختلسا وان حاولوا اتهامك بعد موتك، لم يقبض عليك مرتشيا وان صرحوا بما يشوه سيرتك. . نحن لم نصدقهم، صحيح انك الآن أمامي، لكن اعذرني ليس الأمر بيدي، انني أؤدي واجبات وظيفتي، لا تنس انني حلت بينهم وبينك. . الذين ضربوك لم يسمعوا عنك، اسمك لم يذكر منذ زمن بعيد، صورك لم تنشر، تماثيلك هدمت، كنت مصدرا للتهديد وانت في قبرك، لا تنس انني حشتهم عنك، لا تنس انك في زمن غير زمانك. . عبد الناصر، لماذا قدمت؟ لماذا؟.

اسمع همهمة، أسافر إلى ابن زياد مرة أخرى.

مرحبا. . مرحبا. . قدمت خير مقدم. .

لا يكلم الناس الذين ظنوه الإمام الحسين، لا يلتفت يمنة أو يسرة، يصل إلى القصر، يبرز المراسيم، يستدعي الضابط، يأمره بإخراج جميع الغرباء من المدينة، يأمره بحشد جمع من حثالة الاعراب، وبذل الوعود لهم، ستصرف لهم مكاييل الشعير إذا مشوا في طرقات الكوفة هاتفين ليزيد، وسبوا الحسين، يأمره بأن يرتدي رجال الشرطة ملابس عامة الناس، وأن يتولوا هم الصياح، والهتاف حتى لا تفلت الأمور، يأمر بتفتيش المدينة بحثا عن مسلم بن عقيل رسول الحسين وامساكه حيا أو ميتا، تلك مهمة عاجلة، يأمر بضرب أعناق عدد من عابري السبيل على مرأى أكبر عدد من الناس، والمناداة عليهم، انهم من رجال الحسين، يبدي الضابط حماساً

زائداً، وعد بما يثلج صدر ابن زياد، يقول ابن زياد انه يريد رسما وافيا دقيقا لكافة مخارج الكوفة، ومداخلها، ودروبها، وتعداداً وافياً دقيقاً لبيوتها، وحصراً لأصحابها، يريد مسحاً شاملًا لجميع الطرق المطروقة والمهجورة حتى مسافة ثلاث ليالي سفر، كذا المواضع التي يسهل عندها الاقتراب من الفرات لأخذ المياه، والمواضع التي يخف فيها النخيل والنبات، والتي يغزر فيها، والقرى، والمحلات، يطلب بث العيون في كل منها، وإذا كان بعضها مهجورا فليمض عدد من الشرطة المتخفين للاقامة فيها، يصغي الضابط، تلك اطراقته التي أعرفها، ملامحه التي سبقت حملقته إليّ وسبه أمي وأبي فجأة، ملامحه التي تواجه عبد الناصر في موضع آخر من سفري هذا، يخرج من القصر، اسمعه يمني النفس بسماع مديح، لعل اخباره تبلغ يزيداً في الشام، لعل اسمه يذكر هناك فيصدر مرسوماً بترقيته، لعل ما تشتهيه النفس يتحقق، لعل وعسى، ينبث ضباطه وعسسه، كل يبدي الهمة، كل طامح في رضاء قائد الشرطة عليه، كل يخشى عيونا مدسوسة لا يدري بها، بعضهم طافوا بالطرقات زاعقين، يسبون الحسين أضفوا حماساً على أصواتهم، شدوا من ملاحهم شأن من يصطنع أمراً فيظهر الانفعال الزائد ظنا منه أن هذا يقنع الآخرين. رأيت الجند يمسكون ثلاثة غرباء، ثلاثة من عابري السبيل، لم يثبت عليهم ذنب، لم يعرف لواحد منهم اسم. ضربت أعناقهم أمام القصر بغية تخويف وترهيب، أمسكت بلحظة تغير نادرة، لحظة رجحان

كفة على كفة، لحظة تبدل المواقف، سمعت قولا يتردد: ما لنا وما للحسين؟، توقفت عند طريق النطق، النبض الخفي للحروف، الصيغة يتردد هذا كله من لغة إلى لغة، من لهجة إلى أخرى، من زمن إلى زمن، عندما تتعامى البصائر، كثيرون لم ينتظروا، جاهروا بحماسهم ليزيد، لابن زياد، انقلبوا ولفظوا نقيض ما قالوا، قطبوا الحواجب، زموا الشفاه، كأنهم كانوا في غي ثم أدركوا، درت بعيني، بنظري حولي، اين مسلم بن عقيل، أين؟، رأيت الضابط عابساً يواجه عبد الناصر، يلقي السؤال تلو السؤال.

لماذا ظهرت؟ لماذا جئت؟ إلى من تحدثت في ميدان الدقي، هل دفعتك دولة أجنبية؟ هل تقف وراءك جهة ما؟.

ينطق اسئلته بايقاع سريع، كأنه يتعمد المباغتة، والارباك، أدركت ان الاساليب لم تتبدل وان اختلفت الحقب، هكذا سألني الضابط، انظر ألى صمت عبد الناصر، إلى عينيه الواسعتين، لم تفقدا بعد قدرتهما على النفاد، يغض الضابط بصره خفية لثوان معدودات، يفلت من نطاقهما لحظات، يبدو السكوت مقلقا، يسأل..

لماذا تجمع الناس حولك.. لماذا أحاطوا بك، من أخبرهم بظهورك؟.

يستمر الصمت والامتناع، تتوتر لهجة التساؤل، يشير بيده، يدخل إلى الزنزانة ثلاثة، لا يراهم عبد الناصر انما يشعر بهم

غير انه لم يهتز، لم يبدر منه ما بدر مني عندما دخل اثنان من المخبرين السريين المتخصصين في الجلد واستنطاق المتهمين، وقوفهم إلى الخلف يحدث قلقا ويبث اضطرابا في النفس، تصبح الضربة متوقعة في أي لحظة، والضربة غير المرئية تؤلم أشد. التفت فنهاني الضابط، بسرعة رأيت ملامح شاب أسمر اللون، نحيف، يرتدي قميصاً وبنطلوناً. قميصاً أبيض مخططاً، وبنطلوناً رمادياً. قميصاً قصير الأكمام وبنطلوناً واسعاً، كان يمسك بخيزرانة، لم أعرف اسمه، ولم أسمع مخلوقاً يناديه، نهرني الضابط وسبني، عرفت انهم يحرصون حرصاً شديداً على الا يتعرف الضحية إلى معذبه، إلى جلاده، لهذا يتخذون أسماء غير اسمائهم، ويمشون بين الناس حذرين، في تلك اللحظة اضطربت، كنت موزعا بين مواجهة الضابط والاجابة على اسئلته وبين انتظار الضربة. وآلمني انتظار الضرب أشد من وقعه على جسمي عندما بدأ. عبد الناصر لم يلتفت، لم ترف جفونه، هذا عجيب، ولم يتفق لانسان ممن جلسوا أمام الضابط طوال مدة خدمته ان احتفظ بثباته هكذا.

لماذا هاجمت اصحابنا، لماذا حرضت على تنكيس اعلامهم؟.

عبد الناصر لا يخفي تعجبه، لكنه لا يبديه نطقا، على مهل يستدير بوجهه، تستقر نظراته باتجاه مولاي.. هل يراه؟ هل يراني؟ تتعلق عيناه بالجهة التي يتضوع منها عبير الحسين. تطوف بها مناجاة استعصى عليّ فهمها، أو النفاذ إلى

مكنونها، وتلك حيرة ألمت بي مراراً في مواجهة عيني أبي الهادئتين، الاسيانتين، عندما يطول صمته وتعمق وحدته وينظر إليّ ناسجاً التأويل والاستفسارات والشروح العصية، وكان آخر عهدي بذلك في شرفة البيت قبل سفري عندما حدق إليّ وأغدق تحنانه عليّ وكف لسانه عن التعبير حتى انني استسلمت لنظراته، ولكنني لم أفهم، لم أعرف ان المتبقي من عمره وقتئذ أحد عشر يوماً لن تزيد ولن تنقص. ليتني رحت في الطوفة بطوفة، ليتني قابلت النظرة بالنظرةوالحنين بالحنين، والشوق بالشوق، ليتني!، هل كان يتزود من ملامحي قبل سفره الطويل؟ ليتني أدري!، لا يمكنني أن أجزم، غير ان لنظراته هذه مقاماً، وموقفاً، لا أقدر على التطرق اليهما الآن فلم أتأهل بعد، وذلك لعظم ما بهما، واستغلاقه عليّ ، ها هو مسلم بن عقيل يقول لهانیء بـن عروة..

اتيتك لتضيفني وتجيرني.

يقول هانیء.

لقد كلفتني شططا، لولا دخولك داري وثقتك بي لاحببت ان تنصرف لشأنك غير انه لزمني من ذلك زمام.. ادخل.. ادخل..

رأيت ابن زياد يقصد بيت هانیء، يتجه بقصد زيارته أثناء توعكه، هذا في الظاهر، ويستميله في الواقع، هانیء ذو عزوة، وقوة، رأيت الخادم يخبر هانیء ان ابن زياد بالباب، هانیء يستدعي مسلمًا، يدفع اليه بسيف، يطلب منه ان يقف خلف

الستـار، سيرتب جلوس ابن زيـاد بحيث يـولي ظهـره إلى الستائر، وعندما يخلع عمامته فليعتبر مسلم هذه الحركة بمثابة اشارة لكي ينقض، ليجتث شره، يقف مسلم مختفياً، يدخل ابن زياد يصحبه حاجبه، مسلم في مخبئه، وجهه منقبض، حدقت بالبصر المتين فلمحت وجنتي ابي، وضمة فمه، وتجعيدة جبهته، وموقع عينيه فوق العينين، وقلق عينيه عندما تصبح الحيرة شارته اذ يفكر أو يشرع أو يقدم على شيء تأباه نفسه وتكرهه روحه، رأيت «هانىء» يرفع عمامته، لكن مسلم لا يتحرك، لا يقدم، بدا لي انه لن يفعل، دهشت، خفت لا.. بل ذعرت وغضبت، هانىء يرفـع عمامتـه للمرة الثـانية.. يضيق نفسي، ماذ جرى لابن عقيل؟ وهنا تجلى له صوتي، سمعني ولم يرني، سمعني ولم يسمعني غيره.. قلت له حاشا.. أقدم..

يلتفت، وجهه عذب، تأسره حيرة.. يقول..

هل اقتل مسلما غيلة؟.

يتملك صوتي حنق، أقول..

ابن زياد قاتل، ستقتل مجرما، ابن زياد سيقتلك، سيمثل بك، سيلقي برأسك من فوق سور القصر، سيمنع الماء عن مولاي الحسين، سيأمر بقتله وحز رأسه، سيشهره في شوارع الكوفة، سيسبي نساء الحسين، سيوشك على قتل ابنه، اقتله، ربما غير قتله الأسوأ إلى الأحسن، إلى الأفضل.. أقدم..

يقول:

لا ايمان لمن قتل مسلما، هكذا سمعت رسول الله يقول..
لن أقتله غدراً أبداً..

لمحت ابن زياد يتأهب للإنصراف، اندلعت خواطري وجن فكري، تبعثرت في شواردي، مددت يدي أبغي اختطاف السيف لكن يدي غاصت في المقبض، كأني أمسك بالهواء، أو أقبض على ضباب،خوى داخلي، سمع ابن عقيل صوتي متعبا، واهنا..

لماذا؟ لماذا لن تمضي ساعات الا ويقتل هانىء الذي يستضيفك ويخفيك، سيرسل ابن زياد ضابطا من عتاة ضباطه، سيتخفى ويبحث عنك ويتبع الحيلة حتى يصل اليك، ضابط غير معروف لك، ولا لأهل الكوفة، لكنني أعرفه، وأحفظ ملامحه، لماذا؟ لماذا؟ كان من الممكن أن يتبدل الزمان، يسأل ابن عقيل متعجبا..

ولكن صوت من أنت؟.
نوديت من ركن خفي..
جمال.. هذا ليس لك، وانت ليس له..

خرجت أقتفي اثر ابن زياد، ما يشغله، اين يختفي مسلم؟ لو قبض عليه ومثل به علنا سينهي هذا تردد الخائفين من الجهر بعداوة الحسين، أما المتذبذبون فسيحسمون دخائلهم، وهؤلاء كثرة يجب أن يوجه اليهم جل جهده الآن، لكن قبل هذا كله أين مسلم بن عقيل؟ رأيت هذا الضابط يرتدي زي ذلك

الزمان، دققت النظر اليه يتقن دوره حتى كدت أصدقه وأنا الذي رأيت منه ما رأيت، عندما أخبره أحدهم انه سيأخذه إلى ابن عقيل زعقت محذرا لكن صوتي لم ينفذ عبر الحجب، لم يقدر على قطع المسافة من زمني الذي أحاطني في هذه اللحظة كما تحيط الميشمة بالجنين. رأيت ابن زياد يستدعي «هانىء»، يواجهه، اقتربت تحفزت، يرد هانىء:

والله لا أجيئك به أبداً، أنا أجيئك بضيفي لتقتله.

يرفع ابن زياد قضيبه، يضربه على وجهه، لا يتردد لحظة أمام مكانة هانىء وشيخوخته، يدرك ابن زياد أن أخطر ما يواجهه الآن جملة تلفظ وقد تتردد. تلك اخطر من جند كثيف، خرجت من القصر فزعا أعدو في شوارع الكوفة، يتردد صوتي صارخاً فيسمعه البعض ولا يسمعه آخرون، ولم أعرف سر ذلك، واستغلق الأمر عليّ ، وان اضمرت الاستفسار، صرخت منبئا بمقتل هانىء، فكنت أنا من أفضى إلى أهالي الكوفة بالنبأ، عدوت إلى مسلم لأحثه، في الطريق ابن عقيل يشهر سيفه فحمدت الله واثنيت عليه، حوله جمع وحشد، انه في عدة وعدد، كم رأيت، ربما ثلاثة أو أربعة آلاف، يمضون إلى القصر، ينسحب رجال الشرطة، يخلون الطرقات والميادين والنواصي، يتردد الضابط، ماذا لو دارت الدائرة ماذا لو انقلبت الآية؟ اذن ليتوارى مؤقتاً. او ليتشاغل بأمر ما حتى تتضح رياح الغلبة قادمة من أي جانب؟ يحاصر ابن زياد. معه في القصر ثلاثون من العسس، وعشرون من الوجهاء، يأمر

ابن زياد العسس بالتسلل إلى الخارج، يندسـون. يخوفـون الناس مغبة القتال، رأيت الضوء الأحمراني يضمد بيوت الكوفة وشواشي نخيلها، العسس، العسس، كل منهم موعود بمكافأة سخيـة، دراهم، وقمح، وشعـير، ومنصب، ولفتـة سنيـة، يندسون، ينتشرون، يهمسون، يرغبون، يحذرون، يخذلـون الناس، يمنون أهل الطاعـة، يذكـون الطمـع، كنت أرقب انتشارهم وهمسهم في الآذان حينا، وجهرهم بالقول، رأيت الضابط يهمس ويوسوس، كنت فردا، والعسس جمعا، صوتي غير مأذون له بالوصول إلا في أوقات لا أعلمها، كنت عاجزاً وهم قادرون، المي عظيم لعجز القدرة عن مواجهة القدرة. عندما يواجه الانسان عصراً بأكمله، وزمنا رديئاً مقبلاً، ومما يزيد في وعورة المقام، وصعوبة الحال، رؤية الخلق يتحمسون لما هو ضدهم، ويتصايحون من أجل ما يضرهم، وهذا مقام وعر، والكلام فيه خطر، وقد عشته في زمني الدنيوي عندما رأيت بعضا من قومي ونـاسي يهتفون ويهللون للصلح مـع الأعداء، يهتفون لصلح ما هو بصلح، ويرفعون الأيدي تحية لقاتليهم، الى هذا المحت، وذلك ما عنيت عندما قلت عجبت لقومي ينتصرون عندما يهزمون، ويهزمون عندما ينتصـرون، لكن هناك معاني أخرى ومقامات وعرة، سأخوضها عندما يؤذن لي بذلك. ذلك تقدير العزيز العليم، أما الآن فأغلق ذلك الباب خشية وتقية، رأيت الخذلان، ودبيب الوهن إلى أعضاد الرجال، سمعت الرجل يقول للرجل: انصرف فان الخـطر

شديد. سمعت شابا عفيا يهمس: يا روح ما بعدك روح. سمعت امرأة تقول لرجلها: غدا يأتيك أهل الشام فماذا ستفعل في الحرب؟ دم لعيالك. رأيت رجلا ينسحب، رأيت رجلين. رأيت جمعا ينفصل. تغلق البيوت على أصحابها، يتحول الخذلان إلى انفضاض، إلى نكوص، إلى هروب، يأفل النهار، ابن عقيل يحاصر القصر ومعه ألف. ينتبه ألى قلة العدة والعدد، يتراجع إلى وسط المدينة، ابن عقيل الآن في خمسمائة، يخترق شارعاً جانبياً، يخرج منه ومعه ثلاثمائة. يدخل إلى المسجد في مائة. يحين وقت الصلاة، يصطف وراءه ثلاثون. يسلم يميناً، يسلم يساراً، انه ؛فرده تماماً الآن، ما من رجل حوله، ما من صاحب، ما من نصير، يخرج إلى الليل المكتمل، إلى اقفرار الطرق، رأيت الضابط في ناحية من الكوفة ومعه عسس، يظهر الهمة، ابن عقيل غريب، ما من يدله على بيت يأويه، أو شخص يجيره، يمضي، يبتعد عن المسجد، يعمق السكون عندما يختفي الخلق ويعز النصير. وينأى الرفيق ويقبع الرجال خلف جدران البيت، ابن عقيل يمضي من درب إلى درب. انه مكلوم وخائف، حزين لخذلانه، وخائف على إمامه الحسين، كيف يبلغه بما جرى؟ كيف يثنيه عن المجيء؟ كيف يتصل به الآن؟ من يحمل الرسالة واين المطايا أين؟ ان ضنا ثقيلا يحل به. كيف يتم التحول؟ كيف، يتراجع الجمع، يتستر الخذلان بالخذلان؟ يلتفت، لكنه واهم، ما من صوت خلفه، ما من دبيب، لم

يكن باستطاعته رؤيتي أو سماع خطوي لكنه شعر بي. في نفسه جزع، لكن ما يحيره السهولة التي تبدد بها الجمع، تبدو الدنيا غامضة والنفوس مستعصية، التفت إلى الحسين، وددت لو أرجوه تمكيني من التخفيف على ابن عقيل، الجمني مقدار ما يفيض على وجهه من حنو وتأثر، عدت إلى ابن عقيل، سعيت، وددت لو أحذره من اللجوء إلى بيت المرأة، تمنيت لو أخبره عن ابنها الذي شيرشد جند ابن زياد اليه. كيف أعرف ولا انطق؟ لكن الديوان لم يأذن لي، لم يرفع الحجب بيني وبينه، غير ان طبيعتي الانسانية تغلبت عليّ فاندفعت أجري زاعقاً..

يا ابن عقيل احذر..

لم يلتفت.

يا ابن عقيل انتبه..

توقفت، بدأ يستدير إليّ ليتخذ وضعاً يواجهني به، وما لبث أمري أن اضطرب، وقذف بي في منزل الدهشة والروع، أمامي أبي، رأيته متعباً، غريباً، عليه ثقل الأيام، معفر الثياب، وكان وجهه على مثال وجهه في العام الذي لم أدر في حينه انه الأخير، العام الذي تضاءل فيه جسده، وشحب حجمه، وضاقت حدقتا عينيه، ووهنت ضحكته، وتباطأت حركته، وقوى سعاله، قلت بعد ان خفت دهشتي..

ماذا تفعل في الكوفة يا أبي؟.

لم يجبني، رددت.

أبي، أنت في أرض لم تطأها أبداً، انت غريب مثلي.

يدوم صمته عني، تدهمني وحشة، يبرد داخلي، أصير في غم، رأيت نفسي بعين نفسي، رأيتني في بلد غريب انزله والعصر مقبض، بلد لا اعرف فيه أحداً، لا ينتظرني أحد، ولا أقصد انساناً، لا أدري اين مبيتي؟ لا أعرف مأواي؟ الكل يسرع حولي، والنوافذ مغلقة، وضوء المصابيح يلوح من خلف زجاج بعضها فيشي بجلسة ليلية، ودفء ورائحة طعام، فيتضاعف حرماني، وتعمق وحدتي، رأيت أبي والهموم متكأكئة عليه، هذا وجهه عندما شكالي وحدته، وان لا أحد يكلمه، وكل مشغول بنفسه، قلت:

ضيعت زمني معك، دعني اصحبك الآن..

يمد يده باسطاً اصابعه، يمنعني.. اذن.. هو يسمعني، متى أسمع ومتى لا أسمع؟ متى تنزل الحجب ومتى ترتفع؟ لا أدري، عندما يحين الأوان سأسأل الديوان، أبي يشير إليّ، اشارته على رأس القرب، ورأس البعد حاسمة، لم أحاول، رأيت مصدر الشفق بالقرب منه، منبعه الذي يصدر منه ويفيض مؤذناً بلحظات الغروب، في الجهة المقابلة رأيت صفيي، عرفت انه في شغل عني، ليلي دامس، لكنني كنت قادراً على النفاذ فيه بنظري وكأنه نهار ساطع مشمس، أرى السواقي والأبراج والجسور المؤدية، والأراضي التي تنز بالماء، وجرذان الجحور والنخيل، اهتزاز شوارب صراصير الليل في سعيها، كان بمقدوري احصاء خيوط بيوت العنكبوت، كنت

أرى ما أمامي وما ورائي، لا تحول دوني حواجز، كنت أرى شيئين مختلفين من زمنين متباعـدين، اصغيت فسمعت انين التراب، وضيق جذور النبات بتربة مستعصية، ثم رأيت ظلا يعدو، رأيت بيوت الكوفة مطلة على دروب جهينة قريتي، أما النخيل الكثيف، فنخيل البصرة،والهواء الجاف من الحجاز، والنجوم البادية من سماء بحر عدن، والرائحة من مـداخل طولكرم، تدفق مياه القنوات وسرعتها من فاس المغربية أما المياه ذاتها فمن عيون اليمن، يطالعني أبي، انه صبي مفزوع، انفاسه عجلى، وقلبه مهرول، رأيت عمه يعدو وراءه. رأيتهما معاً، مع أن كلاً منهما لا يرى الآخر، طريق ملتو يفصلهما، عمه يجري بعد أن لمحه، يبغي خنقه، الخلاص منه والانفراد بالبيت والأرض والنخلات، أبي يجري، ما من مغيث، ما من منقذ، صرخت انبئه بمكان عمي، لم أدر.. هل وصله صوتي أم لا؟. لكنني رأيته يقفز سور جرن قديم، يحفر لنفسه في كوم تبن، اسمع صوتا يخاطبني فيه ثبوتية، وديمومة، انه ضوء النجم القصي. قال ان ما رأيته وما تراه سيـحفر علامة داخل أبيك. سيعاوده ذلك في صحوه ونومه، وسيعاوده في آخر ساعة قضاها نائمًا قبل رحيله. سألت..

أهي الصورة الأخيرة التي ستلوح له من الدنيا؟.

لم يجبني النجم القصي. سألت..

أي تاريخ هذا، ما موقع اللحظة من الزمن المعدود؟.

لكن الحوار انقطع.

سمعت شجوا وأنينا، يبعد عم أبي أو من هو في مقام جدي، رأيت أبي يرتجف كفرخ مبلول، مع قدوم الفجر يدخل رجل، يشعر بوجود أبي، يتساءل: من.. انس أم جن؟ يقل خوف أبي، يتحدث إلى الرجل بما جرى، يصحبه إلى داخل البيت، يضع أمامه صحنا فيه لبن ساخن ورغيف وقطعة جبن. يقول أبي بصوته كما بدا في السنوات الأخيرة..

والله لم أذق لقمة منذ يومين.

يربت الرجل على كتفه، يؤلمني جوعه، وخوفه، وحزنه، وضيقه، فابسط يدي أمام عيني، أقول متأسياً، حسبي!.

ايضاح..

.. حدثني خالي في الزمن الذي خلا من أبي، وغودر فيه قلبي، قال انه يذكر رجلا اسمه عبد الكريم زيدان، كان المرحوم يوده كثيراً، في كل زيارة إلى البلدة لا ينساه، يحضر له شيئاً، قماش جلباب، في مرة اخرى شمسية، أو سبحة من خشب الصندل عطر الرائحة يحرص على شرائها من جوار ضريح الحسين، علبة حلوى طحينية، أو شالاً قطنياً من الغورية، قبل أن يموت عبد الكريم زيدان بشهرين جاء أبي إلى البلدة وزاره، حمل اليه صندوقا صغيراً، فيه سكر، وشاي، وخمس قطع من الصابون المعطر..

تجلى سرياني..

رحيلي دؤوب وشفيعي يؤنسني، لا تفزعني البوادي، ولا تصرفني الهواجم، البس كل ما أنا مؤهل له، من رداء شوق، وقميص هوى، وصدار وجد، وسترة حنين، تتكشف لي الزواهر، وتبرق لي نجومي الطوالع، تبصر عيناي ما لا يبصر، تناولي شاسع وادراكي فسيح، أما شجني فرهيف، يتغير حالي مع انفاسي، يدوم سفري، ويستحيل استيطاني، أسافر في وقوفي، وأقف في سفري، لا تأخذني سنة ولا نوم، ولا ترهقني مشقة أو غفلة، ولا تمس ذكرياتي علة، ولا تهددني عزلة برفقة حبيبي، لا تلحقني آفة، فطوفة بطوفة، ونظرة بنظرة، وحنين بحنين، وشوق بشوق.. وهل جزاء الاحسان إلا الإحسان؟..

رقيقة..

أحبكم ما دمت حيا فإن مت ... يحبكم عظمى في التراب رميم

وصل في وصل

.. يدوم صمت عبد الناصر فلا رد، يومىء الضابط، تحتك أحذية الحراس الثلاثة، تشي بالقسوة التي تدنو، أشعر بحضور عبد الناصر الجليل، الوعر، هيكله الفاره الذي يفوق وجوده المادي، ومشيب فوديه، وتلك الألفة المرققة، رأيت

مواكبه عندما كان مكتملا غير منقوص، لم يمل بعد إلى محاق، كان لحناً لم يتم، واطلالة في اشراقات الأعياد، وانتظار لطلاته، كان وكنت وكان أبي، وكنا شملا ملتئما، والزمان في ظاهره نضر يخفي ولا يعلن، يبطن ولا يظهر، لا يبوح، لا يشي بما هو آت، بغوامض الغيب، يستعصي على الأبصار المحدقة، رأيت بأسي تهدل جلده، وانكسارة ظهره، وتعبه في مواجهة هذا الضابط القادم من منازل الضر والبلوى، انه حليق الذقن، مدبوغ الجلد، نفس الرائحة التي وخزت شعيرات انفي وأنا معصوب العينين، لا حول لي ولا قوة، رأيت صغره في مواجهة الكبر المدفون، والضآلة في مواجهة الشمول، والتقييد يقابل الحركة، الماء الآسن والماء الآجن، الماء العطن والماء المزهر السلسبيل، ينتفض الضابط، لا يخفي هياجه، يخالف الأصول التي تعلمها.

لا ترد اذن . . أنت لا تعرف ماذا ينتظرك؟ . .

يقف الضابط فجأة، ينظر إلى مدخل زنزانة التحقيق، أرى وجوها مطلة، وجوها اسرائيلية، وأخرى أمريكية، ممثلين عن الموساد، والاستخبارات العسكرية، ومدير المخابرات المركزية. يختفي الضابط من مجال بصري، تتمطى ظلال، وتتردد الأصوات متعاقبة . .

انت متهم بمعاداة أصحاب النهي والأمر . في العالم.
انت بنيت السد . .

عـاديت الأسيـاد في البيت الأبيض، والبنتـاجـون والسينيت. .

انحزت إلى الفقير وعاديت الغنى.

تطلعت إلى المستقبل. .

تتكاثر الأصوات، تختلط، بصعوبة أميزه عندما كان فتياً عفياً وأيامـه واعدة، يعلن تـأميم القناة، النـاس يصفقون، يـزأرون، اين ذهبوا، أين راحـوا؟ اسمـه يعلن التحـدي، يستعيد مجد الأيام القصية، يبث العزيمة، لم يكن لدينا جهاز راديو. خرجت من غرفتنا فوق السطح، شببت على قدمي، وأمسكت بيدي حافة السور فالتصق بجلدي طلاء مقشور بللته الـرطوبـة، صوتـه قادم من الـطابق الأرضي، عبـر المنـور، يتصاعد، والليل في أوله،وإذ أرفع رأسي، أرى لوحة اعلانية تضيء في الأفق البعيد بالأحمر والأزرق، فوق السطح جلست، أرتدي جلباباً بني اللون، أبي يقف في الركن بجـوار عصا الايريال الخشبي لراديو الجيران، نحملق في السماء، ثـلاث طائرات على ارتفاع منخفض تعقبها ثلاث أخرى، تصعد إلينا الست روحية، يسألها ابي عما جرى في البلد فتقول انه الجيش، وان الملك انتهى، والناس يقول ان الجيش سيرخص الحاجة، ويجعل ركوب المواصلات مجانا، صبـاح اليوم التـالي نزلت. قطعت الطريق من مدخل حارتنا، مررت بدكان الباجوري، ومحمد الخضري، وجلال الطعمجي، وتوقفت عند عم محمد بائع الصحف، اشتـريت الأهرام، الصفحـة الأولى، صورة

كبيرة لقائد الثورة تتوسط الصفحة، وصورة أقل حجمًا له، ينظر نظرة جانبية، نحيل، انفه كبير، بهي الطلعة، صور أخرى متساوية الحجم، فوق السطح تمدد أبي فوق ظهره، يسند رأسه إلى الجدار، رحت أقرأ له الأسماء، لم نتوقف عنده بالذات. صحبني أبي وصحب أخي إذ كان يحرص على صحبتنا. ذهب بنا إلى ملعب كبير في خلاء الدراسة، مدرجات خشبية، ومدعوون بحلل وجلابيب ولافتات من تجار الحي ترحب بالقادة الأحرار، سمعت أن الشرطة ستقدم عرضاً، رأيت بالونات منتفخة في أرض الملعب المفروشة برمل أصفر غامق، من أقصى الملعب تنطلق خيول يركبها فرسان بثياب مزركشة، يعدون، يركضون، يفجرون البالونات، يعلو تصفيق، ثم تمر طوابير كشافة، رأيت المناديل الخضراء حول أعناقهم والحبال البيضاء التي تنتهي بالصفارات، وأحزمة جلدية تتدلى منها خناجر، يلتفون ناحية موضع من المنصة، يرفعون أيديهم، في هذا الموضع كان هو، لم أره. لكنني سمعت صوته. وكان مجلجلا، تتخلله وقفات. تلك أول مرة أسمعه. انصرفنا، وسقانا أبي عصير القصب، سمعت صوته بعد توالي السنين مهموما يعلن الانكسارة وضياع الجند، وتلك بداية المحاق، وأول اشارات الغروب الذي أثقلنا واعتم نشأتنا، وأجهز على ما أجهز غير انه لم يلحق الضر بالعصر الذي سمعته فيه أول مرة، ولا بخطو أبي عند صحبتنا له، ومشيه معنا، لم يلحق الضر وان ولىَّ هذا كله فلا انكفىء لأراه

الا داخل رحيلي هذا، أما في عالم الحس فادراكه وعر ومحال، وان كنت أودعت اللحظات مقدارا من وجودي، ومسافة من زمني، سمعت ركلا، ثم صفعا، لكنني لم أسمع انينا أو صراخاً أو استجداء مرحمة مع انه تجاوز الخمسين وآخر عهدنا به كان مثقلا بالأوجاع وداء السكر وعطب القلب، احتد الأمر، تداخلت الأصوات، استطعت تمييز ضيق الأنفاس وتفتق الجرح وانين العصب، تتكاثر على الأصوات والرؤى، تتطاير حولي شظايا زمني، الذي هو بعض زمنه، أود لو أطلب التفسيرات. تأخذني هزات الشجي، يشملني أسى، يضمدني جرح، يثقل عليّ فأهرع موليا، أسمع بكاءاً قديماً. انظر ويا ليتني ما نظرت، مسلم ابن عقيل محطم الأسنان، مدلى الفك، عطشه شديد، عيناه تدمعان بعد وقوعه في الأسر، انه عاجز، محاط، مسلوب السيف بعد ان صال وجال، يقول أحد الواقفين: ان من يطلب مثل الذي تطلب اذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك. يقول ابن عقيل: والله ما لنفسي أبكي، ولا لها من القتل أرثى، لكنني أبكي لأهلي المقبلين أبكي للحسين، وآل الحسين. اسمع رجفة، التفت، أرى مولاي يأسو ويحزن، أرى جبينه الوضاء يتغضن، أمسكت نفسي عن نفسي، صمت عن النظر، كففت عن الفضول، توجعت، امثل محبوبي يتألم ولو للحظة؟ نسيت انه كان بشراً سوياً، لكن لم يدم ذلك، اذ وهنت على مهل شمسي، واصفر كوني، ودنا ليلي، وبدت في أفقي أول نجومي الذاريات،

امتلأت حاسة شمي برائحة تراب بلدتنا، ورائحة البئر القديمة التي غطيت جدرانها بالطحالب الخضراء، ورائحة قواديس الساقية، وهذا كله عبر الفراغات إلى رئتي أبي، وطرق مناماته، رأيت أضواء البيوت في الكوفة، ورأيت نملة سوداء تدب في ليل أليل على صخرة صماء، تواصل سعيي وكنت غير مكتمل بعد وإذا اكتمل الانسان يرحل كالناقلة إذ تتم حمولتها تبحر أو تقلع أو تتحرك وثمة عودة. لكن الانسان هو الوحيد الذي يكتمل فيمضي ولكن بلا رجعة.. فالنجا، النجا..

خاطرة..

.. الموت موتان، موت أعظم وموت أصغر، أما الموت الأعظم فيتمثل في السكوت على الجور، والتغاضي عن الزيف، واخماد الضمائر، وغض البصر عن الحق المهضوم والتشاغل عنه بطلب المنصب الزائل، والمال المكتنز، كذا الرضا بالأمر الواقع والنأي عن محاولة تغييره والتقاعس عن الجهاد، أما الموت الأصغر فهو بطلان الحواس، وتوقف الأنفاس، وهجوع القلب، وبرودة الجسد عند مفارقة الروح ويبوسة الأطراف...

الخرجات

.. تلك لحظة شروقية ولا شروق، حمرة وصفرة وزرقة

بعيدة وشفافية غامضة، في النور الرقيق الحنون رئيسة الديوان، ستنا الطاهرة زينب، سنية، عـذبة، مـطمئنة، ودالـة، تملأ الجهات الأربع، هذا مولانا الحسن متولياً على النواحي الواقعة إلى يمين الموجودات، أما ذاك فلب الضياء ومبدد العتمة، سيد الشهداء وشفيعي ودليلي وأماني في خوفي. لم أدر موضعي أو في أي جـانب أنا؟ انفلق الضيـاء عن قريـة مبانيهـا متجـاورة ومتباعدة، طرقاتها رملية، تلك لحظة خروج الحسين من مكة، يصحبه أهله وصحبه، تتهـادى رحله، والدرب وعـرة، أما المقصد فالكوفة، قيل له أن يسلك طريقاً جانبية لكنه أبى، انه يمضي فوق الأرض التي مهدتها أقدام المسافرين، لا يخشى عيون يزيد المدسوسة، قلبه منقبض، والشواهد عكرة، لكن الانقبـاض قد يعقبـه بسط، والضيق ربما تـلاه فـرج، أمـا السكوت عن الضيم فهو الهلاك المبين، قبل خروجـه طاف بمكة، تذكر المواضع الأول. تلك التي تمهل عندها، والتي آوى إليها، والتي هزه الحنين في ظلالها، تلك التي شهدت أيامه الأولى عندما كان أبوه غضاً وغصنه مورقاً وكان جده الكريم يملأ الدنيا، استعاد اللحظات الآمنة، أيام طفولته في المدينة، واللعب، وهذه الربى، وتمنى لو ألقى نظـرة ربما تكون الأخيرة، تذكر هذه النسمات التي تتسلل عبر قيظ الصحراء، لثم بعينيه الكعبة، وشرب ماء زمزم، طاف بالزوايا والأركان، تلك التي أودع عند كل منها مقداراً من الأيام الرواحل، خاطر يهب على روحه قاسياً في رقته، حاداً في رهافته، ينبئه انه لن يرى هذا

كله، يحاول اقصاءه يمضي إلى تفرقة ما فاض عن حاجته على الفقراء والمرضى، في لحظة خاطفة استكان وجهه لتعبير غريب لازمه ولم يفارقه، يودع مكة، يخرج، على الطريق المؤدية يلتقي الفرزدق، يسأل عن حال القوم، يقول الفرزدق حزيناً أن قلوبهم معه، وسيوفهم عليه. إذن.. الأمر كما حدثه قلبه، يستمر رحيله، خروج ولا دخول، المصير المنتظر يتكشف له عند كل خطوة، يستدير الزمن، ينهل من منزل الضر والبلوى، بعد مرحلة اخرى يقابله رسول ابن عقيل، يفضي إليه بالانباء الموجعة، بالأخبار الجسام.. إذن، لم يعد المصير مجهولاً، هذا هو الحسين في ركبه وضاء، عازم، مرقرق الفؤاد، صادق النوايا، ليواجه بعمره من يريدون شد حياة الخلق إلى الوراء، إلى عصور الجاهلية الأولى، إلى ما يثقل الوجود الانساني المحدود بالشقاء، في ركن قصى من قلبه المكلوم أمل بمواجهة القوم، مجادلتهم، محاولة ثنيهم عن تقاعسهم، وخوفهم من السلطان الزائل، لكن الخواطر تنبئه بما سيجري وما سيكون من سفح دمه.. فليكن عمره محدوداً، ولكن ما سيحدثه قتله على ايديهم سيتأجج بعد ان يبدأ مجرد جذوة، انه يوشك ان يرى بعينيه ما سيجري. هنا نظرت إلى مركز الديوان، أعضاؤه وأوتاده وأركانه يرقبون ويصغون، حسيني ينظر إلى نفسه بنفسه، في خاطري تكأكأت الأفكار والقول، ما من مجال للحديث إليهم، ليس بوسعي إلا التلقي، كنت هادئاً غير مستوحش، يخرج الحسين إلى كربلاء، رأيته، واستعاد الديوان

معي اللحظات الجسام، رأيته ، ورأيت بعده خروج الندى والطل، رأيت خروج الزهر من الأكمام، وخروج الموجة من رحم الموجة، خروج اللحظة من اللحظة، رأيت خروج النظرة إلى المنظور، ولحظة خروج النهار من الليل، وخروج النجم من باطن الكون، خروج الدمعة، رأيت ما أحدثه خروج عبد الناصر في ذلك الزمان الغريب، الناس يتحدثون عن ظهوره، يؤكد الذين شاهدوا الواقعة في ميدان الدقي انه هو. الملامح ملامحه، والقسمات نفس القسمات التي تحملها الصور القديمة. يؤكد رجل متعب انه لا يمكن أن يخطىء وجهه أبداً، تقسم فتاة شابة لم تعش زمنه الدنيوي ان صوته الزاعق هو هو نفس الصوت الذي اصغت إليه طويلاً خلال التسجيل المتداول سراً، يقول فلاح في البراري القصية ان عبد الناصر جاء ملبياً نداء الذين لا حول لهم ولا سند. وانه جاء لأن هذا البلد محمي بآل البيت، فيه الحسين، والسيدة زينب رئيسة الديوان، وسيدي زين العابدين، والسيدة فاطمة النبوية، والسيدة سكينة، والسيدة رقية، والسيدة نفيسة، رحمهم الله أجمعين، يؤكد صحفي شاب ان عبد الناصر هرب من سجنه، وانه خرج، خرج مضمد الجبين، به عرج خفيف، وانه شوهد في عربة أجرة بصحبة ثلاثة لا يعرفهم، وان تهريبه تم بعد تدبير عظيم، رأيت الحيطة والحذر، جنوداً غرباء يقفون عند المفارق، يشهرون الأسلحة العجيبة، يدققون في المارة، يتفرسون في الملامح، والهويات، وأوراق اثبات الشخصية،

رأيت رجال المخابرات المركزية يوقفون القطارات، والسيارات، ويقلبون الحمولات، ويمسكون بالمنافذ، ايقنت ان ثمة أمراً يجري لكنني لم أقف عليه، كدت أسأل، لكني رحلت إلى لحظة ماضية فرأيت عبد الناصر مرتدياً زيه العسكري، لحظة خروجه معلناً الثورة، ثم تبدلت الرؤيا فإذا به في صحراء نائية يدبر أمراً، وكان في قلة وعرفت انه سيكون من أمره ما يكون، رأيت الخفقة تخرج من الخفقة، والدم يضخه القلب فيتدفق ويسعى، ليس للانسان إلا ما سعى، سبحانك!، تتبدل انفاسي فأرى خروج أبي من البلدة، من قريته، من موضعة الأول وأيامه الأولى، يمشي مع مثيل له في العمر اسمه عمر، يسعيان باتجاه الجسر، يولي أبي ظهره للبيوت، يودع دنيا ويستقبل دنيا، الأولى معروفة والثانية مجهولة، يتوقف، يستدير، البيوت يداريها النخيل والدوم والسنط واللبخ، عيناه تدمعان، لا يهون عليه فراق البلدة إلى أرض لم يرها ولم يطأها، لا تهون عليه جهينة مع انه شرب المر فيها، سقاه عمه التوتياء والمر والحنظل، صبغ أيامه بالنيلة، أوشك على الفتك به، أوثقه ذات ليلة واتجه به إلى الترعة قاصداً اثقاله بالحجارة واغراقه لولا الصدفة التي دفعت إلى طريقه برجل طيب، باشجاويش النقطة واسمه أحمد حسين، ولولا ضابط النقطة واسمه أبو حشيش، ولكل منهما مواقف ومقامات وأحوال سترد في موضعها عندما يحين الحين ويأذن الكريم، ويسمح لي أركان الديوان، جعلني الله من الساعين إليهم دائماً، ومن الطوافين حولهم، والمتمسحين

بأعتابهم وأطراف مقاماتهم وأطياف ظهورهم. رأيت أبي يدمع عند الجسر، عند اختفاء البيوت التي لم يعرفها إلا دائمًا على اعتابها، رأيته يدمع لأنه يعرف ان ما كان لن يكون، وانه عندما يعود إلى البلدة يوماً، قرب أو بعد، سيجد أن كل ما يعرفه قد نأى عنه بدرجة أو أخرى، هذا ما أدركه أبي وهو غض العمر، وهو معنى لم أصل انا إليه إلا بعد ان نالت السهام مني وكثرت جراحاتي، استغرق أبي عامين يعد نفسه للخروج بعد أن صار عـيشه صعباً، في ليلة طقت الفكرة في رأسه فخشيها وأرجف خيفة منها، شجعه وقوى قلبه رجل طيب اسمه محمد علي، استفسر أبي عن مصر، عن الحياة فيها، عن شكل بيوتها، عن سبل الرزق، والمسعى، والمأوى، وعناوين الأقارب، حفظها وتلاها مرات بينه وبين نفسه، عزم ثم انثنى ثم عزم، استدار الزمن الأكري، فرأيت أبي الذي أعرفه عند شروعه في سفر لزيارة ولي من أولياء الله أو لزيارة أحمد حسين رجل البوليس الذي انقذه، رأيته عندمـا يروح ويجيء يسأل عن مواعيد القطارات، السريع منها والبطيء. ثم شرائه الهدايا، احضاره القفة الفارغة المجدولة من الخوص، يرتب اللفافات ثم يفرغها، يخرج ما وضعه، يحاذر ان يضع الشاي بجوار الصابون، يلف الأكياس بورق جريدة قديمة، يرتب الأشياء من جديد، في الليل يتقلب، وإلى المحطة يصل قبل ميعاد القطار بساعات، هذا قلقه كما عرفته مع أن سفراته تلك موقوتة، سفرات لها رجعات، أي حيرة؟ أي أسى؟ أي

شجى؟ أي ليال ثقال مرت عليه قبل أن تحين لحظة خروجه من البلدة، لا يحمل إلا لفافة بها جلباب جديد، وصديري داخلي، سروالين من الدمور، إلى صدره يضم عشرة جنيهات، ما أدخره عبر سنوات من عائد الفدان ونصف الفدان، نظرت إلى مولاي وقبلة قلبي وحنيني، الحسين. أدرك ما جال بخاطري، جاءني الجواب، عرفت ان أبي ضاق بالدنيا حتى بدت له حيناً أضيق من ثقب ابرة، لكن كان لديه فضول، وعنده أمل، سيعطي هذه الجنيهات العشرة لأحد المعارف في مصر، سيرجوه ان يلحقه مجاوراً بالأزهر، سيتعلم، سيعرف الحرف من الحرف، سيفسر الكلم، وسيقرأ القرآن، والأحاديث، والتفاسير، سيتلو. ويكتب. ويتفقه، سيعرف الدنيا فالجهل عماء، سيحاول ان يعرف مواقع النجوم، ودورات الشمس والقمر، وأسماء الأزهار، وتواريخ العظماء والسير، كان أبي مولعاً بتتبع الانساب، كل بلدة ومن انجبت؟ والوقوف على أعمال الناس في الأزمنة الممحية، كان حاد الذاكرة فإذا سمع اسمًا لا ينساه أبداً، وإذ مر بيوم شتوي غائم فلا يروح بدرجات ضوئه الرمادية من وعيه أبداً، وإذا جلس في جمع فإنه يذكر ترتيب جلوسهم ولون أرديتهم بعد انقضاء عشرات السنين، كان يذكر اسماء الأيام التي غزر فيها المطر أو اشتد الحر على غير عادته في عام بعيد، تلك ذاكرة لم تخب ابداً حتى ليلة الثامن والعشرين من اكتوبر، الليلة التي كنت فيها نائياً عنه. أتابع الخطى التي بتواليها يكتمل خروجه إلى مصر،

مصر ضروعها كثيرة ولن يعدم مورد رزق يعينه حتى يتعلم، حتى يقرأ ويكتب، حتى يعرف ما لا ترويه الألسنة شفاهة، ها هو يقطع جزءاً طويلاً من الطريق المؤدي إلى طهطا، أول المدن في طريقه، وهنا وقع لي ما كنت أرجوه، أذن لي الديوان كله بالظهور لأبي، تجليت له على الطريق، كنت شاباً في العشرين، ارتدي جلباباً أبيض وطاقية من الصوف وأقبض على عصا من الخيزران، ولم أدر ملامحي أهي ملامحي أم ملامح أخرى؟ يتقدم مني أبي، أرقبه يمشي والعالم خلو مني بعد! يتجاوزني، يعود إلى، يسألني عن المسافة المتبقية إلى طهطا. يسألني ورفيق رحلته بعيد عنا، والنهار مليح حان، تسنح لي الفرصة فاتملى من وجهه، أرصد مواطن الحزن والحنين حول عينيه، وفمه، يتصل الشجو الغامض مني إليه، ومنه إليّ، أصف له الطريق، أذكر له منحنى بين النخيل، ومصرف لا بد من عبوره عند قرية الطليحات وجزء مبتل، طيني، عليه أن يتجنبه، ومنزل لثري حوله كلاب، فليحذرها، وشمس ربما تشتد ظهراً، إذن فلا يخوض في حقول الذرة والممرات التي تتخللها، ليلزم الطريق ستظلله أشجارها، يشكرني، ويدعو لي بالستر، يكاد يسألني، من أنا؟ لكنه يخجل، يستدير فأصيح عليه، يلتفت ودهشة تحتويه «اتعرفني يا ابن الناس»؟، يبتسم له فمي، تمتد يدي بالخيزرانه، أقول «رافقتك السلامة.. يبدو ان سفرك طويل، خذ هذه لتمنع الكلاب عنك..»، يدعو لي مرة اخرى، يستدير ممسكاً بالعصا، وتلك عصا احتفظ بها

طوال عمره، حتى في أيام غضبه وهجره البيت كان يصحبها معه، عصا لم أدر مصدرها إلا في أسفاري، أما منشؤها ومنبتها فهذا ما لم أحط به خبراً، ومن توكأ عليها، وأي مآرب كانت فيها؟ وعلى أي الاغنام أو الحيوانات هشت، وإلى أي الصور تحولت؟؟ فهذا ما لم أحط به خبراً، ها هو ينصرف عني، يمد الخطى ليلحق بصاحبه، يجاوره، تمنيت له السلامة، توجهت إلى رئيسة الديوان ان تحيطه برعايتها في خروجه هذا، ينقصني وجودي الذي تم قبل أن أبدأ، اتفرق قبل ان اتجمع. أسأل عن السنة، تجيئني الاجابة هذه المرة. انه العام الثالث والعشرون بعد التسعمائة والألف التالية على ميلاد السيد المسيح، لكن لم يفض إلى باليوم أو الشهر، وان تجلت لي معارف تعجبت منها، لحظة مفارقته حدود البلدة، حطت يمامة مهاجرة فوق بقعة مجاورة لمقابر قديمة جنوب الفسطاط، وسطعت شمس فوق رمال صحراوية تقع شرق العباسية، أحصى رجل اسمه الرمالي مقداراً من المال، وتلقى طالب حقوق اسمه محمد خلف هدية من نابولي، علبة حلوى محشوة باللوز، كان ما بين خروجه ولحظة خروجه الأبدي من الدنيا سبع وخمسون سنة، ولحظة ميلاد أمي يومان اثنان. ولحظة ميلادي اثنان وعشرون عاماً، وزواجه من أمي ست عشرة سنة، وكان بين خروجه وخروج الحسين إلى كربلاء ألف ومائتان وثلاث وأربعون سنة ميلادية، وبين خروجه وخروج عبد الناصر من الدنيا سبعة وأربعين سنة، وبين خروجه ومجيء

الاسرائيليين إلى مصر أربع وخمسون سنة، وكان بين مجيئهم ورحيله عنا ثلاث سنوات، وكانت مدة إقامته في الدنيا ثمانين عاماً ـ كما قالت أمي ـ وتسعين ـ كما قالت عمتي ـ وأكثر من مائة ـ كما أكد أحد أقاربه المعمرين. أما السجلات الرسمية فقالت، اثنان وستون، عبثاً حاولت ان أعـرف الحقيقة من مولاي، من سيدتنا الطاهرة، امتنع عني ذلك، عدت إلى أبي. هفهفت حوله وهو يركب مع صاحبه عربة بضاعة في قطار بطيء يتجه إلى مصر. تهاديت بجوار ركب الحسين الساري إلى الكوفة، تأكد لي هرب عبد الناصر من سجنه، تنقلت وتتابعت حركتي، تشتد روءاي، يعود الحسين إلى جواري.. آسف.. أعود أنا إليه، يطبطب عليّ، يتحنن عليّ، يقوي عضدي، يثبت قلبي. أقول..

غربتي في ازدياد بعد كل ما تجلى لي..

يقول..

كل ما خلق لا بد ان يرجع إلى ما كان عليه، هذا مقطوع به..

الحنين في عيني أبي يعاودني، قلبي مثقـل، ملامـح عبد الناصر في مواجهة الضابط، آلام ابن عقيل، أقول..

أخشى ما ينتظرني..

يقول:

ليت الجاهل يعلم بما ليس يدري . .

أقول . .

زدني . .

يقول . .

الا تؤمن؟

قلت . .

بلى . . ولكن ليطمئن قلبي . .

وهنا رأيته في موضع قصى من الديوان. وجلت، فلم استطع كتمان ما بي، تساءلت . .

في أي اصقاع نسافر؟ في أي رحم ينبت النسيان؟ أي مبتسمة ثقيلة تحتوي الذكرى؟ أي مثوى يخفي الأيام والليالي . . .

رأيت الحسين غاضباً، يواجهني.

ألم أقل لك . .

انكسرت، وانكسر خاطري، وصار لعابي مراً، لم ألفظ، قال :

ألم أحذرك . . ثمة شيء واحد لا تسأل عنه أبداً . .

ركضت دقات قلبي تأسفا وحسرة . .

راح من أمامي، رأيته في موضعه من الديوان، لم أدر ان كنت عدت إلى ما بدأت منه، أم انني في موضعي الصحيح؟

توجع وأنين..

لقد لاقيت من أسفاري هذه تعباً ونصباً..

المواقف

موقف

التأهب

هي الشمس الا أن للشمس غيبة
وهذا الذي نعنيه ليس يغيب

. . أوقفني في موقف التأهب، ثم فارقني، هجرني ونأى عني فصرت إلى غربة وقفر بعد أنس وألفة، صرت إلى جفوة بعد وصل ومودة ورحمة، صرت بمفردي، غريباً في غربتي، نائياً في نأيي، بعيداً في بعدي، لكنني أشبه بمن يستجمع كافة قواه تأهباً لانطلاق عظيم، كنت قادراً على رؤية ما أمامي وما ورائي، فوقي وتحتي بدون حركة من عيني أو رأسي، صرت بصراً كلي، كأني الناظر والمنظور إليه كأني الرائي والمرئي، رأيت طائراً عجيباً لا عهد لي بمثله في طيور الدنيا. قد من ضوء وطيف، ريشه مجمع لألوان الدنيا، أما رأسه فرأس بشرية، وجهه آدمى، حدثني قلبي انني أعرف الملامح لكنني لم أتمكن من تدقيق بصري لشدة الألق فعرفت أن أوان معرفتي له لم يحن بعد، رأيته يحوم في سماء الديوان، ولانها محيطة بالديوان أحاطة بياض البيضة بصفارها، بدا لي الطائر العجيب محلقاً إلى أعلى وإلى أسفل، صعوده هبوط. . ونزوله طلوع، وإذا به

ينطق، فيأمرني بالتأهب، فخضعت واستجبت، لم أتفوه بحرف وان اضمرت الدهشة لأن مولاي فارقني وهو الصاحب والرفيق والدليل الذي به اهتدى، سكت، وان عرفت ان كل ما يرد على عقلي من خواطر، وكل ما يـرعش قلبي من أحاسيس معروف مدرك لسادة الديوان سادتي، عند نقطة بعينها رأيت رجلين يقفان فيما يشبه الضباب، وخطر لقلبي أن شذا ايامهما شديد القرب مني، أخبراني بالصمت انهما تلقياً أمراً كالذي تقليته، ثم أوضحا لي مقصدنا، ونهاية وجهتنا، كربلاء ونقطة قصية من الزمن، ولينا وجهتنا صوب كربلاء، وعرفت انني في بداية الموقف، وهذا موقف هين، له من الألوان الرمادي، ومن الأيام الأحد، ومن ساعات النهار ما قبل شروق الشمس، ومن الحرارة بداية شدتها، ومن حالات العيون لحظة ما قبل خروج الدمع، ومن القلب خفقته الولهى عند سماع النذير الثقيل.

بدأ سفرنا وتبدلت علينا الألوان، مررنا بسواد حالك كالرخام الأسود أو القطيفة الليلكية، وزرقة صافية كلون الفيروز عند نشأته، ثم رأينا ضوءاً ثاقباً نحيلاً يخترق الديوان من أقصاه إلى أدناه، ثم تعددت أجسام غريبة تشبه المذنبات، أو النيازك أو الشهب، وأخرى لاندرى عن طبيعتها أو هويتها شيئاً، تقبل علينا فيظن المبصر لها انها ستخترقنا، ستغرقنا، لكنها تعبرنا، أو نعبرها فلا يلحقنا أذى أبداً، تداخلت كـواكب قديمـة، وأخرى حديثة، كما يتداخل شرر النار، تعامدت، وتجمعت في خط مستقيم، ثم سعت في أثر بعضها، لكنها لم تتصادم، كل

في فلك يسبحون، وتعاقبت المرئيات علينا بسرعة تغير الخواطر، فقلت لا يكون هذا إلا لأمر جلل، توالت الألوان عليّ، ألوان جديدة لا عهد لي بها، وليس لها مقابل في عالم الأسماء والأوصاف، ومن حين إلى حين يمرق ظل طائر الضوء المشع الذي أمرني فعرفت انه رفيق سفرنا هذا، لم أفكر في صاحبيّ لشدة ما تعاقب علينا لكنني أدركت ان أوان الدنو يقترب، ولاحظت انني كلما اقتربت ابتعدا عني، حتى اختفيا عني عندما انتهى رحيلي، وأوشك على الانجلاء ليلي. هنا انغرس الخاطر السديد فأرجف وعيي، كيف لم أعرفهما، كيف لم أدرك الملامح المبهمة في جملتها وتفصيلها، كيف وقد طالعتهما عمراً. أبي عن قرب، وعبد الناصر عن بعد ممزوج بقربي، كيف لم أخاطب كلا منهما باسمه، كيف أرحل بصحبة أبي وتداخلتني غربة، كيف لم أقترب منه حتى وان شاغلتني الأفلاك والرؤى. غاص سؤال في وجداني. أهي بداية النسيان..

تذكرت صديقاً قديماً يكبرني سناً، وكنت ملوعاً مغموساً في حزن طري كالقار الساخن السائل. قال صاحبي: انت في حاجة إلى عام كامل كي تنسى. لم أرد، استنكرت ما سمعت، تساءلت بيني وبين نفسي، كيف يخطر له انني سأنسى ذات يوم حتى وان بدا بعيداً، وكأنه انتبه وخمن ما جال بخاطري فقال مواسياً، كل الأشياء تولد صغيرة وتكبر، عدا الحزن فإنه يولد كبيراً ثم يصغر. ضقت بقوله هذا، وضقت بتذكري له في موقفي، لكن عسعسة الصبح البعيد عن زمني

الدنيوي، وتنفسي هذا النهار الـذي لم أعشه أبـداً أخذني، وجدت نفسي بمنأى عن عصري، في كربلاء، أمامي معسكر مولاي الحسين، خيامه مضروبة، لم يتبق معه الا أهله، وأقرب الأقربين، أما اليوم فهو الثالث من أيام عطش الحسين، حيل بينه وبين الماء، في المواجهة جند يزيد، إنه العام الخـامس والستون المنقضي على هجرة شفيعنا المصطفى محمد رسـول الله، إنه العاشـر من محرم، انـه الجمعة، ضممت مـولاي بنـظراتي، ولففت صغيره الـرضيع القـاسم في غرارة قلبي، وتوقفت فجأة عن الطواف ببصري، رأيت صـاحبيّ اللذين رحلا معي عبر موقف التأهب، رأيتهما أو هكذا شبه لي، أبي وعبد الناصر، يرتديان زي العصر، ويمسكان اسلحة العصر، ويقفان بين صحب الحسين الذين بقوا معه ولم يفارقوه وتأهبوا للظمأ وانقطاع المدد، بقيا معه، مع خاصة خاصته، أخذني العجب، فانطويت تحت لواء الحبيب الأوفى، الحبيب المنزه، مرآة الحق، ومجلي الغموض، عين القدر وعطر أيامي التي لم تأت بعد، كنت أرى ولا يراني أحد، وعندما جف حلقي، واشتد عطشي عرفت انني أكابد ما عاناه القوم، عرفت أن موقف التأهب ولىَّ، عرفت ان القدر سابق، والقضاء لاحق..

موقف الظمأ

«بل هم في لبس من خلق جديد»
صدق الله العظيم

.. صرت بين أهل الحسين وصحبه، حصارهم حصاري، وتعبهم تعبي، وظمأهم ظمئي، غير أني خصصت دون الكل بقدرتي على التنقل بين موضعهم المحاصر ومواقع من يحولون بينهم وبين ماء الفرات البارد الـرطب، لم أكن أدري إلام سينتهي أمري؟ وهل سأقضي أم لا؟ وإذا قبضت هنا فهل سيتلاشى خبري، وينقطع جذري، ثم لا أوجد في المستقبل البعيد الذي اتيت منه، أقصيت التساؤلات التي محورها ذاتي وتملكني شوق إلى السعي في اثر أبي، أبي الذي رحل عني بالموت وصار قدري أن أقضي نصيبي الباقي لي في الدنيا بدون طلعاته، بدون أن اصغي إلى نوبات سعالـهِ الليلية في الأيام الشتوية، أو قدميه عند صعوده السريع والذي أبطأ مع تقدم عمره، ودبيب الوهن إليه، بدون أن أنتظر دقات يديه على باب بيتنا وقد كان هو تعريشة سقفه، وأمنه الليلي من الطوارق الغريبة، والمفاجآت الداهمة، كان ضوءه المنير، صرت أقضي ما تبقى لي من عمر بدون شعوري انه هناك. في مكان ما، وانه باستطاعتي السعي إليه فأراه، وأصافحه، وأجلس إليه، أضمه بالنظر وقد أشيح عنه أخاطبه بالنطق فيستجيب، ما تبقى من

زمني يخلو الآن من توقع مقابلته فجأة في طريق ما، ما اسم ذلك اليوم البعيد، كنت أركب القطار القادم من الضواحي، عندما رأيته يقف منتظراً عبور المزلقان، لا بد انه شتاء ما إذ كان أبي يرتدي المعطف القديم الوحيد عنده، ما اسم ذلك اليوم، ما اسمه؟. تلفت حولي وأنا في أرض غريبة، أرض غير أرضي وزمن غير زمني، رمال جافة وشمس حارقة والماء بعيد، وأفواه ظمأى بين فاهي، وأمل واه في النجاة، هذا ابن مولاي الحسين القاسم، الرضيع، مذبوح من رقبته بسهم. لم يوار الثرى، يخرج أبوه، يحمله بين يديه، يشهد السماء على ما يجري لاحفاد رسوله الكريم وعترته وآله، عاينت ذلك بعيني، وبصري، ولم أكن محارباً، ولم أرم بسهم أبداً. لم أقذف رمحاً. غير أني وددت لو مكنت من هذا كله ثم وجهته إلى القتلة، أعرف أنني أواجه قلوباً قست، ونفوساً تعامت، وانه ما من فؤاد سيرق أو يحنو، وعهدي بالقلوب إذا ألفها حال القسوة فلن ينقص ذلك من قسوتها شيئاً، أرى مولاي مكروباً لكنه لا يخاف الدنو من نهاية محتومة انما يؤلمه ويحز في روحه ذلك الظمأ البادي على أقرب الأقربين، لم أدر ما أفعل، غير انني رأيت أبي يسعى باتجاه النهر، هذا خطوه الذي أعرف، عدوت في اثره والرمال تتناثر عند عقبي.

أبي..

ولم يلتفت إليّ، زدت من ركضي حتى جاورته، ثم سبقته

وملت بوجهي لأرى وجهه، لأتملى وأتحقق..

تعال إلى النهر..

هكذا. بالصمت أمرني، سررت لأنه عرفني، ولأنني تمليت من وجهه، من ملامحه، قدرت أنه في الخمسين أو الستين، وإذا شئت الدقة فإنه أبي كما كان يطالعني وجهه أثناء دراستي الإعدادية، عند مدخل شبابي وفتوتي، عندما كان عفياً، يستيقظ في أيام الشتاء الباردة، ويسمع صوت قبقابه الخشبي في البيت يضرب البلاط، ثم يفتح الباب، يغلقه اغلاقاً هيناً رقيقاً، ثم ينزل السلم، أسمع خطواته في البداية قريبة، قوية، ثم تتضاءل فوق بلاط الحارة المرصوفة بالحجارة المضلعة حتى تتلاشى فتذوب يقظتي وأروح في نوم عميق، يبتعد أبي، وآه من البعد، ها هو بجواري في أرض لم يحدثني عنها أبداً، يسرع في اتجاه النهر ممسكاً بقربة جلدية بنية اللون، مقددة الجلد، فمنذ وقت طويل لم تنتفخ بالمياه ولم تقطر قطرة منها، عرفت انها القربة التي كان يحملها فوق ظهره، أو بمعنى أدق وأوفى، القربة التي سيحملها في صباه الآتي عندما سيعمل سقاء ينقل الماء إلى من سيأوونه زمناً، ما أراه يمت إلى دهر بعيد لم يأت أوانه بعد ولم يحن حينه، ولم تولد بعد الحيوانات التي ستسلخ جلودها وتصنع منها تلك القربة التي أراها الآن، وهنا سر غامض، والاستفسار عنه مؤجل الآن: الموقف وعر، والقلب طافح بالشجون، بما يكون ولن يكون، فالأمر عجيب!، لو تجرأت وسألت، ربما تجلب جرأتي الضيق بي،

والضيق بي يؤدي إلى السخط عليّ، والسخط يعقبه البعاد، والبعاد يقصيني عن الديوان، وإقصائي يعني حرماني. لذا لزمت الصمت، انتبهت إلى ان صوت أبي ليس صوته، الصوت لعبد الناصر، وسرعة جريه لمازن، واطراقته لإبراهيم الرفاعي، توحد بهم وتوحدوا به فاحتواهم واحتووه، صار مجمع المحبين الذين رحلوا قبل الأوان، أحببت عديدين على القرب والبعد وهم الآن واحد، أبي مضاف والآخرون مضافون إليه، وقد يتبدل الحال، فيتفرق أبي بينهم، ذلك قدر لا أعلمه، دوني ودون إدراكه سرابيل مدلهمات وصعاب وأي صعاب؟. استمر ركضي إلى جواره، أنا الذي لم أركض إلى جواره في حياتي الدنيوية، لم أركض في صغري لأنه كان يحنو عليّ ويأخذ بيدي ولم أركض بعد نضجي لتباعد المسافات بيننا، وفي هذا الموقف أقر بذنبي فأنا المسؤول عن الجفوة لذا حقت عليّ الشقوة، هذا يقين مدرك، ثابت، كلما خطوت خطوة تزايد عطشي، عانيت ظمأ أهل الحسين وصحبه، وظمأ أبي ومن توحدوا به، وزاد عليّ ظمأ غريب، ظمأ غير مدرك بالحواس الخمس، موجع، مقلق للراحات، يقلق ويقض مضجعي، ويرض كبدي، ظمأ جهم، لا أدري مصدره، ولا ترويه انهار الدنيا وأمطارها، وهذا أصعب أنواع الظمأ وأوعرها، نما وتدبب فصار ذا ثلاث شعب تتوه فيها الخطى ويضل القطا فشعاب يؤدي إلى أبي، وآخر يفضي إلى مولاي، وثالث ينتهي عند من أحببتهم، في يوم عاشوراء هذا، الماء

منعدم عن أحبتي، واليبوسة في ازدياد، والمدد منقطع، آلمني سلوك الشعاب الوعرة إلى أبي فعظم ظمئي إلى أيامنا الأولى، إلى لحظات لا ولن أعيها، إلى وجهه وما ارتسم عليه من تعبيرات عندما ضمني أول مرة، وكنت بعد لحمًا طرياً لا يعي إلا جوعه أو بوله أو برازه دون أن يسميهم، يرتدي جلباباً من قماش الكستور في الشتاء والزفير أو البوبلين في الصيف وجاكتة وهبها له أحدهم، في مرات زياراته القليلة لبيتي بعد زواجي كان يجيء ولا يطيل المكوث ولهذه الزيارات مقام آخر سيجيء عندما يأذن الديوان بذلك ويسمح التجلي، ولكن أعي في خضم لخمتي جلوسه الهادىء المستكين الخجول، ونظره إلى محمد ولدي، ومداعبته له بحذر خشية ان يبدو منه خطأ ما. هكذا أظن وأعي، سألته، هل يشبهني محمد في طفولتي؟ فأومأ برأسه المثقل بهموم الوحدة، رأسه الذي تضاءل حجمه في آخر سني عمري، قال: نعم يشبهك، ثم صار يردد ذلك في كل مرة يزورنا فيها، عندما يجيء محمد مندفعاً، يقف أمامه لحظات، فيحتضنه ابي لحظة لا تدوم ثم ينظر إليّ، كأنه يتذكر سؤالي، وكأن السؤال ما زال عالقاً بلا إجابة. كأنه يرضيني، وكأنه يبدد الصمت فيقول: انه يشبهك عندما كنت طفلاً. لم يعش أبي مشاعر الجد كما يجب أن تعاش، لم يشبع من حفيده، ابن ابنه الوحيد الذي رآه، من ذرية من أنجبهم فقد جاءت ابنتي الصغرى بعد رحيله عنا بسبعة شهور الا عشرة أيام، وعن أبي وحفيده الذي هو ابني حديث يطول لا يناسبه

هذا الموقف لما يتضمنه من دقائق مؤلمة توجعني تـقض مضجعي وتجرح أيامي المتبقية ولو فتحت الباب فيه الآن فكأني اسدد سهام جيش يزيد إلى كيس قلبي هذا مالا طاقة لي به، تزايد ظمئي إلى رائحته التي كنت أشمها في سنيني الأولى ولهـذه السنين مقام خاص هو مقام الآمان. فمنذ ان ولت وابتعدت ولّى أمني وضمرت أماني، وصرت مطارداً في حياتي، وتلك عوامل يطول شرحها لكن بالامكان ان أفتح طاقة صغيرة على هذا المقام الجميل فأرى منها ابي وعودته عند الظهيرة، وخطوه النشيط، وبين يديه طعامنا وقوتنـا، وتردد أنفـاسه الليليـة، وإمساكي ليده في طريق مزدحم ثم تلك الرائحة، رائحته هو، صدى ظمئي وظمأ الحسين وأهله، ما من أحد يرق لهم، وما من قوة ترق لي. أو تقربني من هذه اللحـظة القديمـة التي ستندثر معي، ولن يتبقى منها إلا شظايا وأصداء في منـزل الرؤى الباقية، ولو قصصت فحواها على أي انسان لسخر مني وهزأ بي، فما الذي تعنيه عودة أبي عند الظهيرة في يوم من أيام طفولتي عند الآخرين؟ ما الذي تعنيه كل هذه اللحظات يا أحبتي لكم. ومن سيدرك حقيقة ظمئي هذا؟. أقدم ما أعيه من ذاكرتي التي تغص الآن بالناس والمدن والشوارع البعيدة والنواصي والمقاهي والجبال والوديان التي لا أعرفها والبغض والحب والحنين، والتجليات والأخيلة، ازيح هذا كله وأصل إلى لحظة نائية من أيام الحرب، كان عمري ثلاث سنوات، نسكن في غرفة وحيدة فوق سـطح بيت من خمسـة طوابق،

سقفها مرتفع، تحمله سبع عشرة دعامة خشبية، كثيراً ما رقد أبي فوق ظهره في لحظات راحته أو انسه أو اطمئنانه إلى الغد الآتي، يبدأ في احصائها بصوت مرتفع، ثم يتذكر أياماً بعينها فيقرن كلا منها بدعامة، ويتذكر شخصيات عرفها فيطلق على كل دعامة اسمًا، في تلك الأيام التي عشتها بوجودي الحسي والمعنوي واجتزتها بأعضائي كافة ودقات قلبي وتوالي انفاسي ودفق دمي، انطلقت صفارات الانذار عاوية، واخترقت سماء القاهرة حزم ضوئية حادة منبعثة من الأرض إلى السماء تبحث عن الطائرات المحومة، وفي السماء يتفجر الظلام للحظات بأضواء الفوانيس التي تلقيها الطائرات المغيرة لتكشف المدينة المستورة بليل كثيف. في هذه الليلة اشتد القصف فقال أبي: سننزل عند الست وجيدة في الطابق الأرضي. من الحارة صاح البعض مطالبين ساكني الطوابق العليا بالنزول إلى الأدوار السفلى، واطفاء الأضواء تماماً. امي حامل، وفي رحمها يتكون شقيقي الذي أصبح فيما بعد اسمه اسماعيل، نزلنا عند الست وجيدة وانقسمنا، أمي ذهبت إلى حجرة تجمع فيها نساء البيت كله، بقيت في الصالة، تحدث الرجال عن الشظايا التي تقطع المسافات وتحز الرقاب، تكلموا عن شعراوي ابن الباشجاويش أبو أحمد ساكن الطابق الثالث، تطوع للقتال مع الفدائيين، حكى أبوه عن دبابة اسمها النمر عند العدو، مصفحة، لكنهم قصفوها بطلقة من نوع خاص قسمتها إلى نصفين، أصغيت، ازددت التصاقاً بأبي، لذت بجانبه عندما كان جانبه يؤمنني

ويبـدد خوفي، ويذود عني الكروب، من بعيـد انفجـارات متلاحقة، قال قائل منهم، الضرب ناحية العباسية، استمـر صمت للحـظات، قال أحـدهم، ألطفـ يـالـطيف، انتهت الغارة، واضيئت الأنوار بعـد صفارة الأمـان، صعدت أمي السلم متمهلة، في هذه الليلة نمت قريباً من أبي، من حين إلى حين كنت استيقظ لأطمئن انه بقربي. وفي هذه الليلة بـدأ حصار عبد الناصر في الفالوجة، وضيق العدو خناقه عليهم، ونزفت دماء في مواقع أخرى، وفي كربلاء اشتد الرمي على مضـارب الحسين، وكـان بإمكـاني الرؤيـة من سائـر جهاتي واستيعاب ما أراه بحيث لا يؤثر ما أراه أمامي على ما أراه خلفي، وكنت ملهوفاً على ري ظمئي الحسي وظمئي المعنوي، الماء يدنو منا ونحن ندنو منه، ماء الفرات الرمادي المختلط بلون أحمر باهت، متدفق من منابع بعيدة إلى مصب لا نراه. رأيت الحر الذي جاء لقتال الحسين ثم اختار جانبه، سمعته يصيح بجند يزيد، «دعوتموه حتى إذا أتاكم اسلمتموه وزعمتم انكم قاتلو انفسكم دونه ثم عدوتم عليه، لتقتلوه، أمسكتم بنفسه وأحطتم به، منعتموه من التوجه في بلاد الله العريضة فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنهـا ضراً ومنعتموه ومن معه عن ماء الفرات الجاري، تتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه وها هو وأهله قد صرعهم العطش، بئس ما خلفتم محمداً في ذريته لاسقاكم الله يوم الظمأ العظيم لم تتوبوا وتنزحوا عما انتم عليه، لاسقاكم الله يوم الظمأ»، رأيت عمر

بن سعد يقوم ويأخذ سهمًا فيرمي به، يقول: اشهدوا لي أني أول من رمى. فزعقت صارخاً، أي شهادة تطلبها يا أحمق؟ تاه صوتي وتبدد، لم تصغ اذان القوم ولم تسمع، يبدأ هجومهم على أهل الحسين وصحبه، هو قلة وهم في عدد وعدة، يدنو أبي من مـاء الفرات، يعـاودني الـظمـأ القـاسي، يشـرذمني ويبددني، ظمئت إلى لحظة أخرى، تكمن في البداية، حننت إليها حنين الغريب، المحاصر، المقطوع عن النصير والمدد، لحظة تائهة في رحم الأيام التي خرجت إليها وحيداً، دليلي وإمامي هو الحسين، ولا دليل لي غيره، حتى رسوت في هذا اليوم الحزين لأشهد ما أشهد خرجت إلى ترحالي هذا ولا حيلة لي، وقد تركت ما بيدي، ولم أسند أمري إلا إليه لأني لم استشر انساناً، انما قادتني إلى الديوان عذاباتي، وتيهي عني، خرجت عن ايامي إلى أيامي خروج الميت عـن أهله وماله، ولم أكن أدري، أن ظمئي سيقرن بالحنين إلى بدايتي، إلى لحظات لن يتذكرها غيري، تقبع في كنز مكوناتي الدفينة، حجـرتنا الوحيدة بعد انتهاء بياضها ذات يوم أجهل الآن اسمه وموقعه، أمي ترتدي جلباباً أبيض، عفية، شابة، لم تنل منها الأيام بعد، تساعد أبي في نصب سرير حديدي أسود القوائم، كل قائم ينتهي بحلية نحاسية صفراء. في ركن الحجرة، فـوق قطعة قماش ملون، يرقد اسماعيل أخي، ابن شهور وربما ابن اسابيع . . لا أعرف الآن، لكنني أرى وجهه الأبيض المستدير، وعينيه المحدقتين إلى السقف، تبحثان عن شيء غامض يطول

بحث الصغار عنه، ملفوف في جلباب أسود. بعد ولادته جاءت إلى أمي أمرأة قاسم التاجر، وبعد انصرافها، ارتفعت حرارة اسماعيل أخي، أدركته الرعشة، جاءت أمي بقطعة شبة والقتها فوق صفيحة ساخنة، تشكلت القطعة بوجوه عديدة ثم استقر على وجه شديد الشبه بالست فتحية، ثم جاءت أمي بعروس ورقية وراحت تثقبها بإبرة، وتردد، في عينك يا فتحية، وحدث أن شفي أخي، راحت عنه الرجفة وزالت الرعشة، وقررت أمي أن ترتدي السواد، وأن تحجبه عن العيون. أصبح عطشى جارفاً إلى تلك اللحظة القصية، لحظة تائهة، ضائعة، تقبع في النصف الثاني من يوم مجهول الهوية لي، رأيتها وأنا بأرض كربلاء قبل أوانها بمئات الأعوام، العطش ينال مني والسهام تلي السهام في اتجاه مولاي، يعقبني أبي إلى أدنى نقطة تنحدر صوب النهر، هذا خطو أبي، وهذا إطار وجوده الجسماني عندما تأخذه اللهفة لقضاء حاجة، يميل، يغطس بالقربة كلها فتمتلىء مرة واحدة، ينتعها من النهر، فإذا بها منتفخة تشر ماء، المرتقى وعر، لكنه يجاهد ثقل حمله، بينما أميل إلى النهر لأملأ الكيس الذي يخصني وألقي به بين يدي، ولما لامستني برودة المياه تعاظم ظمئي، وحننت إلى ظل ظليل يغطي خضرة حديقة ننتظر فيها عودة أبي إلينا بعد انتهائه من عمله، اعتاد أن يصحبنا من حين إلى حين، نزور المتحف الزراعي المجاور للوزارة، يدخل من بابه الفسيح القديم ونحن في إثره، يحي من يقفون بالباب، فيردون التحية باحسن منها،

يقول أحدهم «أهلاً.. عم أحمد»، ويقول آخر أهلاً يا أحمد، يتقدمنا إلى داخل المبنى، وفي قلبي الصغير شعور بالفخر والاعتزاز،أبي معروف هنا، لا يدفع ثمن التذاكر، يعرف كل من في المكان، الموظفين، وزملاءه السعاة، نطوف بالفتارين الزجاجية التي تحوي الحبوب وأنواعها، والخبز وأشكاله، وآلات الزرع والحرث، ولوحات مطابقة لرسوم قديمة فوق جدران المعابد الفرعونية، ثم نطيل الوقوف أمام تماثيل من شمع أو جبس، يشير أبي إلى تمثال شيخ البلد قائلاً لأمي: ألا يشبه الشيخ هريدي؟، ثم نعجب بالهودج المحمول فوق جملين، بداخله عروس جميلة، لا يتعجلنا أبي، إنما يدعونا أن ننظر ونتأمل، نتفحص ونحلق، نتمهل ونسرع، وبعد خروجنا من المبنى، يختار لنا مكاناً ظليلاً في الحديقة الكبيرة، ثم يقول لنا أنه سيذهب إلى الوزارة، سيتسلم البوستة ويوزعها، ظل هذا عمله لسنوات عديدة، يفارقنا فلا نغادر أماكننا ولا نبرح مواضعنا حتى يرجع إلينا، كنا ننتظر رجوعه ونرنو إليه ونشتاق إلى طلعته، وكان تأخره عنا يثير خوفنا واضطرابنا وتوجسنا، غير أن ذلك لم يدم معنا، فقد مات هذا الاحساس مع تقدمنا في العمر وتفرقنا عن بعض، وكان ذلك أول غروب أبي. يبدو قادماً نحونا خطواته مسرعة، متمايلة، نفس الخطى التي يهرع بها إلى الحسين وأهله الآن، ملت على الفرات، شرعت في بل ريقي، في تناول جرعة أروى بها عطشى المقدد، لكنني تذكرت أن أبي ملأ قربته ولم يذق الماء أبداً، فأخذني الخجل مما شرعت

فيه، حملت كيسي وقلت: عساني أرضى بذلك أبي، أرضيه بعد افوات الأوان وقد اغضبته مرات بلا حصر، وكأنه أدرك ما جال عندي، وما ضاعف كلومي وأحزاني، فصاح ينبهني إلى الموقف الذي أنا فيه..

ظمأ الأحباب وعر..

سعيت في إثره، ارتقيت المنحدر، رأيت المكان كله كأني أراه من نقطة معلقة في الفراغ، كأني أحوم محلقاً. أرقب ما يجري تحتي، كنت أرى الكل حتى نفسي، كمن يرى نفسه في الحلم. كذا كنت قادراً على الشعور بما يجري داخلي، وزاد عليّ في هذا الموقف أمر خصصت به، ولم أعهد مثله من قبل، لا عندي، ولا عند الآخرين ممن سلكوا طرقاً مشابهة لطريقي، ومن ذلك قدرتي على الشعور بما يطوف بأبي من مشاعر، كأني هو، وكأنه أنا، ثم زاد ذلك، فأصبحت قادراً على التألم لحظة انبعاث الألم في كيان مولاي ومرشدي الحسين، ثم اتسع ذلك، فشعرت بآلام زين العابدين، وأخيه القاسم، وأبناء مسلم بن عقيل، ثم فاض ما خصني، فلم يعد مقصوراً على الآلام الجسمانية، انما تعدى ذلك إلى ما يجول بالنفوس والخواطر، وكل ما جرى في هذا الموقف مؤلم فظيع، وأيسره شجي، ومن ذلك ما توالى على نفس الحر بن يزيد بدءاً من لحظة تردده، حتى انضمامه إلى الحسين، صرت أنا الحر بن يزيد، عملي جندي من جنود ابن زياد والي الكوفة، مقصدي، محاربة الحسين، والحيلولة دون وروده ماء الفرات، كان عزمه

عزمي، ومقصده مقصدي، ثم صارت هواجسه هواجسي، وتردده ترددي، ثم أخذني ألمه الذي هو ألمي، ماذا سأفعل، وكيف سأواجه ربي يوم الحساب، خاف وخفت، خشى وخشيت، ندم وندمت، اختار واخترت. الوقوف إلى جانب مولاي. ثم صرت إلى ما صرت إليه، فما من رمية سهم تصيب واحداً من أهل الحسين ألا وتحدث نفس التأثير عندي، في نفس الموضع المصاب، صرت مجمعاً لكل آلام ذلك اليوم الجلل، منذ مشرق الشمس وحتى اللحظة التي اجتث فيها رأس الحسين، نزفت دمائي بمقدار ما نزفه الكل، عرفت فزع الانسان إذ تلطمه حجارة المقالع، وألمه عندما تنغرس فيه السهام المدببة، وعطش الطفل الرضيع، وجزع المرأة التي يرى أحبابها يصرعون بين يديها، وهلعها خشية الانتهاك قسراً، وفي حلقي اشتد الظمأ فكدت اتضعضع، ولم يكن وقوفي هذا الموقف ممكناً الا لأمر جلل، ولعقاب شديد أستحقه، أو لحكمة خفية تضيق مفاهيمي عن إدراكها، وبرغم كل عذاباتي، بقي أبي محور وعي، وبؤرته، وبؤبؤ عيني، أما مولاي الحسين فقبلتي، ومهجري، يزعق أبي..

آه يا بوي يا أنا.. آه يا قتيلهم..

أرجفت زعقته كياني، انها أقصى مراتب الألم الرجولي في صعيد بلدتنا النائية عن كربلاء بالزمان والمكان، عندما يصرخ الرجل هكذا، يعني ذلك نزول المصيبة، وقلة الحيلة، وطلب الغوث، فالرجل لا يصرخ عندنا الا لمصيبة تقصر عنها الحروف

المنطوقة، ولا تستوعبها كافة أشكال المخاطبـة، تطلعت من سائر جهاتي فرأيت المياه التي نجح أبي في ملء القربـة بها مسكوبة، متسربة بين ذرات الرمال، اخترقها سهم، في نفس اللحظة انسكبت مياه كيسي، رأيت انتفاضة أبي، رأيت ألمه المروع وأدركني، رأيت ابي الذي عاش عمره كله ولم يتشاجر مع إنسان، ولم يصفع وجنة، ولم يسدد قبضته إلى مخلوق، لم يوقع شخصاً، أبي الذي يكره العراك ويمقته، ها هو يشهر حساماً يمانياً مصقولاً، ويسعى بخطاه المألوفة لبصري، أدركت ان من كان يحتويهم انفصلوا عنه، أحدق نظري بهم، كأني أراهم من خلال ضباب، أعرف أن هذا عبد الناصر، وان هذا ابراهيم، وأن ذاك مازن، وثمة آخر لا أعرفه أبداً، لكنني لا أرى ملامح وجوههم، أو لون أرديتهم، يقف أبي بين يدي مولاي، يقول أبي بصوته وهو صوتي. .

مولاي أتأذن لي بالقتال؟

كـان حـال أبي حـالي، فتـرقـرقت روحي، وتشفشفت، وتبسبست وصار الكيان بما يحتويه اريجاً مزهراً، يـذوب أبي وأذوب معه، يتشجن بالشجن، أبي الذي لم يعرف من الحسين إلا الطواف بضريح رأسه، وتقبيل أعتابـه، واللوذ به عنـد الشدة، ها هو يقف أمامه قبل أن يوجد أو يولد، يراه وجهاً لوجه، تتردد انفاسه في مواجهة أنفاس الحبيب، ولـو تحقق الثمن لتلقى عنه لظي الشمس، وعطش بدلاً منه، وتألم نيابة عنه. عاتبت في خاطري المؤرخين الذين سيجيئون، عاتبت أبا

مخنف، وابن كثير، والدينوري، والطبري، والرواة المجهولين، عاتبتهم لأنهم لم ولن يذكروا أبي وصحبه، ومجيئهم إلى كربلاء، مولاي . . أتأذن لي بالقتال؟

يكرر أبي بينما يرنو إليه الشفيع، العذب، النوراني، ولم أدر الإجابة . .

من أسرار هذا الموقف

. . أعلم وفقك الله وبصرك بما بصرت به، أنا الذي كنت ضالاً فهداني، ونائياً فقربني، وأدناني، وتائهاً فدلني وغياً فعقلني ومعذباً فخفف جروحاتي، أعلم أيها الفطن اللبيب ان الحزن لا يكون الا على ماض، وان الظمأ لا يكون إلا إلى مفقود. وان الشوق لا يكون إلاً إلى غائب كذا الحنين، اعلم أن الظمأ نوعان، حسي ونوعي، فالأول يقع لافتقاد الماء، وان كان ذلك ليس شرطاً بالضرورة، فربما يعب الانسان الماء عباً، ويتعاظم ظمؤه، هذا معروف في بعض حالات المرض، وربما يواجه البحر أو يبحر فيه، البحر ملآن لكن ما فيه لن يسعف الظامىء، أما الظمأ المعنوي فغير متناهٍ، منه الحنين إلى المفقود، إلى الزمن الذي ليس في المتناول، إلى رؤية محبوب غائب ولم يعد في امكاننا إدراك طلاته وطلعاته، إلى لحظة نائية لم يتبق سواها من سنين عديدة، إلى رائحة عبرت حواسنا في زمن

قصى، إلى وقفة عند ناصية منسية لم تدم غير ثــوانٍ إلى صفير قاطرة تمضي، لا نعرف إلى أين أو بمن لكنها تحرك الأسى وترجعنا إلى ذكرى الأحباب البعاد، إلى حفيف فستان، إلى مذاق طعام الفنا طاهيه، اعتدناه ثم رحل عنا، إلى ممشى في حديقة، إلى ظل مئذنة، إلى رائحة بساط عتيق، وربما إلى جلسة ود انتهى وما عاد. قد يكون الظمأ لمعرفة الحقيقة والكنه الغامض، للاطلاع على سر الأشياء وغوامض الموجودات، إلى ما ينقضي، ما يفلت منها، ما يتسرب بين أيدينا، الظمأ حال، ومعنى، تتعدد فيه الأوجه، معرفته لا تتطلب الوعي به لأنه ملازم للنشأة الإنسانية، يبكي المولود إذ يظمأ، قلنا ان الحنين درجة من درجاته، كذا الشوق، والالتياع، كل منهم تشتد وطأته بغياب المفقود، وكل أنواع الظمأ تسكن باللقاء، يهب القلب، يهفو إلى غائب فإذا ورد سكن، تماماً كما يرد الظامىء جدول المياه، والحنين والشوق لا يصح تعلقهما بحاضر، انما متعلقهما دائمًا بغائب، هذا ما استقرت عليه الأحوال، ومـا أدركته العقول وما عبرت عنه المهج. لكن ما جرى لي في كربلاء غريب، رأيت أبي، وكان ممكنـاً لاشتياقي ان يهدأ، ان أعبر جسر الفقد، لكن ما جـرى لي عجيب! كلما احدقت البصر اشتقت أكثر، وفي كل نظرة تجمعني بمن أحب، ألقى الفقد، وزاد عليّ الأمر، فكنت أعي أن ما أراه خيال وان كان حقيقة، انني متفرج، انني أحلم، وهذا من قلة النعم عليّ، ولم أكن بحاجة إلى طول تأمل كي أعي انه قد زج بي إلى

عذاب غريب، لم أنبأ به ولم يخطر لبشر، وأن هذا قدري في المواقف كلها، وأنني كلما قاربت على الري، تبدل أمري فتجدد ظمئي، أمر الله تعالى نبيه أن يقول: ربي زدني علمًا، ومن طلب الزيادة يظل ظامئاً أبداً لا يعرف حداً ولا منتهي. صار شوقي إلى أحبابي دائمًا أبداً، صرت كشارب البحر كلما أزددت شرباً أزددت عطشاً وأضمرت النية أن أسأل، فهذا أمر جديد عليّ، منذ أن بدأت رحلتي بصحبة مولاي، فلم أدر بالضبط ماذا جنيت، وهنا نظر يطول، ومعانٍ تتعدد، أخشى التصريح بها لذا أقتصر . . . فسامحوني!

موقف
الحنين

.. عظم الحنين فاكتمل، صار موقفاً عظيم القدر، منه يلوح الماضي، يقترن بالحزن، جوهره جلل، وعبرته مفجعة، فالحنين ياسادتي أول درجات النسيان، والحنين لا يرد بنفس القوة في كل مرة يهب فيها، يكون في أوله عفياً قوياً، ثم ينقص، ثم يضعف، ثم يهن، ثم يأتي النسيان الذي يلفه ويطويه، الحنين كالدهر لا يرى، له من النهار ساعة الأصيل، ومن الليل أوله، ومن الفصول نذر الخريف، ومن أحوال الحرارة رطوبتها، ومن الأوقات لحظة تواري الشمس خلف الغمام في يوم شتوي، ومن مكنون الذكريات أحلاها وأغلاها، ومن أحوال القلب الخفق المتعب، ومن الورود بقايا

رائحتها، ومن العلوم علم ما كان، أوقفني في ركن قصى من أرض كربلاء فحيل بيني وبين القتال، لم يعد لي إلا الفرجة، فرأيت أبي ومن جاءوا معه، يقاتلون بين يدي الحسين، وكنت واجفاً، فالقلة تواجه الكثرة. وقديماً قال لي أبي. الكثرة غلبت الشجاعة، حوصرت بالحنين وحنيني هنا عجيب، كنت أحن إلى ماض ومستقبل معاً، هذا حالي وأنا في زمن قبل زمني، أرى ميلادي قبل حمل أمي بي، أرى ذهابي قبل مجيئي، وفقدي قبل وجودي، وغيابي قبل حضوري، وأمسي قبل يومي وغدي، حننت إلى لحظات ولت وكنت أعي أنها لم تأت بعد، كنت أرى ما سيجري فيها، وأنني مدركها، وانني سأبكيها بعد فوات الأوان، ولن يذكرها أحد غيري فعمرها مقدر بعمري، ولن يعرفها انسان ولن يسعى من أجلها إلى الديوان، انها في موضع مامنه، وشاء مولاي، وشاءت رئيسة الديوان ان أراها من زمن سابق على زمني، من موقف أرى فيه أبي مقاتلاً بين يدي مولاي، في أول الموقف اكتسحني الحنين فذراني، هفا قلبي إلى صباحات شديدة النأي، أيام الجمع، عطلة أبي الأسبوعية. لن يرتدي حلة العمل الصفراء ويخرج إلى الوزارة، إنما يمضي إلى ضريح الحسين ومسجده، يصلي الفجر، ويعود مع ضوء النهار الأول الينا، في يده اليمني طبق مليء بالفول، وفي اليمني كوب زجاجي كبير مليء باللبن، الفول من رجل مشهور حلبي الأصل، لا يبيع إلا قبل شروق الشمس، ولأحباب الحسين فقط، وعند ظهور الشمس يتوقف وينصرف، مذاق حبات

الفول في فمي، مع أن عصوراً آتية تفصلني عنه، وسنوات مولية تبعـده عني، كذا اللبن الـدسم، يأتي أبي بصحيفـة، «المصري»، كتب اسمها فوق راية خضراء مرفوفة عليها هلال أبيض وثلاثة نجوم، تشعل أمي الموقد، تدفع الكباس مرات، تضع الاناء النحاسي وبداخله قطعة السمن، وعندما تنصهر تماماً، تفرد العجينة، وتنتظر اصفرار الفطيرة، ثم تخرجه على مهل، ترشه بالسكر، بعد الشبع، يجلس أبي مسنداً ظهره إلى الجدار، يشير باصبعه إلى الحروف، اقبع إلى جواره، أتابع أصابعه في حركتها البطيئة، ومنه أعرف القراءة قبل دخولي المدارس، حفظت شكـل الحروف، منـه هو الـذي لم يتلق تعليمًا، هو من خبت احلامه القديمة، وصار لا يدخل الأزهر إلا مصلياً، بعد أن كان يأمل دخوله طالباً للعلم والسر، ربما تنتـابه نشـوة أو روح مرح، يبـدأ في قراءة خبـر لا وجود لـه، يتحـدث عن مقـابـلاتـه مـع دولـة رئيس الـوزراء، والمسؤولين وخبر عن تقديم استقالته إلى وزير الزراعة، لأن صحته لا تسمح له بمواصلة العمل، وخبر عن عدم قبول استقالته. يتقدم نهار الجمعة، يوم العطلة، بطيء الحركـة، يتوضأ، ثم يصحبنا إلى ضريح الحسين، أنا وأخي، يضيق المسجد بالمصلين، يفترشون الحصير والصحف فوق الأرصفة المحيطة، تنتهي الصلاة وفي جبهتي أثر السجود، وفي أنفي رائحة الابسطة العتيقة أو الحصير القديم. ومن قبل ومن بعد رائحة المسجد الظليل والتي لن تتبدد من أعماق حسي حتى

أقضي، ويدخلون بجثماني إلى مسجد سيدي وحبيبي ودليلي الحسين، للصلاة على، تلك وصيتي، تماماً كما كان مسجد الشفيع آخر مكان دخله جثمان أبي ثم خرج منه خروجاً لا دخول بعده، وملفوفاً بغطاء لا سفور يليه، تلك وصيتي يا أحبابي، وياحفاظ نسيم ودي، فبالله لا تنسوا. كنت أتعلق بيد أبي اليمنى، وأخي بيده اليسرى، نطوف بالضريح، نمسك قضبان المقصورة الفضية، نحتوي بالرهبة العمامة الخضراء التي تعلو الشاهد،ويتصارع في أنوفنا مزيج من روائح، للظلال الدائمة رائحة، لبقايا العطور، لانفاس القابعين في الأركان، للرخام رائحة، لاغطية النجف المصنوعة من قماش أحمر، للزجاج الملون الذي تنفذ منه الشمس، زرقاء، خضراء، برتقالية، للفراغ داخل الضريح رائحة، للمصاحف القديمة، للركع السجود، نخرج والنهار منتصف والضوء منكسر، نقف أمام دكان صغير، صغير جداً، يشتري لنا أبي الخروب، يقدمه البائع في طاسات نحاسية، نتمهل في تذوقه، الطعم مسكر عذب، أورثتني هذه الوقفة عشقاً لمشروب الخروب، صار له عندي أثر حسي وأثر لا يدرك أبداً. ولو قصدت الافاضة فيه فلن يكفيني تسويد صفحات طوال غير أني اخشى الاطناب وثقل الاسهاب فاتساءل فقط، أين المذاق القديم، أين؟ لم أدر أن عبير المشروب غامق اللون سيصحبني إلى نهاية عمري المقدر، وان عبيره الرطب سيرعش اغشية قلبي، ويرقرق فؤادي، ويقويني على الحنين المرهف، نمضي إلى فندق

قديم مجاور لضريح الحبيب، إليه يجيء ناس البلدة، يجلس إليهم أبي، يستفسر منهم عن أحوال الأهل، الحي والميت، تجـول عيناي بـالمكان، مـطبعة في نهايـة الفنـاء الفسيـح. . الفسيح؟ ماله الآن لم يعد فسيحاً، ماله ضاق وانكمش بعد ان اشتد عودي وتعددت سنيني، ماله يبدو لي محدوداً، كئيباً، وقد كان مرتع طفولتي، والمكان الذي ينشرح فيه قلبي؟، يجيء الشاي في أكواب صغيرة تضيق عند منتصفها، تتغير وجـوه وتتبدل ملامح، لكن في كل مـرة نرى الحـاج عبده مـدير الفندق، نوبي الأصل، يرتـدي الجلباب البلدي والـطربوش التركي، وعبد المقصود أفندي كاتب الفندق، بدين، يرتدي بدلة ذات صديري أفـرنجي من الصوف، صيفـاً وشتاء لا يغيرها ولا يبدلها، يجلس في مقصـورة زجاجيـة، يرد عـلى التليفـون، يسجـل الـطلبـات التي تخـرج من البـوفيــه إلى الحجرات، يرفـع يده محيياً من حين إلى حـين، في صدر الصالون الداخلي، فـوق أريكه جلديـة يجلس رجل مغـربي ملتحفاً بعباءة من الصوف الأبيض، عظيم اللحيـة، أخضر العينين، أتطلع إليه من بعيد، يقول لأبي أنه خرج من بلاده البعيدة ماشيا على قدميه، وأنه عبر البحار والصحارى، وصل إلى الهند، قضى عمره كله يبحث عن موضع يمكنه الرقاد فيه بهدوء بال وطمأنينة، وأنه بعد أن لف ودار وتزوج عدة مرات أثناء رحيله وطوافه، لم يجد مثل هذا المكان القريب من ضريح الحسين القاهري، سكن الفندق، ومنذ مجيئه البعيد لم يفارقه

أبداً الا للصلاة في المسجد والطواف بمثوى الرأس الشريف، فندق الكلوب العصري القديم، والخادم عمر الأسود بعينيه الفسيحتين ومشيه الصامت، وتحيته الموجزة لأبي، الباب الحديدي المؤدي إلى الفناء، حننت إلى مكان آخر، دكان ترزي بلدي، مكانه ممر ضيق في مواجهة مسجد الحبيب، أرضية الدكان ترتفع عن الطريق مقدار نصف المتر، مكسوة بخشب، الجدران الثلاثة مغطاة بفتارين زجاجية بداخلها قطع قماش، يخلع أبي الحذاء، يتربع في مواجهة الحاج الصاوي الذي يرتدي نظارة طبية ذات اطار معدني تنزلق حتى طرف أنفه، ويغطي أصبعه الوسطى من يده اليمنى بكستبان يحميها من وخز الابرة، يفرد القماش على ركبتيه، قماش القفاطين والجلابيب والعباءات، حننت إلى وجهه، وطاقيته، وحافة الصديري الذي يبدو من تحت قفطانه، إلى البساط الأفغاني القديم، رأيت هذا البساط، لكنني لم أميز ألوانه كما كنت أراها في الزمن القديم، ظلال مبهمة طمست نقوشه عني، كذا جلباب أبي، هلع قلبي عندما نظرت إليه، كنت أعي بالنظر والحنين والشعور ان الجالس هو أبي، أدرك حدود جسده، وهيئته اذ يجلس مطرقاً، غير ان ما دهاني وفراني ان ملامح وجهه في هذه السن، في ذلك العمر غابت عني، راحت مني، لم يسعفني البصر الكليل، وقسا عليّ الحنين إلى الملامح، كيف كانت، كيف ضحكته واطراقته، ولحظة بدئه الحديث، كيف اشارة يده، كيف.. كيف؟ تاهت مني ملامحه، كأنه يسعى في

ليل غميق، أو تحول بيني وبينه غيوم، أو اشتد عليّ قصر نظري، روعت، فصرخت...

مولاي وامامي.. هذا أول النسيان..

لم يجبني، فتجسد لي اليتم الذي بدأ مع رحيل أبي، لكنني أدركت أن من يهيمن على الديوان سمعني، تمنيت لو قربني منه، لكنه لم يحن عليّ، قلت ودمعي يسبق قولي..

اني وجل..

ومرّصمت، ثم أتاني صوت الطاهرة رئيسة الديوان..

لا تكن من القانطين..

عاودت النظر، وعاودني الحنين فرأيت أبي ولم أر ملامح وجهه، أراه ولا أراه.. قلت: ما زاغ البصر وما طغى..

قالت:

أو لم نعمركم، ما يتذكر فيه من تذكر..

قلت:

البصر يغر..

قالت:

اصبر.. لقد وصلت إلى زمن لم تكن بالغه الا بشق الأنفس..

آنسني الصوت الذي صيغ من عبير المنى، وجوهر الحنين، والالفاظ العتيقة الياقوتيـة، من سر النـظر، غير ان الحنـين غمرني ممتزجاً بوحشـة، فقلت بعبارات منهنهـة كأني انقلبت طفلاً..

تلك بداية النسيان..

جاءني صوت خافت غامض كقوس قزح..

لقد نسيت، واليوم تنسى..

قلت دامعاً، مخلخل القلب..

تلك بداية النسيان..

.. صمتوا كلهم عني. انقطعت رئيسة الديوان عني، ولم يطل مولاي عليّ، كدت أسأل، لماذا أمر بما لم أعهده؟ لماذا أرى أبي الآن، وأشم عبيره، وأعي لون الضوء في النهار البعيد، ولافـتات الدكاكين، وملامح بعض المارة ولون معطف تاجر الموبيليا القديمة الذي اعتاد أبي ان يحييه، لماذا أرى هذا كله ولا أرى ملامحه؟ لماذ يخيل إليّ ان حرقة الفراق أخف؟ لماذ أدرك أنه راحل من قديم، مع انه أمامي، لماذا لم أعهد ذلك في أسفار الغربة عندما رافقني مولاي، ولم يتخل عني، كدت انطق الاستفسار، لكن الهاتف الخفي حذرني..

ليس لك ان تسأل عما لم تحط به علمًا.. ألم يخبرك الإمام الحسين بذلك..

أمسكت عليّ أنفاسي، وعدت أحدق إلى أبي، إلى هذه اللحظة التي تشبثت بها، وهذا من عجائب موقف الحنين، تبينت أنه بإمكاني أن أمسك وجدي أو شعوري، فإذا رأيت أو حننت إلى لحظة نائية كان ممكناً لـي أن أثبتها إلى حين. ولو كنت أمر بحزن غامر ثم جاءني من لا أرغب في إظهاره له، أوقف حزني، أو أساي، أو فرحي، فإذا خلوت بنفسي أرسلته من جديد واسترسلت فيه، عاودت النظر، لكنني أيقنت من فقدي ملامح أبي في هذه اللحظة، هذا مـا تأكـدت منه، تكاثفت عليّ الظلال، ولم أدر، أهي ظلال معنوية، أم ظلال حسية، ولما اشتد عليّ حالي وعظم وجلى، تحولت، تغيرت، تبدلت كلي، اصبحت ذلـك الخياط، أصبحت أنـا صاحب الدكان، أتربع بعد صلاة الجمعة، على مهل أسرج الخيط، وأقص القماش بالمقص الكبير المتين القديم الذي لا يوجد مثله الآن، أحمد ربي الذي أعطاني القدرة في هذا العمر على ايلاج الخيط في ثقب الإبرة، وحفظ مقاسات زبائني في دمـاغي، أحمده لأنه أبقى حبال ودي متصلة بزبائني وجلهم من كرام الناس المستورين، مشايخ أزهر، وتجار خان، وأبناء أصول من بلاد بعيدة، ورحم الله الشيخ هاشم الكبير الذي كان يجيء إلى مصر مرتين في السنة من قريته جهينة في أقصى الصعيد، ينزل في فندق البرلمان بالعتبة، كان يجيء لغرضين اثنين لا ثالث لهما، الأول تأدية فرائض الصلاة الخمس في مسجد مولانا وحبيبنا، والثاني لتفصيل ملابسه عندي، كان مهيباً، من رجال

الـزمن الحلو القديم، الـزمن الذي كنت اتـرك فيه دكـاني مفتوحاً، أقضي حاجتي وأرجع لأجد كل شيء كما فارقته، حتى صبي المقهى لا يجرؤ على استرداد فنجانه وكوبه الفارغين إلا بعد عودتي، رحم الله الزمن الجميل، ينظر إليّ أحمد الغيطاني، ينتظر مجيء خلف بك الذي كان سبباً في جريان رزقه، ثم زواجه، وانجابه ولديه، يجلسان صامتين، متأدبين، ربما يشعران بضيق، ربما يـرغبان في الجري، في اللعب، لا يمشي أحمد بدونهما منذ أن عرف جمال المشي، كذا الثاني، أحمد من بقايا الناس الطيبين، لم يكن يفارق الشيخ هاشم الكبير، يصحبه من الفندق إلى المسجد، إلى آل البيت، في الصباح الباكر قبل ذهابه إلى الوزارة يمر به، بعد غياب الشيخ هاشم رحمه الله لم ينقطع أحمد عني، دائمًا يتـقـصّى عن القادمين من جهينة، يصحبهم، يدلهم، ينفق وقته معهم، لو شاء لأصبح تاجراً كبيراً، زميله الذي خرج معه، عمر الماخوت، من أثرياء سوق العتبة الآن، يجيء إلى الحسين في عربة حنطور يجرها جوادان مطهمان، تاجر سمك كبير، عرفني أحمد به عنـدما أشار إليه ذات عصر وأسرع إليه ودعاه إلى كوب شاي عندي ولكن الماخوت اعتذر بضيق وقته، قال أحمد مشيراً إلى العربة ذات الجرس: هل تصدق، خرجنا من البلدة معاً وجئنا إلى مصرفي عربة موتي!. قلت له: لو شئت لاصبحت مثله، قال لي: الدنيا حظوظ.. المهم أن أربـى أولادي الآن وأجنبهم ما عرفته من غُلب، من شقاء. أحمد يقضي عمره في الصحبة،

في ود الآخرين، في الرفقة، في أداء الواجب. عزاء هنا، وفرح هناك، إلى زيارة مريض، لو دنا أجلي وحانت ساعتي، سيكون من أول الساعين في جنازتي، ممن يحملون نعشي، وسيكون ممن يترحمون عليّ، ويتذكرني كلما مر بدكاني، وربما يجيء إلى قبري في الأعياد والمواسم، يجلس صامتاً، خجولاً، ولو تكلم فإن حكاياته لن تنتهي، نبيه، يتذكر أدق التفاصيل، مطلع على الانساب والأصول، مسكين، ولو أنه التحق بالأزهر، لو تلقى تعليمًا، لصار له شأن، جازى الله أولاد الحرام، لكن الله عوضه ذرية صالحة، يقول لي دائمًا انه لو تسول بجوار مقام الحسين فسيفعل حتى يتم ولداه تعليمهما، لكنه يتبع قوله بالدعاء: ربي لا تحوجني إلى مخلوق. تكل يدي، لم تعد الصحة هي الصحة، لكن الدكان أحسن لي من القعدة، أتمنى لو يستردني الله مكاني، أخشى رقدة قد تطول، هنا انتظر أصحابي الذين أأتنس بهم. يجيئون، يقعدون، لا نتبادل كلاماً كثيراً، لكن معهم تتصل الونسة، منذ خمسين سنة لم تتبدل جلستي، يتغير الزبائن، ويتوافد الأغراب عليّ ويمر آلاف المارة بين حدقتي عيني، لكن الدكان على حاله، أما الأيام البعيدة فلا نملك ازاءها إلا الحنين، أما الأيام الخالية من الصحبة فصعبة، لا يكون الانس إلا بالكثرة، والتفرقة أول الوحشة والانكسار، أول الغياب.

آه يا أحمد.. يا غيطاني يا ابن الناس الطيبين..

انظر إليه، كأنه فهم عني، ملت إليه كي أراه، كأنه بعيد

عني، قربت عويناتي، لكنني لم أر ملامحه، ناديته..

يا غيطاني..

شعرت بصوته لكنني لم اسمعه، عجباً، عجباً، رجعت إلى أصلي فاصبحت أنا جمال مرة أخرى، عدت لاهث الأنفاس، كأني ارتقيت منحدراً وعراً بقلب عليل. وعندما اكتمل ابصاري غرب عني أبي، كذا الدكان، وشق عليّ أن أفارقه قبل رؤية ملامحه، لكن الهاتف الخفي أهاب بي، لا فائدة ما من أمل يرجى، وعرفت أن ملامح الانسان تتبدل في كل لحظة، وان الوجه الواحد يحتوي وجوهاً بلا حصر، وانه ما من ملامح ثابتة أبداً، فالتغير يقع مع الموضع والضوء والبرد والحر، والحزن والفرح، والضيق والانشراح، والشرود والتركيز، واننا نقضي الأوقات الطويلة نطالع وجه الحبيب القريب، ونتملى منه، ونحفظ عنه، ونهتز له، ولا ندري أبداً أن ما نراه الآن ليس ما سنطالعه بعد لحظات أو في الغد، وتحجب عنا الغفلة الانسانية حقيقة فحواها ومضمونها، أن تلك الملامح التي نتطلع إليها الآن، والتي يخيل إلينا انها لن تمحي أبداً من أذهاننا وذكرياتنا المثقلة وانها لن تغرب أبداً، هذه الملامح ستبهت يوماً مع الفراق، مع البعاد، ولن يخطر لنا أبداً إننا سنجتهد يوماً في استعادة ملامح أقرب الأقربين ولكن عبثاً، تبهت ذكرى الشيء الذي لم نتخيل يوماً انه سيبهت أبداً، آه، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام، ما من أمل يرجى في استعادة ملامح أبي عند هذه

اللحظة بذاتها، لا . . بل كل اللحظات، بل انني عندما أتذكره أو اتخيله انما استرجع أو اتخيل شيئاً مختلفاً، علامة باهتة تقول، هنا كان أبي، إشارة بعيدة، أما الواقع فقد ولى، إنطوى، هتف بي الهاتف انني رأيت من أبي أقصى ما يمكن لي أن أراه من خلال عيني الحاج الصاوي، صاحب الدكان الذي ولى، الدكان الذي اندثرت معالمه تماماً في زماني الدنيوي، أصبح بوتيكاً يبيع معاجين الأسنان الأجنبية، والألبان، والحلوى، وأدوات الحلاقة، والمجوهرات الصناعية، تبدل كل ما رآه أبي، وما انطبع في حدقتيه، تبدل كما تبدلت ملامحه عندي، ولأن وهن الذكرى وضعفها يهن القلب فقد قوي عليّ الحنين واشتد حتى لم أكن بقادر على الراحة في أي وضع، وقوف أو جلوس، أما الهرب في النوم فلا محل له في الديوان، هبّ عليّ الحنين كرائحة مكان مهجور مغلق ظل المسك مقبوراً فيه سبعة آلاف عام من عمر دنياي، عرفت ان الحنين جالب للمودة والرحمة، ولكن يا أسفي، في غير أوانهما، في غير موضعهما، في غير مقامهما، يغذيان الحنين، والحنين عابر يهب كالخواطر، والخواطر أيضاً عابرة، وليست مقيمة، لا تبق في القلب إلا مقدار هبوبها، لكنها تورث ألماً غير منظور، وأشد الأوجاع ما كان خفياً، هل سمع إنسان بخاطرة اتخذت من قلب سكنا، لا تقيم الخواطر بالقلوب إلا زمن مرورها وهذا زمن لا يمكن قياسه بحساباتنا الإنسانية، قال شيخي الأكبر محي الدين أن لله سفراء إلى قلب عبده يسمون الخواطر، لا

إقامة لهم في قلب العبد إلا زمن مرورهم عليه، فيؤدون ما أرسلوا به إليه من غير إقامة لأن الله خلقهم على صورة رسالة ما أرسلوا به، فكل خاطر عينه، وعرفت أنا أن هبوب الحنين سيكون بمقدار ما أرى. والأهم بمقدار ما بقي حيا في أعماقي من الأيام البعيدة، حننت إلى صحبة مولاي الحسين، شرفت به. إلى ظهوره، إلى أخذه بيدي، إلى عطفه عليّ، إلى الأنس بي، ضريح رأسه مقصدي، أسافر فأطوف به قبل رحيلي. ثم يصبح بؤرة حنيني إلى وطني، وأثر عودتي أهرع إليه فكأنني أجدد إقامتي في داري، عندما سعيت إليه في الديوان تركت كل مابيدي، لم أسند أمري إلى أحد، لم استشر انساناً، ولم أفكر في مولود أو ولد، جئت إلى الديوان متجرداً، خرجت من واقعي إليه كخروج الميت عن أهله وماله، لهذا حق لي الآن الرغبة في رؤيته وشرع لي الأمل في اطلالة منه عليّ، ولكنه لم يهلّ، لم يلح، لم يبد، فلقني الخذلان والهجر، ثم هذا الحنين من جديد فرأيت طريقاً مزدحماً، دققت النظر، رأيت أبي، يصحبني أنا وأخي إلى زيارة ضابط بوليس سابق اسمه أبو حشيش، يقصد بنا عمارة تقع في موضع ما بالقرب من ميدان الجيش، أجهل موقعها الآن، ولا أعرفها على الرغم من انني أذكر طلاءها الأصفر، وسلالمها المرتفعة، وخشب الباب بني اللون والممر الطويل المؤدي إليه، رأيت أبي ورأيت أخي ورأيت نفسي، كنت أمشي خلفهم، لا أتخطاهم ولا أتجاوزهم، في حجرة الاستقبال وقفت في ركن قصى، يدخل

رجل، أنه أبو حشيش، لا أرى ملامحه، أشعر بفرحة أبي وهو يشير إلينا:

جمال ابني الأكبر وهذا اسماعيل الأصغر..

لم أكن أعرف وقتئذ انه الضابط الذي أنقذ أبي، هذا ما عرفته بعد رحيله عنا، كان خالي يتحدث عن طفولة أبي عندما ذكر اسم الضابط الذي آوى أبي في النقطة، ها هو أبي ينظر إليه، كأنه يقول، لولا انك نجيتني من أهلي وناسي، لولا انك أخذت العهد والميثاق على عمي بعدم التعرض لي لما انجبتهما، ولما سعيت، رأيت أبي يصحبنا إلى بيت خلف بك، البيت القديم في الظاهر، فسيح، متعدد الحجرات، صالة متسعة، وسجاد ثمين معلق إلى الجدار، ودولاب كبير من خشب ثمين مزدحم بمجلدات قانون اللغات عربية، واجنبية، أود النظر عن قرب، غير أني أخشى الخطأ غير المقصود فاحجم، رأيت الابن الأكبر لخلف بك يلعب باتوموبيل صغير، يدفعه فيجري، ونحن ننظر إليه ولا نشاركه، رأيت أبي يصحبنا إلى متاجر شارع الموسكي، يشتري لي عربة اطفاء، ولاسماعيل تراماً بداخله رجال ونساء وكمساري يعلق حقيبة جلدية، تلك عادة لم تنقطع إلا مع تقدم الزمن بنا، في العيد الصغير والعيد الكبير لعبة لكل منها، وثوب جديد، رأيت أبي يتمدد في الغرفة الوحيدة، يقول أنه سيأتي لكل منا بطائر يمكنه الطيران في فراغ الحجرة، من حين إلى آخر أسأله عن هذا الطائر العجيب، لكننا لم نره مطلقاً رأيته يصحبنا إلى سينما أوليمبيا في شارع عبد

العزيز، ومنظر في فيلم لا أذكر أسمه، قارب في بحر، وشكوكو يغني، رأيت المدخل الخلفي لصالة السينما الامامية، طلاء الجدران الجيري اصفر، ومعدات اطفاء حمراء اللون معلقة، ورائحة عتيقة، ربما للرطوبة المنبعثة من الممر الذي لا تطوله الشمس أبداً. رأيت سوق الخضار الكبير، ودكان الحاج عمر الماخوت تاجر السمك الكبير، مجرى صغير أمام الدكان تصب فيه مياه الغسيل القادمة من داخله، من جلستنا نرى غطاء الثلاجة الخشبي الثقيل، العمال يرصون قطع الثلج فوق السمك، مناضد نحاسية مستديرة قوائمها معدنية، مزدحمة بأكواب الشربات، والشاي، وكوب صغير تطل منه أعواد النعناع الأخضر، الحاج عمر غارق في الظلال يرتدي الجلباب البلدي والطربوش الأحمر، وعلى مقربة تقف عربته الخاصة، مربوط إليها جوادان أسودان، عليهما سرجان يلمعان، أمام كل منهما جوال مليء بالتبن أو الشعير لست أدري، وفوق منضدة مرتفعة عند مدخل الدكان فونغراف ذو بوق كبير، عاد الحاج عمر الماخوت من الحجاز بعد ان حج للمرة الرابعة، يصغي أبي، ينظر مشوقاً إلى حديث عن زمزم وزحام الحجاج في منى، ويوم الوقوف بعرفات، يصغي أبي، ولم أكن أدري انه يتمنى ويتمنى! أرى لوكاندة البرلمان القديمة المطلة على ميدان العتبة، الطلاء الرمادي، الأقواس التي تحد الممر الذي يقع أمامها، مدخلها ونوافذها المستطيلة، وحجراتها الفسيحة مرتفعة الأسقف، والحاج محمود أحمد من بلدتنا، يرتاح بعد أن

أجريت له عملية جراحية، يزوره أبي مرتين يومياً، يصحبنا إليه، ينظر إلينا، يقول: ما شاء الله يا أحمد. . أولادك كبروا بجوار السرير سلة فيها فطيرة، وإلى جوارها بطيخة كبيرة الحجم، يطلب من أبي أن يقطع من الفطيرة، من البطيخة، أبدي تمنعاً، بينما يسيل لعابي داخل فمي، يشجعني الحاج محمود: خذ يا جمال، أبوك رجل كريم ولا يقول لأ أبداً. رأيت أبي في مكتب سكرتير مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية، ابراهيم أفندي، أرى وجهه، ونقطة مستديرة من وشم أخضر تتصدر جبهته، يقول ان المصاريف خمسون قرشاً، يقول أبي انه سيدفع أول الشهر، السبت القادم، يقول ابراهيم أفندي: بإمكانك ألا تدفع لو قدمت شهادة فقر، يقول أبي: هذا فأل سيء، انها أول مصاريف أدفعها للولد. رأيت ميدان العتبة الخضراء، أبي يصحبني إلى الوزارة، موقف العربات يتوسط ميدان العتبة، عربات شركة الثورن كروفت بطلائها الأخضر والأبيض، أطل عبر النافذة الخلفية، كوبري قصر النيل، ثم ينقطع ما أراه فلا أرى لحظة نزولنا. بالقرب من الميدان الفسيح دكان كواء، تنزل إليه ثلاث درجات تهبط به عن مستوى الشارع، يحمل أبي ياقات بيضاء تخص خلف بك، أرى ابي يصحبني إلى محطة مصر، ينتظر خالي القادم من البلدة، يشير إلى القضبان الحديدية قائلاً، انه خط الصعيد، لا انتبه إلى صوته المضمخ بالحنين في لحظتها انما اعيه بعد ذلك بسنوات طوال، كذا رقاده في ساعات راحته، وتخيله لحركة

القطارات المسافرة، يقول: الآن يتحرك قطار الثامنة، يقف بالمراكز، أما قطار الثانية عشرة فيقف بالمديريات فقط لأنه سريع. الآن يوشك قطار الصحافة على دخول طهطا. الآن يقوم قطار الرابعة والنصف من اسيوط. أرى رصيف المحطة مرة أخرى، يمسك أبي بيدي، يصيح: يا محمد على، يا محمد على، يطل خالي من نافذة القطار، يناول أبي القفة التي تحوي «الزيارة». في صالة البيت الصغير تمزق أمي القماش الذي يغطيها، فوق الخبز الشمسي والبلح المجفف تتمدد أوزة مذبوحة وحمام، يقول خالي: اسلقيهم حتى لا يتعفنوا. ينشط أبي. يخرج، يجيء، يهمس لأمي، راجياً منها ألا تشكو لشقيقها وان تدع أيام إقامته في مصر تمضي بهدوء، وانه سيلبي كل ما تطلبه، ولن يزعق أبداً. يصحب خالي في الليلة الأولى إلى مقهى أحمد عفيفي ليدخن المعسل، وفي اليوم التالي إلى الأضرحة التي تضم مراقد آل البيت، إلى سيدنا الحسين، والسيدة زينب، والسيدة نفيسة، والسيدة رقية. إلى سيدي زين العابدين، يبدو خالي ضجراً، أصفر الوجه، مزموم التقاطيع، ويفهم أبي، ينزل إلى فندق الكلوب العصري، يتجه إليه وجلاً، خائفاً، يكره ويخاف ما سيقدم عليه، لكنه يريد ان يرضى نسيبه، يهمس في اذن عمر الخادم، يرجوه ان يوفر له فص أفيون، وصل نسيبه من البلدة، ثم يكرر عليه: انها ليست له، والله العظيم ليست له ولن تخصه، في البيت يقول لأمي همساً، هل أنت راضية.. لقد أحضرت ما أراده من

أجلك، وتجيب أمي بهزة من رأسها، انها راضية. رأيت أبي يصحبني إلى مقبرة رجل لا أدري اسمه، بناؤها حجري، بابها حديدي، حوض رخامي مليء بالنبات، بالريحان، الوقت عصر، لهذا ظلت رائحة الريحان تعني عندي دائماً الموت، رأيت سطح بيتنا القديم، نخرج من الغرفة، يحملني أبي فوق ذراعيه، ينظر إلى الأفق الملتهب بنيران صفراء ، بألسنة لهب، يقول أبي، هذه النيران ناحية غمرة، وتلك ناحية قصر النيل، يخفق قلبي، هذا يوم يمكنني تحديده، السادس والعشرون من يناير عام ألف وتسعمائة وخمسين وليس لذاكرتي أدنى فضل في معرفته أو الاشارة إليه، أنه يوم معروف دونته كتب التاريخ التي تعي الأحداث الجسام. ها أنا أجلس فوق السطح، يتحدث عن شاب من بلدتنا ضبطوه في البيت يحلب نفسه، يقول ان من يفعل ذلك يجن أو يموت، فوق السطح يحكي أبي عن رجل اسمه العياط موظف في الوزارة، ضايقه، في صوته ألم وشكوى. أقف بين طرفي الملاءة المنشورة فوق حبال الغسيل، أدعو على هذا العياط، يدرك قلبي هم أبي وكربه، غير أنه يقول لي، لا تتمن الأذى لمخلوق، يأبى ان ادعو على الرجل لأن دعوات الأطفال تستجيب لها السماء بسرعة، أدرك تعبه وانه يفضفض عن نفسه لأمي، أراه يمسك مقشة يقتل بها ثعباناً وجده يزحف بجوار دورة المياه، يقول لأمي: هاتي جازاً لنشعل فيه النيران، لا بد ان تضيع رائحته تماماً لأن وليفته ستسعى وراءه بحثاً عنه، أمي تخاف الثعابين والأبراص، إذ

يظهر أحدها يتقدم هو منه، لو طرق الباب طارق على غير انتظار يفتح هو، إذا مشينا في الشارع نكون فوق الرصيف ويمشي هو ناحية عرض الطريق، نأكل فينال هو نصيبه آخرنا، تجلس أمي أمام الباب، ترتدي جلباباً أبيض، تعصب رأسها بمنديل ملون، ننتظر سماع خطاه فوق السلم، لوقع خطاه صوت لم يصدر قط إلا عنه، كذا طرقاته المتتابعة للباب، ها نحن ننتظره في صالة البيت الضيقة، ننتظر خطاه، في صالة بيت الدرب الأصفر الذي انتقلنا إليه زمناً، أرى نفسي بعد عودتي من عملي، أجلس في غرفتي بعد أن صارت لي غرفة تخصني، يرن الجرس، أسمع صوت أبي في الصالة، ربما أقوم إليه، وربما أبقى مكاني حتى يفتح هو الباب، وربما لا يفتحه، أرى نفسي أثناء زياراتي إلى البيت بعد أن صار لي بيت واسرة، اسمع صوته في الصالة يقول: لقد جئت مبكراً كي أرى «جمال»، ها هو بيتي، يرن الجرس رنات متعاقبة، وهذه رنات لم تتردد أبداً بعد سفره الأبدي، يدخل إلى الصالون، يجلس، في نفس المقعد، تطول فترات الصمت. يدعو لي بالستر والنعمة، فأدرك أنه أوشك على الذهاب، يقوم، يقول إنه سيمضي، فأطلب ان يبقى، يقول انه سيزور شخصاً يقيم في مكان قريب، أقول: لكن مشوار عودتك طويل، ستتأخر، يقول أنه سيرجع مبكراً، قبل ان يفتح الباب يقول انه سيدعو لي ولزوجتي ولابني عند مقام الحسين، يرفع يديه، يطلب من العلي القدير ان يهبنا الصحة، والعافية، وان يحوش عنا أولاد

الحرام، وان يمتعنا بنعمه، أقف عند بداية السلم. في هذه اللحظات الأخيرة أظهر الود، أردد، مع السلامة، خذ بالك من نفسك، يجيئني صوته: الله يسلمك يابني، أدخل، أدخل من البرد. أدخل متعباً، وعندما أسند رأسي إلى الوسادة أحن إليه والوم نفسي، كان يجب ان استبقيه، كان يجب ان يقضي ليلته عندي، لا يجب أنّ أدعه ينصرف بسرعة. أقول لنفسي، في المرة القادمة لن أدعه يذهب هكذا، في المرة القادمة. . . ، لكن هذه المرة لم تأت قط، ولم يعرفها عني قط، مرة أخرى أصغي إلى خطواته القديمة، قدومه وذهابه، اقترابه وابتعاده، ثم تغيب عني، اتلفت حائراً حولي، لو اسعى إلى أرجاء الديوان، إلى منزل الأصوات الباقية، افتش عن هذه الخطى، انقب عن اصدائها، لكن كيف واين؟ عند هذا الحد تزايد هجري، وعظم خوائي، وتزايد فقر روحي المدقع، الأصوات لا تستجيب لذاكرتي الغاصة، لا تلبي التمني، أما الحنين فيربك عند اضطرامه، ويجلب النسيان الذي لاراد له، والنسيان يأتي بالجفوة، والجفوة موت، كذا سأنسى يوماً، لقد نسيت واليوم أنسى، انقسم عمري إلى عمرين متباعدين، عمر سمعت فيه خطو أبي، بشرى الألفة والأمان، وعمر جف منها، حننت إلى الانتظار القديم، لم أسمع صوتاً، لم يقع صدى، أدركت انني على شفا حفرة من موقف الخذلان والندم، وان مقامي سيمتد، سيطول، وعذابي متدرج، توسلت وتضرعت، رجوت سيدي ودليلي ان يرجىء دنوي منه لأن قلبي مثقل، وضميري دام،

وعطر ودي منقطع، وحنيني في تكاثف كثيف، آه يا مولاي، ان لم تأخذ بيدي فإلى من أكل أمري، وعلى من أعرض وفائي وغدري، ولمن أبدي حججي واعـذاري، بمساعـدتك رأيت وعرفت، فهل سمعت حنيني ورجائي، هل ترحم قلة حيلتي إزاء الحنـين الوعـر، ذكرت مـا سـطره شيـخ من شيـوخي الاجلاء. ذكرته والحنين متمكن مني، سلام على نسيم كان يصل من الحبيب إلى قلب كلٍّ عنه كل طبيب، نعم! وسلام على روح كان يهدي لعلامة القبول والرضا. صار كرباً بحسرة على مافات وما مضى. بل سلام على ليل كان يلتقي طرفاه بأنس، يفتن عليه الجن والانس، بل سلام عـلى لحظ كان ينتعش به العاثر، ويتجدد بنوره الداثر، بل سلام على حرم كان لا يدب فيه واش ولا رقيب، ولا يحل بـه ظنين ولا قريب، بل سلام على رسـائل كـانت ترد بعتب يحتـرق به القلب، ولطف يحيا به الروح، بـل سلام على علامات كلما طرق خيالها هاجت البلابل، وتقطعت السلاسل، بل سلام على مصافحة كانت الكبد بها تذوب، وعلى معـانقة كـانت الأماني بها تثوب، بل سلام على مجلس، كان ممتلئاً بحديث حلو جرى مع الحبيب، ليس لأحد من الخلق في تعريضـه وتصريحه نصيب، بل سلام على يقظة كانت مقصورة عـلى الشوق إليه والوجد به، بل سلام على رقاد كان الحلم يعرضه ويجلوه بأكثر مما كانت النفوس تتمناه وتهوات.

نؤمِّـل عيشـاً في حيـاة زهيـدةٍ

أضـرت بـأبـدانٍ لـنـا وقـلـب
ومـا خـيرُ عيشٍ لا يـزال مفـزعـاً
بـفـوت نعـيم أو بمـوت حـبيـب

هكذا مدت ميدا، وصار الرسو أبعد الأمور عني، الحنين إلى الحنين يداهمني، حنين إلى ماعشت وعرفت، وحنين إلى حنيني، صرت موزعاً متفرقاً، ولأني، لأني، حق عليّ العقاب، وهنا خفف الله عني ففتح عليّ بتجلٍ..

تجلٍّ عابر

.. هذا تجلٍّ عابر، بمثابة نقطة بين مرحلتين، ولحظة تلتقط فيها الأنفاس بين عذابين، بدأت أطفو إلى أعلى عليين، ولم يساورني الخوف ان أرد أسفـل سافلين، ثبت أمري عند نقطة مرتفعة، حدقت بالبصر الحديد، رأيت عالـمنا الأرضي كله، مستديراً، جميلاً، مبهراً، رأيت داخل شكله الاكرى الأشكال كافة من طول وعرض واستقامة وعوج وتربيع وتثليث، رأيت القارات كلها في تفصيلها وفي جملتها. رأيت البحار وما تحوي والجبال وما تحمل والشهب ومقاصدها، والغمام، رأيت المدن وحركتها، والقرى، والمدقات، والشوارع، والمنحنيات كلها، ثم طاوعني بصري، فأصبحت أرى ما أشاء، ما أتمناه أرغبه، دون ان يغيب عني الكل، كأني أرى الدنيا كلها وفي نفس اللحظة أرى علامة مرور صغيرة عند ناصية مجهـولة، أرى

المدينة، وأرى زهوراً ملونة مطلة من سلة معدنية بيضاء معلقة إلى نافذة من طابقين في إحدى بناياتها. أو منمنمات خشبية تتصدر باب بيت قديم، بل امكنني قراءة عناوين الكتب في واجهات المكتبات، حام بصري وحط كفرخ حمام متعب على المواضع التي عرفتها طفلاً، وصبياً، وشاباً، ثم رجلاً مكتملاً، وهنا أفيض عليّ بقدرة خصتني دون غيري ممن سبقوني في التجلي، وهي قدرتي على رؤية المكان في زمانين أو عدة أزمنة، كل ذلك في نظرة واحدة، وأول من رأيت أبي، ها هو يسعى في صباح باكر والندى يقطر، ها هو يمشي في ظهيرة مزدحمة، رأيته على طريق مهجور يصل بين قريتين، ثم رأيته يصحبني ها هو متجه إلى عمله، إلى المصلى الذي يقع في الطابق التحتي من مبنى الوزارة، إلى الحديقة المجاورة حيث يتمدد عندما يدركه التعب، ها هو في شارع قصر الشوق، صباح شتوي، لا يرتدي إلا جلباباً، ثم يقف في الطريق، وقد أصبح وجوده علامة على الحيرة التي هي في أصل النشأة الانسانية، الدكاكين مغلقة عداد كان السني بائع الخبز والدقيق، يطيل النظر، يعقد يديه خلف ظهره، رجل يمسك الأرغفة الساخنة التي وصلت من الفرن لتوها، ينتظر أبي انصرافه، ثم يتقدم، يلقي السلام بصوت خفيض، وهذا صوت لم أعهده في رحيلي الطويل هذا إلا بعد زواجه وانجابه لي، لنا، يطلب ستة أرغفة، ثم يقول للرجل الملتحي: ويكتمل لك بهذا ثلاثون قرشاً، يقول: لم يتبق الكثير على بداية الشهر، يقول الملتحي: ولا يهمك يا

أحمد، كان الله في العون. عندئذ يتشجع أبي فيطلب خمسة قروش، ويكتمل المبلغ بذلك خمسة وثلاثين. أدقق النظر حتى أرى الشعيرات النامية على يده وعند مفاصل اصبعه، كذلك التصاوير على الورقة المالية الصغيرة. أراه في نفس الوقت، يمد يده بالطبق الفارغ إلى سيد بائع الفول، ها هو راجع إلى البيت، لقد جاءنا بإفطار اليوم، أراه يدخل مقهى، يتوقف عند مدخله، يقول السلام عليكم، فيرد عليه كل الجالسين: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، كنت أرى هذا كله في آن واحد معاً، ولم يكن يغيب عن بصري في ذات الوقت رحيل السحب، وتكون الثلوج، ودوران الأرض حول محورها. وبؤر الزلازل، وهبوب الأعاصير، وهذا أمر يطول شرحه،ويقصر عنه أدق الوصف، رأيته يتقدم من عربة لنقل الموتى، تقف في شارع جانبي بمدينة طهطا، ابتهجت، هذا هو أبي الذي رأيته راحلاً عن البلدة كما رأيته في اسفار الغربة، يقترب أبي من العربة، يسأل سائقها..

من الميت؟

رجل من بنها..

وهل سيدفن في طنطا؟

لا.. في بنها. سأسافر به الليلة..

يقول أبي:

هل تصحبني معك؟

ينظر إليه السائق العجوز، المرهق بالوحدة..

إلى أين؟

نسعى إلى مصر.. إلى لقمة العيش..

يقول الرجل، وقد مال قلبه إلى أبي وعطف..

تعال يا بني.. الطريق طويل وسنسلي بعضنا..

يتقدم عمر الماخوت، يسأل..

ستأخذ مناكم؟؟

يبتسم السائق القديم..

تكفي الصحبة الطيبة..

يعود الماخوت إلى أبي، يبدي ضيقاً، هل يسعيان إلى مصرفي عربة لنقل الموتى؟ هذا شؤم، يقول أبي ان الأعمار بيد الله، ولكل أجل كتاب، وانه شاء ان نرحل إلى مصر راكبين هذه العربة، فهل تخالف مشيئته؟، تابعتهما بنظري، تابعتهما وأنا مفاجأ، في دهشة، تلك هي المرة الأولى التي احاط بالوسيلة التي جاء بها أبي إلى مصر، عربة موتى، عندئذ سمعت صوتاً معاتباً..

وهل اهتممت بالاستفسار يوماً؟

.. آه. مولاي الحسين يطالعني بوجهه النوراني بعد طول غيبة، يحدق إلى بعينين رأيتهما في كربلاء لحظة اصابته بالجرح الحادي عشر. اختلط عليّ الفرح بالشفقة لمحبوبي ومولاي فخررت من حالق صعقا!!

موقف

اللقاء، والتلقي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أفقت يا أحبائي الكرام من صعقي وغشيتي فإذا بي في ميدان باب الحديد، سنة مجهولة، وشهر لا يمكنني تسميته، ويوم مجهول الاسم، لم اعن بالسؤال، وفيما يبدو أن هذا من نذر اليأس، واليأس خطوة تجاه النسيان، أدركت انه يوقفني في موقف اللقاء والتلقي، حيث درجة أخرى من العذاب المنزل بي والذي أتلقاه صاغراً، هذا موقف له علوم جمة، منها علم الجمع والكثرة، وعلم الفرقة، وعلم الطول والعرض، وعلم الأصل والظل، وعلم الزمان، وعلم الظن، وعلم الخشية، وعلم الجهل بما سيأتي. له من لحظات النهار لحظة انبلاج الصبح، ومن الرياح ريح الهبوب، ومن درجات روائح الأزهار الرائحة الولود، وله من الوضع الانساني التحديق، ومن حركات اليد السلام والمصافحة، وله من الأحوال الدهشة والحذر معاً، والمنزل المقابل له في الديوان منزل ما كان وما سيكون، علمت من الالقاء في معارفي انني في زمن لم أولد فيه بعد، وانني ما زلت مشتتاً بين العناصر، ولا وجود حسّياً لي، انما أنا هنا بوعيي القديم، وانني انتظر أبي، وانني سأصير ضاماً، ومضموماً، وقبل أي فرصة للاستفسار تطلعت إلى مدخل الميدان من الناحية القبلية، عربة نقل الموتى، تتوقف، يفتح بابها الايمن،

منه ينزل أبي، عند وقوع بصري عليه اصبحت أنا هو، صرت أنا أبي، صرت المصباح والمشكاة والفتيل والزجاجة واللهب معاً، أشعر بتعب الطريق وغباره وخوف من الأرض التي لم تطأها قدماي من قبل وشوق لزيارة ضريح الحبيب الحسين، وآل البيت وتساؤل عما سيحدث لي واين أكون في مثل هذه الساعة عندما يجيىء الغد، ومن يمر الآن، بالضبط الآن فوق الجسر المؤدي إلى المنحنى في البلدة التي صارت بعيدة، نائية، وحذر من أهل السوء المتربصين بالغرباء، وقبل هذا وبعده ود عميق تجاه السائق العجوز الذي أقتسم طعامه المصرور في منديل أحمر كبير معنا، وطوال الطريق كان يفسح لنا مكاناً إلى جواره فيلملم جسده ليتسع المقعد المستطيل لي وللماخوت صاحبي، وكلما مررنا ببلدة أو مدينة كبيرة عرّفنا بها وحكى لنا عنها، وقص علينا بعضاً مما جرى له فيها، توقف بنا أمام المقاهي الصغيرة التي تقع خارج المدن، ودعانا للنزول، وأقسم ألا ندفع مليمًا واحداً مقابل الشاي وشوربة العدس الساخنة، يقول لنا: انتما مقبلان على غربة، والغربة تحتاج إلى كل مليم خرجتما به من البلدة، كان فرحاً بنا، وطوال الطريق الطويل، لم يتوقف إلا امام دكاكين الحانوتية الذين يعرفهم واحداً، واحداً، يبادلهم السلام والمودة، ويسألهم عن الحال والأولاد، يقدمنا إليهم وكأننا أعز الناس عنده، قال لنا انهم الوحيدون الذين يمكن له التوقف عندهم، وان يأتنس بهم في سفره الطويل ورفقته للموتى حيث لا يقبل أحد، على مشاركته فيه

بعكسنا نحن، كان يشير إلينا ويقول، إخواني في الطريق، رجل طيب ساقته العناية إلينا، خفف عني الضيق، وهوّن بداية غربتي في بلدتي التي لم تسعني وغلقّت ضبات أبوابها في وجهي، وسقتني المر وبخلت عليّ أقرب القلوب. يفتح باب السيارة الأيمن، يقول: ربنا يجعل البركة في سكتكم ويسوق إلى طريقكم أولاد الحلال، قلت: يهون علينا فراقك يا شيخ لكن هكذا حال الدنيا، ثم لاحظت ان الماخوت صامت فخفت ان يظن الرجل الطيب الجفوة منه، قلت: يعني لو نزلت انا وعمر صاحبي إلى بنها كيف نستدل إليك؟ يضحك، في بنها حانوتي واحد، أسأل عنه، ستجدني، قلت: والله ياعم لو فتح الله عليّ ورزقني باللقمة الحلال سأجيء إليك وأزورك. يصافحنا، تهتز عندما يديرها، المح من الطاقة الضيقة طرف النعش المثبت إلى الأرضية، يشير إلينا بذراعه، . . السلامة، استدير إلى الميدان الفسيح، وزحمة الخلق من كل جنس، آه. . كبيرة، واسعة والله يا مصر، سككك لا أول لها ولا آخر، ربنا يقسم لي اللقمة الحلال فيك، ويغنيني عن سؤال الناس، ولا يحوجني إلى أحد، ضروعك كثيرة، والرزق فيك، والأزهر، والعلم، ساعدني يارب على ان احفظ كتابك، وأفهمه، وأكون من قرائه، وغطني بالستر، مبني كبير حوله سور من الحديد، المباني عالية، والشوارع صلبة الأرضية، والناس كثيرون، أسأل واحداً منهم. .

. . وهنا اصبحت أنا أبي، وأصبحت كذلك الرجل الذي

سأله أبي، كنت كاتباً عمومياً في طريقي إلى المحكمة الشرعية لاقعد في نفس المكان الذي لم أغيره منذ عشرين سنة، حافظتي تحت ابطي، أوراق التمغة الرسمية، والورق الأبيض، وعلبة صغيرة في جيبي، فيها الختامة، وقطعة ورق صغيرة، لتجفيف المداد، تقدم مني قروي صعيدي في عمر الشباب. سألني عن مبنى محطة مصر، أشرت إليه بسرعة، فقال: أكثر الله خيرك. بعد أن تجاوزته التفت ورائي، رأيته يتحدث إلى زميل له، فقلت لنفسي، ربما ينزلان مصر أول مرة..

تطلعت بعيني أبي، ولاحظت ان الماخوت قلق، لا يستقر على حال، شارد بفكره فنويت أن اسأله، خشيت ان يكون شيء ما قد ضايقه مني، أردت أن أخفف عنه فسألته، هل تخاف المدينة؟ أم تعمل ألف حساب وحساب لأيام مازالت طي الغيب؟ أم يفكر في الأهل الذين فارقهم في البلدة، رجوته الا يعول الهم، قلت له أن اللقمة لو عزت فسأحرمها على فمي وأعطيها لك، وان الهدمة لو ضاقت سأخلعها عن جسمي وأغطيك بها، قلت له ان من خلقنا لن ينسانا، يارجل كن خلي البال..، قاطعني فجأة..

اسمع يا وِلْد خوي..

نطقت بلسان الماخوت، وهكذا اطلعت على النية المضمرة، والرغبة المؤجلة، قلت بلسانه مؤجلاً الافصاح عن حقيقة ما في باطني..

تعال يا أحمد، نفطر في أي مطعم ونشرب شاي مصر . .

قلت بلسان أبي :

فروشنا قليلة ياماخوت . .

يحدثني قلبي ـ قلب أبي ـ بأن الماخوت يخفي شيئاً عني . .

دخلنا إلى معطم فول وفلافل، أول لقمة تقسم لي في مصر، بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم اجعلها مباركة، من مكاننا نرى الرائح والغادي ومبنى محطة مصر، منه تقوم القطارات وإليه تصل، لا أعرف اليوم الذي سأقف داخلها وانتظر القطار إلى طهطا، إلى جهينة، قلت . .

والله لم يكن هناك «داعي» . .

نظرت بعيني الماخوت، وصار فكره فكري،

« . . بعد أن ننتهي من الأكل سأدفع الحساب، لن اطلب منه مليما، عندئذ ألقى نفسي في لحظة مناسبة أقول له، مع السلامة، لكل منا طريق، لم ولن أصارحه بعنوان المعلم هريدي في حلقة السمك، أنا لا أعرف هذه الحلقة، ولكنني سأسأل، ومن يسأل لا يضل. المعلم قريبي وسيساعدني، ويمكنه ان يلمني في الأيام الأولى، يستضيفني، حتى ان لم يتسع لي بيته أنام في دكانه، وثقل واحد ليس كثقل اثنين، لو ذهبت إليه مع أحمد، ربما قال: لم يكتف بنفسه، انما جاء معه بشخص آخر، وهذه عيوب أهل البلدة وأثقالهم

وبلاويهم، بعد خروجنا من المطعم يبدو أحمد راضياً، لكن قبل أن ينسى العزومة، وقبل ضياع اثرها، أقول..

شوف يابو خاله..

اصغيت بأذني أبي، وبسمعه وبقلبه الذي بدأ يدرك ويفهم، مثل هذه اللهجة تنذر بحسم، بقول فصل، اصغيت إلى الماخوت، يقول انه يجب ان يفارقني هنا، وانه سيقوم بمشوار ربما كان فيه سبب لرزق كلينا، شعرت انني شقي، سأحرم من الصحبة، وسأقابل مصر وحيداً، الماخوت يكذب عليّ أنا من قرصتني الايام ونالت مني، أفهم ذلك، لقد رتب أموره من جهينة، بيّت النية لكنه لم يفضفض لي، ولم أشأ ان اثقل عليه، ولا أن أمنعه ولا أن أحوش عنه رزقه.

ربنا يسهل لك، فرقتك صعبة لاننا مشيناها معاً، لكن رح شوف نفسك..

سمعت الماخوت بأذني ابي..

يوم أو يومين وآجيء اليك..

يكذب عليّ، اين سيجيئني؟ أنا الذي لا سقف يغطيه، ولا عنوان لي، ولا وجهة، يصعب عليّ ان يتركني، يتجعد حلقي ويتمرر ريقي لكنني صافحته، وتمنيت له السلامة، وأوصيته بنفسه خيراً وأنا بحاجة إلى من يوصيني بنفسي، ورجوت الكريم الحليم ان يبعد عنه أولاد الحرام، يهز رأسه،

يعطيني ظهره، ويسرع كأنه يتمنى لو غاب عني بسرعة، نسي حتى ان يصافحني، إلى من الآن؟؟؟ إلى أين؟؟؟ سأمسك نفسي، وأسأل عن الطريق إلى مقام الحسين، أزوره، وأطلب منه الحماية، وان ينتبه إليّ في غربتي، وان يبعد عني أولاد الحرام، فأنا بلا أم، بلا أب، ولا أحد يعنيه أن يسأل عني أو يستقصي أحوالي، ولو ضربني، لو صدمني هذا الترام، أو تلك العربة، فسأروح على نفسي، وينتهي خبري، مقطوع من شجرة، وأنا لا أعرف المكتوب لي فيك يا مصر.

وهنا صرت فراشاً يعمل في متجر أقمشة، ومنيفاتورة، أمضي إلى البوستة لأشتري عدة طوابع، عندما اعترضني قروي، صعيدي، تفوح منه رائحة البلدة طازجة،

ـ أين الطريق إلى الحسين ياعم؟

يبدو حائراً، ولولا اني في عجلة، لضحكت منه، وسليت نفسي، قلت له..

ـ يظهر أنك صعيدي بشوكك..

ينظر إليّ، كأنه لم يفهم، بسرعة اشرت بيدي إلى اتجاه ميدان العتبة المؤدي إلى مقام الحسين..

.. وللحظة عابرة عجبت، وحزنت لأنني خاطبت ابي بمثل هذا اللسان المعوج، ولأنني ضايقته وان لم يبد عليه ذلك، ضقت وان كان لساني لسان غيري، لكن ما الحيلة، وهذا ما

جرى، وهذا ما قدر لي أن أمر به في هذا الموقف الغريب، اصبحت ابي مرة أخرى، تتبعت الرجل بنظري، لا بد أن أسأل شخصاً آخر، لكن بعد ان يختفي هذا عن نظري، ربما يضللني، ألم يضحك مني؟ آه منكم يا ناس مصر. مثلي الآن كعود ذرة في غيط كمون، لا أحد ينتبه إليّ، والشوارع تضيق بمن فيها. ولكنهم بعاد عني بعداً نافراً، الغريب في جهينة إذا ظهر عند الجسر يلتف الناس حوله، ويدلونه، ويستضيفونه إذا اقترب الليل، ويطعمونه إذا كانت ساعة الطعام، لكن كل من أراهم حولي غرباء عن بعضهم، ياه، الميدان فسيح، عريض، سأسأل أي أفندي، لكن قبل السؤ آل لأملأ عيني، فهذا أول ما أراه من مصر، مصر التي لا أعرف المقسوم لي فيها..

«..وهنا وقع لي أمر عجيب، وهو من أسرار هذا الموقف، أنا أبي، اعتدت هذا وانا أعرف كل ما عاناه. لكنني صرت أيضاً كل ما وقع عليه نظره أول مرة، فكنت ولم أكن، انطق في سكوتي، واسكت في نطقي، امشي في وقوفي، واقف في مشيي، صرت صبياً حافي القدمين، ممزق الجلباب، يمسك علبة من الصفيح، وكنت قلب أبي الذي اشفق عليه، صرت حمالاً عجوزاً، هرماً، فوق ظهره جوال ثقيل، يحكم توازنه فوق ظهره، وصرت سائق حنطور يجلس منتظراً، وعندما نظرت إلى هذا الصعيدي الحائر لم أعن بالتوقف عنده، فمنظره لا يدل على أنه سيركب، انه واخد من هؤلاء

الذين يظهرون كل يوم في الميدان، وبعد فترة تطول أو تقصر، ربما يطوف بالمقاهي حاملاً سلة فيها السميط والجبن والبيض، وربما يطوف حاملاً حقيبة بها قمصان، وملابس داخلية، وجوارب قطنية، وأمشاط، وربما يصادفه الحظ فيصير معلمًا له صولة وتطل من فمه أسنان ذهبية، ويمتطي في المساء «كاريتا» يجرها زوج من الخيول المدللة غير التي يمتطيها في الصباح، حظوظ وأرزاق!، صرت السؤال الذي جال بخاطر أبي. ترى كم يأخذ مني لو أوصلني إلى مقام الحسين، وكنت الاجابة أيضاً: لا داعي يا أحمد، ادخر قروشك للايام القادمة، لا أحد يعرف ما ينتظرك. صرت نشالاً يتأهب لركوب الترام، وصرت بصاصاً يرتدي معطفاً وجلباباً، وصرت جندياً نوبياً من الهجانة، وكنت خاطرة في فؤاد أبي، هل يوجد الهجانة في مصر أيضاً؟، وكنت الصورة التي تداعت إلى ذهنه، عشرات الجنود السود يركبون الجمال، يهاجمون القرية، يصرخون، ينادون الرجال بصيغة الأنثى، خشي بيتك، خشي بيتك! صرت امراة ترتدي خلخالاً، صرت بائع ترمس يرص قراطيس الورق في صفوف طويلة فوق عربة اليد الخشبية وكنت المشتري، صرت فاكهياً، وصرت بواباً لفندق عتيق من طابقين، وكنت السؤال: بكم اقضي الليلة فيه إذا ضاق بي الحال؟ صرت بقالاً، وزبوناً وحيداً في مطعم، وجندياً للمرور، وسائقاً لعربة كبيرة وسائقاً لمركبة صغيرة، وراكباً لدراجة، وسائقاً لترام يرتدي الطربوش

والحلة الصفراء يضع منديلاً حول عنقه، صرت سائقاً لقطار يعبر الطريق متجهاً إلى محطة مصر، وفتاة صغيرة تدحرج طوقاً، وشيخاً عجوزاً يسعى ليؤم المصلين، وبائع مخطوطات قديمة وتلميذاً يشوط حجراً صغيراً، وبائعاً لحلوى غزل البنات، وكودية زار، وموسيقياً يحمل عوداً مغطى بقماش أخضر يتجه إلى مقهى لينتظر أصحاب الافراح والحفلات، لعل وعسى. صرت مدخناً لنرجيلة يجلس أمام دكان يبيع علب القطيفة الفارغة، وصباغ أقمشة، وجندياً من قوة المطافىء، ومستشاراً يمشي في تؤدة، وأمرأة شابة جاءت هاربة من قريتها بالوجه البحري، تحاول ان تبدو ثابتة غير وجلة حتى لا يطمع الطامعون، ولا تلفت النظر، صرت عاملاً في البلدية يشعل مصابيح الغاز عند الغروب ويطفئها بعد انبلاج الضوء، وباشا بدينا يرتدي الطربوش وبدلة التشريفة يركب عربة مكشوفة، كنت نسمة هواء رطبة تخفف تعب أبي، كنت حدقتيه المتسعتين. لكل ما يراه بدهشة بكر، كنت الدهشة نفسها، والسؤال الحائر، والاجابة المبهمة، والأحاسيس الغامضة، والخوف الغض، كنت خطاه المسرعة إذ يعبر الطرقات، وخطاه المتمهلة امام كل جديد يراه، وخطاه الساعية، كنت مواطىء قدميه ومدرجة جسره، والأرصفة التي مشى عليها، ومداخل البيوت التي مر بها، وجدران البيوت التي تطلع إليها، وحشائش حديقة الأزبكية التي استراح فوقها، كنت حجراً، ونباتاً، ولافتة منسية، كنت انحناءة،

ولفتة، وايماءه وَجْلى، وانطباعة أولى، وخاطرة، وحيرة، وتساؤلاً، أي تصرف يجب أن يفعله، وأي حديث ينبغي التفوه به، كنت الخفقة المباغتة التي تعقب الخشية، والادراك بأن قسماً من العمر ولى، ولن يرجع، وكنت الحسرة التي تعقب ذلك، كنت الرهبة من غد آت، وكنت وهن الساقين، والظمأ، والتضرع الصامت إلى مرقد الامام الحسين الذي سيصل إليه أول مرة بعد قليل، كنت كل ماعاناه أبي في هذه اللحظات الأولى، وهذا عذابي في ذلك الموقف..

موقف

كان وسيكون..

رأيت المشرق والمغرب معاً
واتكأت على الموضع الذي تغرب فيه الشمس

..وهذا موقف تتنوع فيه الأسباب، تبدو واضحة أحياناً، وتدق مرات أخرى فتخفى، البعض تكون راحته في لقاء محبوبه، والبعض تكون راحته في قهر عدوه، ومنهم من تكون راحته في الفوت، وانا جميع هؤلاء، أحطت علماً قبل الوقوف انني سألقى حبيبين، وسيظل الحبيبان واحداً، وانني سأنعم بالقرب بقدر ما سأشقى بها، لأن كل ما رأيته وسأراه زائل، كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام، سبحان من ألقى بي في ذلك الموقف الغريب، فيه اتخذت

صورة غير صورتي، وهيئة مغايرة لهيئتي، ثم دفع بي إلى زمن غير زمني، لكنه زمن عجيب تتجاوز فيه الأزمنة، فثمة ما أراه من عصر مضى، وشيء آخر أراه لكنه من زمن لم يحن حينه بعد، والزمانان متجاوران، وأنا بين البينين، لا يمكنني إدراك في أي زمن منهما أعيش، وحتى لا يقع اضطراب، ولا يحدث شتات، فأنا حريص عليك ايها المطلع اللبيب، أذن لي إمام المجاهدين، بشرح موجز بسيط، فمن ذلك أقول، انني جئت زمن أبي القديم، جئته وانا رجل تجاوز الخامسة والاربعين، وهذا عمر لم أبلغه عند بدء تدويني لتلك التجليات، سواء في التدوين الأول الذي مزقته، أو التدوين الثاني الذي لم ينته بعد، كما أني لا أدري هل سأصل إلى هذه السن، أم ينقطع حبلي قبل ذلك الحين، ذلك ان ما عشته كان صعباً، كما ان عصري كان قفراً، تراكم عليّ وعلى زمني سوء الحظ فخبنا، وتمكن من ربوع وطني الدنس والانكسار، فيه بارت بضاعتي وكسدت سوقي، كتمت صراخي، وتجنبت انتهاكي، وهدد اللئام عرضي، دار قومي مع الأخف الأسهل، ونأوا عن كنف النزاهة، وظنوا في ابتعادهم عن طوارق الحدثان راحة وأمناً، استكانوا إلى مواقف الخزي والاذلال، وقنعوا بالمتيسر من الحال، وتجاهلوا الحكمة، ونأي الأنس، وانتفت المودة، أما المحاسن فقد فرت، والفضائل كسيحة، والآمال عاثرة، والمستقبل مسدود، اعذرني ايها المطلع اللبيب إذ كدت أفيض واسهب، فتلك مراسم حالي في زمني الأعوج، وهذا حديث

يطول، ويبعدني عن مقصدي، فاسمح لي بالعـودة إلى ما كنت على وشك قصه وروايته. .

كان وسيكون

. .وهكذا وجدت نفسي في الخامسة والأربعين، وأنا لم أولد بعد، كنت مشرفاً على فرن كبير من أفران الحاج الرمالي عندما جاءني رجل من نواحي بلدتي يصحب شاباً حيياً، حديث عهد بمصر، قال لي أنه يرجوني مساعدة أحمد هذا في الالتحاق بعمل، أي عمل يأكل منه «عيش»، يقيه حاجة السؤال، ويبعده عن أولاد الحرام، أحد أقاربه ضحك عليه وسلبه الجنيهات التي أدخرها وجاء بها من البلدة يضمها إلى صدره بعد أن خيط عليها بالابرة والفتلة، وعده هذا القريب الجافي أن ساعده في الانضمام إلى طلبة الأزهر، ثم راوغه، وما طله، حتى كاد أحمد ان يمد يده إلى الناس، لكنه لم يفعل فهو عزيز النفس، تقلب في أعمال مضنية، قاسية، إذ عمل حمالاً يفرغ الاحجار من المراكب في مرسى روض الفرج، وعمـل في دكان عصـير قصب، يكسر الـزعازيـع ويقشـر العيدان، وعمل في مصبغة خيوط، لكنها أعمال لم تدم، كلها مؤقتة، قصيرة الأجل، كما انه طامح إلى بدء تعليمه فلعل وعسى ان يجد فسحة من وقت، حدقت ببصري، وكـان بصري يسمع عني ويرى، فكنت أرى أبي في مخزن القصب عندما يذكر الـرجل ذلـك، ويحل بي تعبـه، وأرى ساقيـه

ترتعشان فوق السقالة الممتدة من شاطىء النيل إلى المركب، فأنوء بثقل الحجارة، وتزكم أنفي رائحة النيلة في المصبغة، حدقت إلى أبي، وكتمت حنيني كما يدرأ الغريب عنه هجمات الحنين إلى وطنه، سألت أبي الذي لم يصبح بعد أبي، أي تعليم يقصد؟ فقال ان الله لو أذن له فسيتعلم القراءة والكتابة ثم يرجع إلى البلدة فقيهاً، وأن اقامته في مصر مؤقتة، مصر بلد كبير، والغريب يضيع فيها، وهو لم يخلق للعيش هنا، إنما غايته العودة إلى جهينة، وهنا وقع لي كشف خاطف، فاطلعت على قبس من خبايا أبي التي لم أقف عليها قط في حياته، رأيت كيف انه عاش منذ يوم وصوله إلى مصر، وحتى يوم رحيله الأخروي وهو يعتبر أن إقامته في مصر موقوتة، نفذت إلى ترددات صوته الخفي، فسمعته في حقب متتالية..

سأتعلم وأرجع..

بعد عملي في الوزارة سأطلب نقلي إلى البلدة..

بعد أن يتعلم الأولاد في مصر سأرجع إلى البلدة..

بعد تخرج جمال.

بعد تخرج اسماعيل، بعد أنْ أطمئن على نوال، والصغير علي..

بعد انتهاء خدمتي لا مقام لي في مصر، الأولاد كبروا

وتشاغلوا عني..

سأسافر لأموت هناك، في الأرض التي خرجت منها، فلا أكلف أولادي عناء دفني وجنازتي، وأرحل خفيفاً لملاقاة ربي..

ولم يتحقق ذلك قط..

عرفت من هذا الكشف ان أبي عاش في مصر أربعين أو خمسين سنة، وان هذا العمر الكامل كان موقوتاً عنده، لهذا لم يختلط بناس مصر، ولم يتزوج من مصر، وصان لهجته الريفية، وسعى دائمًا إلى أهل بلدته في مصر..

وهنا انتهى الكشف الوامض، الخاطف، عدت إلى أبي ملوماً، محسوراً، مشفقاً، لكنني لم أبد ذلك، قلت له انه سيركب في كل يوم عربة يجرها حصان، عربة خضراء مغلقة، لها بابان خلفيان يغلقان، برتاج حديدي، داخلها أرفف فوقها أقفاص الخبز، خبز مستدير، طازج يجب ان يصل إلى البيوت ساخناً، وهذا يقتضي السرعة، والخفة، والأمانة، هذه عربة الرواتب، أما البيوت فلناس من علية القوم، لهم مقام وجاه، ستمضي إليهم ثلاث مرات يومياً، خبز الافطار، والغداء، والعشاء، جولة طويلة، ينتهي اليوم فيرجع إلى الفرن متعباً، مرهقاً، ينتحي ركناً قصياً اذنت له بالنوم فيه عندما علمت انه لم يتخذ مسكناً بعد، قبلت على وعد منه ان يبحث عن غرفة ارتحت، ثم وثقت فيه عندما علمت بجده في البحث عن

مأوى. ثم تبدل خاطري. نظرت إليه باعتباره أبي الذي سيكون، فترقرقت حناناً، غير أني لم أكن قادراً على اخباره من أكون، لم يُسمح لي بذلك، وعندما تشتد رغبتي، وتقوى، حتى اني أشرع في ذلك على الرغم من عدم الاذن لي، وأتأهب لاخباره بحقيقتي وبما هو آت، يثقل عندئد لساني، ويضيع مني الكلام، فيتملكني البهت، وتقوم الحجب امامي، فانقطع عن المستقبل، وتعمى رؤيتي، وتتعثر أفكاري. ثم تبدلت هيئتي، وتغير الموقف عليّ، أصبحت أنا السائق، أمسك الأعنة، واسوط الجوادين، اتوقف امام البيوت حتى ينزل احمد ـ الذي هو أبي ـ يفتح الباب الخلفي، ويتناول الراتب المخصص، كنت ارقب همته وأراه يغض البصر حياء عند الوقوف امام الأبواب المفتوحة، مع انها ابواب خارجية تؤدي إلى حدائق أو أفنية فسيحة، لكن مما لفت نظري وشد انتباهي سؤاله عن اصحاب البيوت، من باشوات، ومشايخ، ورجال علم، وتجار كبار، عن عائلاتهم، وأصهارهم، عن حوادث كبيرة اشتركوا فيها، يبدو لي دائماً وكأنه يضمر أمراً ينوي التعبير عنه لتوه لكنه لا يفعل، يشرق وجهه ويصفو عندما نقترب من ميدان الحسين، في كل مرة يقول..

شاء الله يا حسين..

انه يستجير به ليحميه، ويدرأ عنه الضيق، ويبعد عنه أولاد الحرام، كنت اصغي إلى حكاياته العديدة، عن رجال من جهينة، وأصحاب بيوت كبيرة ملأوا الدنيا هيبة، اختالوا

وزهوا وأفاضوا بكرمهم، وسخـائهم وانحنت لهم الجباه ثم رحلوا، بعضهم لم يخلف اثراً يذكر، وبعضهم خلف ذرية فاسدة، بعد جولتنا اليومية نعوذ معاً، يصحبني إلى الاسطبل، يحل الحصانين، ندفع معاً العربة إلى ركنها، ثم نمشي معاً، يعود بمفرده إلى الفـرن. انه متعب، مـرهق، يأكـل عشاءه البسيط، الذي لا يتغير الا في أحوال عابرة عند ذهابه لزيارة شيخ جاء من جهينة، أو إلى فرح، إذا دعى إلى العشاء يتناول عندئذ المرق، واللحم، والفطير، اما عشاؤه اليومي، فرغيف من خبز الفرن، وقطعة جبن، وقرن فلفل، أو شريحة خيار مخلل، يدخل الفرن، يمتليء فراغها برائحة الوقود والدخان، والعجين المتخمر ونشارة الخشب، يصعد فوق طاولات العجين يقلب الطاولة الأخيرة حتى لا تلتصق بقايـا العجين وذرات الدقيق بجسده وثيابه وهنا وقع لي كشف بطيء، متأنٍ، لكنه ثاقب، نافذ، له عندي تأثير عظيم، وبمقتضاه أطلعت على بعض من خواطره الليلية، والأصوات التي اعتاد سماعهـا، ومنها دبيب فئران، وصرصار ليل، وصفير غامض يتردد في ساعة معينة، وخطوات تقترب ثم تبتعد، وباب يفتح ثم يغلق في مكان ما، ونداء مجهول، وخطوات جندي الدورية، يتأكد من متانة إقفال الدكاكين، وآهة مكتومة، وصفير قطار يعبر الخـلاء البعيد، صـوت الحنين، وآذان الفـجر من المسجد القديم، عسعسة الليل، وأصواته المبهمة التي ربما يجيء بعضها من اعماق الكون السحيق، وتنفس الصبـاح، عندئـذ يقوم

متحسساً طريقه في عتمة الفرن، متجنباً التعثر في الأواني والطاولات والحواجز إلى حوض المياه، كان محظوراً عليه اشعال عود ثقاب، أو أي ضوء خوفاً من الحريق، ولم يكن قادراً على مغادرة الفرن لسببين خشية من اللصوص، ولأن الباب مغلق برتاج خارجي، كان اشبه بالحبس، أما الخواطر الليلية، والتي تبدأ عقب تمدد جسده المنهك، وإغماضه عينيه، وتلاوته الفاتحة ليبعد عنه الشياطين، مرت أمامي خواطره خلال هذا الكشف، وكنت أراها كما تراءت لمخيلة أبي، تماماً، تثير عندي ما أثارته عنده هو لحظة ورودها عليه وفراقها له، فإذا كان التأثير حزناً حزنت حزنه، وإذا كان حنيناً ـ وهذا هو الغالب ـ حننت حنينه، وإذا كان مرحاً وبهجة ابتهجت مثله، وإذا نفّس عن ضيقه بنطقه فجأة: ياكريم، ياحليم، مدد ياحسين. أو غنى فجأة، أو ضرب ركبته بقبضة يده، كنت أفعل مثله، أما عن خواطره فعرفت منها حنينه إلى الجسر، وأيام الدميرة، ورائحة التين العسلية، ومذاق البلح الناضج المتساقط تحت النخيل، وتخيله لنخلاته التي اغترب عنها، وأوان نضجها، وجمعه السوباطات وذهابه بها إلى الرجل الطيب الباشجاويش أحمد حسين الذي انقذه من الموت، وعلى يديه كتب له عمر جديد، اين هم الآن؟ كذا امرأته الطيبة، انعم الله عليها بالخلفة، كل ما يتمنيانه ان ينجبا طفلاً أو طفلة، والله سيدعو لهما عند مقام الحسين بعد صلاة الجمعة القادمة، وعندما تسمح الظروف، ويرضى عنه الحال، ويسافر إلى

جهينة، سيعرج في الطريق إلى بلدة الحاج قنديل شرق النيل، سيشتري صابوناً، وأرزاً. وقماش جلباب للمرأة الطيبة التي حنت عليه كأم، وقدمت إليه اللبن والمخروطة في الصباح، سينزل من القطار في ديرمواس، ويعبر النيل إلى الحاج قنديل، سيسر الرجل لرؤيته، وعندما يجيء ناس البلدة لتحيته سيقول أمامهم، ان عمراً جديداً كتب له على يد عمه أحمد حسين، سيجلس متأدباً بحضرته، ولن يضع ساقاً فوق الأخرى امامه أبـداً إذا جلس على دكة، ولن يمشي أمامه، وعند فراقه سيقبل يده كما يقبل الابن يد ابيه، وعندما يـركب القارب سيقول له بصوت عال، أدع لي. ثم يبحر القارب، ويلف الشاطىء غمام، وتنأى ملامح الطيبين، ومن الملامح يبدو وجه السائق الطيب الذي اصطحبه من طهطا إلى مصر، لو مر ببنها سيميل إليه، بنها قريبة من مصر، قد لا يذكـره الرجـل، سيقول له، أنا من ركبت معك، كان معي صاحبي. ترى ما حال الماخوت الآن؟ لم يره منذ زمن، لكنه سمع بأخباره، يرددها ناس جهينة الذين يلتقون بعد صلاة الجمعة في مقهى العجم أمـام مسجد سيـدنا الحسـين، بعد أن عمـل أيامـاً معدودات مع هريدي تاجر السمك، سمع يوماً قائلاً يقول انه ذاهب إلى معسكرات الجيش الانجليزي في العباسية، فسأله، أتصحبني معك؟، أومأ الرجل، ذهبا إلى هناك حيث أقيم مزاد لبيع أشياء قديمة، هياكل عربات، وصناديق، وملابس، قروش الماخوت قليلة، في نهاية المزاد بقي صندوق زجاجي تطل منه

اسلاك وأنابيب قصيرة، وقال آخرون انه جسم غير معروف من حديد وزجاج، اشتراه الماخوت بجنيه بثلاثين قرشاً، ربما اعجبه منظره، ربما هذه الروح الغريبة لديه، عند باب المعسكر نزل رجل بدين من عربة ملاكي، دخل ثم عاد مسرعاً، لحق الماخوت عند مفارق الطرق، سأل: بكم اشتريت هذه؟ قال الماخوت كذباً ـ هكذا يقولون ـ عشرة جنيهات، قال البدين، خذ. . هذه عشرين، أعرض الماخوت عنه وأولاه ظهره، قال البدين ملهوفاً، هذه أربعين، خطا الماخوت مبتعداً عنه، من هنا إلى هناك اخرج البدين ثلاثمائة جنيه وأقسم أيماناً مغلظة انه لا يمتلك الآن مليمًا فوقها، عندئذ استدار إليه الماخوت وبل طرف اصبعه، عد الثلاثمائة ورقة، ورقة، ورقة، ثم سلم الرجل هذا الجسم الغريب، يوشك الآن ان يصبح أكبر من المعلم هريدي نفسه، يقولون انه اتفق مع فندق كبير على توريد كميات من السمك، دنيا! حظوظ، ربنا يسهله، يبدو قطار قبلي، القاطرة السوداء تنفث البخار والدخان، يتوالى الهدير المتتابع في بداية تحركها، وصفارة غامقة، منذرة ببدء الغربة، أو العودة، رصيف المحطة، كثيراً ما ذهب وتوقف وتابع بعينيه رحيل القطارات، يودعها بعينيه، حتى تختفي العربة الأخيرة عند المنحنى ، ثم يسود الرصيف ذلك الفراغ الذي يعقب رحيل القطارات وانصراف المودعين والحمالين، وموظفي المصلحة، يخلف هذا غصة وحزن عنده. يعود إلى الأزهر، صحن المسجد المحاط بالأروقة، وظلال الأعمدة ساعة

العصارى، وعصافير تطير إلى أعـالي المآذن، وملمس رخـام الأرضيـة، درس العصر، الشيـخ صالـح الجعفري، مهيب الهيئة، يسند ظهره إلى أحد الأعمدة في الباحة المغطاة، يحيطه المريدون، رجل صالح وله بركة وكرامات، جاء من السودان، ولم يفـارق الأزهر إلا للصـلاة في مسجد الحبيب الحسـين، سيجيء يوم يمكنه الانتظام، متابعة الدروس، فهم كـل ما يقال، لكن قبل هذا كله يجب فك الخط، واتقان القراءة، لعن الله الحظ العاثر، لو أنَّ لديه فائضاً من الوقت، على أية حال هذا عمل مؤقت، سيدخر من القروش الأربعة قرشاً كل يوم، حتى يمكنه أن ينفق على نفسه، سيعيش بأقل القليل، والحمد لله، لا أحد وراءه، ولا أحد امامه، ما من مسؤولية تثقل عاتقه إلا مسؤولية نفسـه، تختلط الشوارع المؤديـة إلى الأزهر، إلى الحسين، إلى جهينة البعيدة، تتـداخل المقـاهي ودكاكين المانيفاتورة، والسجاد، والنحاس، والفضة المصقولة، والفلاحات الجالسات على الرصيف، أمامهن اقفاص الفراخ، وأواني الجبن القريش، وقرب مملوءة باللبن الرائب، وأكوام الـبصـل الأخضر، وأقـراص الحـلوى، والمـلاءات اللف، الأرداف واضحة المعالم، البراقع، اليشمك الذهبي، وجه مستدير وعينان مكحولتان، نساء مصر، آه منهن، يوماً ما سيكون له بيت، وامرأة تنتظر عودته، واطفال يتهللون عندمـا يرونـه، يتعلقون به، يمتطون ظهره، يحبو بهم، يصحبهم إلى الحدائق، إلى الحسين، إلى مقهى الـعجم، إلى المتحف، إلى المعارف

والأحباب، اطفال لا يعرفون الشقاء الذي عرفه، ولا الغلب الذي ذاقه، إذا طلبوا منه ورغبوا اتى إليهم بما يطلبون وبما يرغبون..

عند هذا الحد انتهى الكشف، أغمض أبي عينيه نائمًا، ولم يكن من اسرار هذا الكشف الولوج إلى احلامه، أو الاطلاع على مكنوناتها، انتهى الكشف وعندي ألم عظيم، آخر صور ترد عليه قبل نومه، قبل انحلال يقظته، رؤى قوامها بيت، فيه امرأة، وأطفال، وباب يغلق عليهم معه، ورائحة طعام تنتظره بعد رجوعه من عمل لم يتضح له..، صرت في وجد غريب، معذب لي، قاس برقته عليّ، وبعد انتهاء الكشف دهمني فوق هذا خوف عجيب، خاصة وانني لم أدر الخطوة التالية من ذلك الموقف. تعاظم خوفي وتسربت البرودة الثلجية إلى أعماقي، تخلخل عضدي، واضطرب داخلي، فكأني اقف عند نهاية الدنيا وأوشك على الفقد الذي لاراد بعده، وعند هذا الحد الذي كدت أتهاوى معه، نوديت بصوت هو صوت محبوبة قديمة لي تأنيساً لي، فحننت إلى ذلك وتعجبت من سماع هذا اللسان في ذلك الموقف، ولم أدر المراد بي، هدأت، ولكن لم يخف عذابي، ولم تهن وحدتي، بعد حين لم أدر مقداره بان لي عبد الناصر، وعرفت انه في هجاج مروع، وانه يقاسي محناجمة، وانه مطلوب، وانهم جادون في اثره. وانه يسعى إلى الاختفاء وما من معين. انه مهجور من صحبه، من العصر الذي صال فيه وجال، وقف وشمخ، أقام وشيد، حدقت،

فرأيته يمشي في الشارع المؤدي إلى الفرن، إلى حيث يعمل أبي، وعرفت أن لعبد الناصر في هذا الموقف وجودين، فوجود طبيعي، من حيث انه طالب في مدرسة ثانوية بالاسكندرية، يرتدي الطربوش والبدلة، نحيف، طويل القامة، كبير الأنف، اذن . . استطيع تحديد العلامة الزمنية، النصف الأول من الثلاثينيات، لكنني رددت خائباً عندما تذكرت ان لكل موجود في هذا الموقف زمانه، وان الأزمنة متجاورة، متداخلة، فلا حد، ولا غد ولا أمس، ولا فصل، لاقبل ولا بعد لا علامة، ولا ظاهرة طبيعية، ولا حدث بعينه يمكن اتخاذه علامة، لهذا لم أعرف ابدا كم مضى على ابي في مصر مع اني رأيت لحظة وصوله، وعانيت كل ما عاناه جملة وليس تفصيلاً، ولا شك ان ذلك لحكمة تخفى عليّ ولأمر يصعب وصولي إلى كنهه. أما الوجود الآخر لعبد الناصر، فوجوده في تلك التجليات وهذا ملتقى مليء بالأسرار، رأيته يتوقف أمام الفرن والوقت غروبي، والسماء البادية فوق البيوت حمراء اللون، والليل متأهب، قريب، ويخرج إليه أبي، أنه يعرفه، وآية ذلك انه هش له، وصافحه، ثم سأله . .

جائع؟

ها هو يهز رأسه، يمشي ابي إلى جواره، اتبين في هذه اللحظة حفرة طويلة ممتدة اسفل الجدران يجري فيها ماء صافٍ لا تشوبه شائبة، يطلب أبي منه ان ينتظره تحت عمود ينتهي بمصباح غازي لم يضأ بعد، يتجه أبي إلى دكان يبيع

الفول والطعمية، انه يعرف البائع ويناديه باسمه غير أني لم أسمعه، يطلب منه أبي ان يتوصى به لأن ضيفاً عزيزاً نزل عليه من البلدة، لم يشأ أبي أن يفصح عن اسم ضيفه، أو درجة قرابته أو معرفته به، إذن.. يعرف أبي ما أعرفه، يعرف أنه مطارد، وان اثره مقتفى، وان في صحبته خطراً، وبالرغم من أن حظي عند هذه النقطة من الموقف كان المراقبة، والرؤية لا غير، فقد أتيح لي استعادة بعض مما عرفته، كان أبي يتأثر ويحزن كلما سمع عن شخص كان عزيزاً ونال الزمن منه، أو تبدل عليه الحال، فنسيه قومه، وهجره الذين التفوا حوله يوماً، استعدت أسفه عندما جاء وزير سابق ـ نسيت اسمه الذي أخبرني به ـ كان يقف بمدخل مكتب الاستعلامات متعباً بشيخوخته، متكئاً إلى عصاه، يطلبون منه ابراز بطاقته، تصادف دخول أبي، رآه فعرفه، كان أبي بعد تقدمه في العمر، ينادونه: ياعم أحمد، ولا يسندون إليه عملاً بعينه، صار يقضي وقته كله في المصلى، إما مصلياً، أو متمدداً فوق الأرض، راحلاً بعينيه عبر السقف إلى مجهول بعيد وكان بعض الموظفين القدامى يطلبون منه أن يقرأ لهم الفاتحة عند مقام الحسين، عرف عنه في تلك السنين التي كانت اخيرة بأنه من أحباب الحسين، يقول أبي لموظفي الاستعلامات: الا تعرفون معالي الوزير.. تفضل.. تفضل ياباشا، ينظر إليه الرجل متسائلاً، وهل تعرفني يا بني؟. يخاطب أبي قائلاً: يا بني، مع انه يتجاوزه عمراً، لكن هذا

شأن بعض من تولـوا المسؤولية زمناً مديداً، يقول أبي بصوت مرتفع، صورتك معلقة فوق في مكتب الوزير. . من لا يعرف معاليك؟، كان أبي يقول لي عند نهايـة روايته متأسفاً: تصور. . لم يعرفه أحد، دنيا!، كان يبدو عليه الأسف بعد عودته من الذكرى السنوية لـوفاة زعيم سياسي قديم من الصعيد، يقول لي: تصور. . ان الذكرى لا يحضرها إلا ثلاثة أشخاص، حتى أولاده لا يحضرون، وبعد أن تموت زوجته فلن تقام أبـداً. ها هـو أبي يستديـر حامـلاً أرغفة ساخنة، وجبـنا، وحلوى طحينية، يتجه إلى عبد الناصر، يمشيان في الظل، يقول أبي لنفسه ـ وقد وقفت على حديثه الصامت ـ أنه كان مهدداً دائماً بالفصل، كان باستطاعة أي مدير ان يفصله لأتفه سبب، أنْ يحرمـه من رزقه، ورزق عيالـه، لكن بعد ان جاء عبد الناصر انتهى ذلك، يقـول لنفسه كما قال لي مراراً بنفس الالفاظ، نفس الايقاع، لقد انصف عبد الناصر الضعيف من القوى والفقير من الغنى، ولو لم يفعل ذلك لكفاه، انه يمشي الآن، عنده تأثر عظيم، فعبد الناصر الذي لن يراه الا من خلال زحام المواكب، مخذول، مطارد، الزمن الذي أراه زمن الثلاثينيات، هذا مؤكد، فأبي وحيد، لـم يتزوج بعد، وهو يعمل في الفرن، وراتبه اليومي أربعة قروش لا تزيد وإنما قد تنقص إذا أخطأ. أما عبـد الناصر فيمت إلى زمن بعيد سيأتي، يستدعي أبي ما تم في المستقبل كأنه ماضٍ، فيصير كل ما سيحدث قد حدث، وهذا

غريب عليّ، وخارج طاقة مفاهيمي المحدودة. ومداركي الانسانية، ولم أفهم أبداً، كيف يمت كل منهما إلى زمن مختلف، ويمشيان معاً، يتحدثان، ويأكلان، وينظر كل منهما إلى الآخر، ولأن خطاهما تتتابع، فلم يعد بوسعي الا تأجيل التساؤلات، وتراكم الدهشة والروع، ها هو يصحب عبد الناصر إلى حجرة صغيرة تقع في بيت قديم فناؤه فسيح. تقف فيه عربة قديمة مهملة تغطيها شبكة صيد عريضة يتخلل اطرافها قواقع بحرية. تضيء المدخل لمبة صغيرة، يتراقص فتيلها المشتعل عند أول هبة هواء، دخلا إلى البيت، تراجعت إلى مدخل الحارة، حارة الانشاء، اتيح لي ان اطلع على اسم الحارة، أما متى سكن أبي هذه الحجرة كيف استأجرها؟، فهذا ما لم أقف له على أجوبة، ولو شاء سادتي وأسيادي في الديوان اطلاعي لاطلعوني، وهنا استغدت امراً حيرني، فبعد رحيل أبي عن دنيانا تلك، اقتضى الأمر استخراج أوراق عديدة حتى يتم صرف المعاش الحكومي، وقام أخي اسماعيل بذلك كله لغيابي وسفري المشؤوم، وكانت إحدى البطاقات القديمة تحمل عنواناً لم نطلع عليه من قبل، ولم ينم إلى علمنا أن والدي أقام به، حارة الانشاء بمنطقة السيدة زينب، حرنا، متى آوى ابي إلى ذلك المكان الذي لم يذكره لنا قط، متى رقد فوق هذا الموضع، ومتى رآه بعينيه اللتين أدركهما الآن البلى وصارا فوهتين مظلمتين، هو لم يذكر لنا ذلك، ولم يطلعنا على تلك الأيام التي قضاها في حارة الانشاء، وكان بعض من تقصيرنا

اننا لم نسأله، حاولت تفسير الأمر لخاطري فقلت انه ربما عنوان أحد أقاربه أو معارفه، كتبه أبي في بطاقته القديمة تلك عندما كان بلا عنوان، بلا سكن يخصه، بلا باب يحمل مفتاح رتاجه ويغلقه على نفسه، ويرقد خلفه. لكن ها هو إمامي في نفس ذلك العنوان، نفس الحجرة، كنت بمعزل عنهما، أراهما ولا يرياني، اسمعهما ولا يسمعان تردد أنفاسي، ولا يشمان رائحتي، انتبهت إلى انني أجلس بينهما، غير أن وضعي عجيب، فأنا لا ألامس الأرض بمقعدي، انما أتربع في الهواء، في الفراغ، واتكيء على لا شيء، تبدو الحجرة كابية لخلوها من الأثاث تماماً. دق أبي في الجدار ثلاثة مسامير إلى الجدار، علق إليها جلباباً وصديرياً وسروالاً طويلاً، فوق الأرض فرش سجادة منسوجة من بقايا قماش قديم، عند طرفها الايمن اسند حذاءه، كان يسند إليه رأسه كوسادة، يبدو خجلاً من شحوب المكان وضيقه وعتمته، لكن عبد الناصر يبدو راضياً، يتخاطب مع أبي بالنظر، فلا صوت يسمع لهما، ولا تهتز شفاهها لمخارج الحروف، وكنت افهم عنهما، عبد الناصر يقول ان الغربة انهكته، لم يتخيل يوماً انه سيقاسي الغربة بأرض تقع على ضفتي النيل، يجاوبه أبي بالنظر، يطمئنه بدون نطق، يقول عبد الناصر ان الشدة التي يقاسيها الآن فاقت كل ماعرفه، لم يتصور أبداً ان تقع عيناه يوماً على هذا العلم في فضاء مصر، ويقرأ في صحيفة مصرية، يومية، إعلاناً يدعو ناس مصر إلى قضاء العطلة الصيفية في دولة اسرائيل، قرب الميدان الذي

مازال اسمه التحرير توقف أمام شركة سياحية، ينطق اسمها بالانجليزية، ويكتب بالحروف العربية، قرأ لافتة معلقة على الواجهة الزجاجية، اسعار الرحلات للفرد وللوفود الجماعية. مواعيد قيام الاوتوبيسات المكيفة، والطائرات، من تل أبيب إلى القاهرة ومن القاهرة إلى تل أبيب. يشير أبي إلى الطعام حتى لا يتوقف ضيفه، بينما يبطىء من المضغ، يأكل القليل خشية الا تكفيهما الكمية، كما انه لن ينهي طعامه إلا إذا اكتفى الضيف. من الممكن ان يتحمل قلة الشبع، ان ينام بجوعه، ولكن الضيف يجب ان يشبع، يتابع عبد الناصر التعبير عن مكنون نفسه بالنظر فيقول انه عندما جاء إلى ذلك الزمان وجد الناس في دهشة، وبعد دخوله السجن، وهروبه منه وتجوله بين الخلق رصد شحوب هذه الدهشة، بل ان الكثيرين اعتادوا تلك الأخبار عن سفرهم، وعن وجودهم، وقراءة ومشاهدة بعض المسؤولين هنا يشيدون بالعلاقات الودية، . قلت عندئذ من موضعي وبالنطق: بعض هؤلاء انت تعرفهم، كانوا على مقربة منك. ولاحظت ان صوتي لم يصل إليهما فلزمت السكوت وان لاحظت إطراقه أبي، وخيل لي أنه يود لو قال ما قلته لكنه آثر ألاَّ يؤلم الرجل في محنته، ولما فهمت ذلك لمت رعونتي. يقول عبد الناصر: لم يتبعني إلا قلة. يقول أبي: القلة أول حد الكثرة. يقول عبد الناصر: الناس عابسة وجوههم الملامح تغيرت. يقول أبي: هذا زمن صعب، يقول عبد الناصر: في جولاتي القديمة كنت أرقب أقدام المارة، أراهم

يرتدون الأحذية، الحفاء قليل، فينشرح صدري وأنام مرتاحاً، أعرف انني على الطريق السليم وان تعاظمت الصعاب. يقول أبي: حقاً.. لقد انصفت أهل الفقر من أهل الغنى. يقول عبد الناصر: اليوم عندما كنت في الطريق إليك رأيت امرأة ترتدي جلباباً اسود، تحمل رضيعاً، وتمسك بيد طفلاً صغيراً ربما في الخامسة، ربما في السادسة، والطفل حافي القدمين بينما الشمس متقدة، والأرض ملتهبة.. تردى الحال، اني غريب هاهنا. يبسط أبي يده ملامساً موضع قلبه: وأنا غريب مثلك، ولكن الغريب للغريب نسيب، وبالغريب والغريب معاً تنتفي الغربة. يتنهد عبد الناصر بالأنفاس، يتساءل: كيف جرى هذا كله؟. عندئذ لم استطع أن امنع نفسي عن النطق فقلت: تركت لنا خليفة السوء، انت الذي اخترته، خليفتك هو الذي قوض عهدك، كررت: انت الذي اخترته، لم يسمعني، وأضمرت السؤال، حتى إذا مازالت الحجب بيني وبينه واجهته به، وطلبت الاجابة، رحت أتابع أبي عندما قام لينفض التراب عن السجادة، يفردها، يرجوه بالنظر أن يتمدد، يسأل عبد الناصر: وأنت.. اين ستنام؟، يقول أبي أنه اعتاد الشقاء طوال عمره، ولا شيء يريحه مثل الأرض. يقول عبد الناصر: نم إلى جواري. لكن أبي يرجوه أن ينام فغدا ينتظرهم سفر عظيم. عظيم هكذا وصف أبي ذلك الرحيل، ولم أقف على سر، ولم أدركنه الطريق. ولم أعلم الوجهة، وان داخلني خوف من هجوم مفاجيء، يقول أبي: إذا قلقت ليلاً أو احتجت أي

شيء أيقظني ولا تتردد، لا يجيب انما يتمدد صامتاً، متأثراً بما يبديه أبي تجاهه، لا يزال في العالم خير، هذا رجل فقير لم يكن باستطاعته مد يده لملامسة يدي. كان نائياً عني وكنت بمعزل عنه. وها هو يعرض نفسه لخطر جسيم غير مبال، يوفر لي اللقمة والمأوى، أما الذين عرفوني، وسعوا للقرب مني، واقتفوا خطاي، فيستقصون اخباري، ويقتفون أثري، يريدون اقتلاع عودتي ونفيي عن عصر راق لهم، يتمدد عبد الناصر، تبدو قامته أطول في رقدته مما تبدو في وقوفه، نام ونام أبي، ولم أنم، ولم يطرق الوسن جفني وهنا فائدة لا بد من ابرازها، فمنذ رضاء الديوان عني، والسماح لي، فقد انتفت عني بعض الصفات الجسمية المصاحبة للطبيعة الانسانية ومن ذلك دوام يقظتي وانتفاء النوم عني، فلا نوم ولا اغفاءة انما يقظة دائمة يتوهج خلالها وعي كأنه ضوء ساطع، وهذا ما لم يعانه بشر وما لم يعرفه أنس من قبل، ربما يشحب هذا الضوء ويهن لكنه لا ينقطع، أما النقلات فمفاجئة. وهنا يجب ان أفصح قليلاً أيها القارىء الكريم والولي الحميم، فالحواجز كلها مرفوعة أمامي منذ ولوجي الديوان. فلا زمان، ولا مكان، ولا حاجز حسياً، ولا حاجز شعورياً، ولا حاجز أرضياً ولا فلكياً، ومن ذلك انتقالي بيسر مع أنفاسي، من حال إلى حال ومن زمن إلى زمن ومن حيز إلى حيز مع تغير أنفاسي، فمع شهيقي انتقل إلى عصر قادم، وعند زفيري أصير إلى زمن مضى، أو أكون طفلاً ثم أصبح شيخاً، وسبحان من هو كل يوم في شأن،

سنفرغ لكم أيها الثقلان. لكن يجب التنويه والاشارة إلى أن رغبتي أو قدرتي ليستا المحرك لانتقالي أو مشاهدتي، انما كنت مستسلمًا لمن شاء ربي ان تكون مقاديري بيده، فحينا يعذبني، وحيناً ينعمني، ولكن أبيح لي كل ما يباح للخواطر والمشاعر الانسانية، ومن ذلك التساؤل، والندم، والدهشة، والخوف، والحزن، والحنين، والروع، والفزع، والألم الحسي، والمعنوي، كذا الفضول، والضيق، والسخط، وسائر الأحوال التي تعرفها الطبيعة البشرية، وهكذا لم أعرف النوم في تلك الليلة لأن النوم غريب عني في رحيلي الدائم هذا. بقيت جالساً معلقاً في الفراغ مشرفاً على رقاد جسديهما مطلاً عليهما، أحصي أنفاسهما، واصغي إلى الليل، صرت بمثابة الحارس لنومهما من كل طارق مفاجيء، أو كابوس مفزع. أو حلم ثقيل، أو ألم يقض مضجعهما. كان أخشى ما أخشاه هجمة مباغتة، فانبههما قبل فوات الأوان، غير أن سهري عليهما ولى، كذا حرصي، كما ينتهي كل شيء، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام، شقشق الفجر وتنفس، وها هو الصبح يعسعس، يقوم أبي محاذراً انقاذ ضيفه، يخرج، ثم يرجع حاملاً علبة من الصفيح مملوءة باللبن الساخن، يسكب محتوياتها في كوبين زجاجيين، برفق يهز كتف عبد الناصر. يخرجان معاً قبل أن يكثر المارة في الطرقات، ويتعاظم السعي والخطر، تبعتهما، ونالت مني الدهشة عندما خطوا وخطوت خلفهما، خرجا وخرجت وراءهما، زالت حارة الانشاء، اختفت البيوت،

تبدلت الأرض غير الأرض، والعصر بغير العصر، تلك أرض مجدبة مؤدية إلى كربلاء، إلى الكوفة، وعندما حاذيتهما لأتملى من ملامحهما، رأيتها مصبوغة بملامح هذا الزمن البعيد، فلكل عصر قسمات بشرية، عرفت ان هذا الموقف آذن بانتهاء، والسلام..

* * *

موقف

الندم

فلا يخوضَن غمرات هذا الجهاد
إلا موفق سعيد يمشي
على الأرض حياً وهو شهيد

.. عندما وصل أبي بصحبة عبد الناصر إلى زمن الكوفة القديم كان مفصولاً من عمله، فاقداً لمورد رزقه الوحيد، وسبب ذلك خطاب وصل إليه من أحد أقاربه في البلدة، كتب على المظروف هذا العنوان: إلى حضرة المحترم الرمالي بك صاحب أفران الرمالي، ومنه إلى المحترم أحمد الغيطاني. تساءل البك بدهشة: من يكون هذا؟ فقيل له أنه عامل بفرن الخبز البلدي، فغضب غضباً عظيمًا، وتعجب من تلك الوقاحة، كيف يجروء عامل فقير ان يجعل منه وسيطاً، يتلقى رسائله عن طريقه، ثم طلب من المعلم ان يسوي حساب الغيطاني هذا،

وأن يخلي سبيله. قال أبي لعبد الناصر وبيوت الكوفة تلوح من بعد، والنخيل حولها باسق، والله يا سيدي لم أعط عنواني لأي انسان. ولكنه تدبير من عمي لأخسر عملي وأفقد رزقي. قال لعبد الناصر: أحسن سنيني تلك التي قضيتها بالفرن، قال عبد الناصر: كل ماضٍ يبدو لمن عاشه جميلاً حتى وإن امتلأ بالصعاب. يبدو أبي حزيناً، يقول عبد الناصر مخففاً: ولكن لولا الوظيفة لما تزوجت، ولما أنجبت ذريتك التي عاش منها أربعة. لاحت الحسرة في صوت أبي: أربعة.. ماذا فعل لي أولادي الأربعة؟. قال عبد الناصر: أنت ربيتهم أحسن تربية. وعلمتهم، لا تتأسف يا أحمد على مافات واغفر لهم وسامحهم. قال أبي متداركاً: لا أتحامل ولكنني أعاتب، وقبل خروجي من الدنيا، قلت لهم سامحوني. فسامحوني، ومن أسفي أن أنفاسي لم تسعفني، كذا وهن قلبي، فلم انطق بغفراني لهم، ولم يسمعوا الكلمة مني، ويعلم ربي أني حافظ حتى الآن ودهم، ومن حين إلى حين أرجو الذهاب اليهم فأطوف بهم، أراهم ولا يرونني، وأسمع منهم ولا يسمعونني لم يكن أبني جمال الأكبر حاضراً لحظة فراقي الدنيا، وكنت مستوحشاً ذلك الرحيل الذي لا أدري إلى أين يؤدي بي. وعند مفارقة روحي لجسدي زعقت زعقة ايقظته من رقاده في هذا البلد الغريب، البعيد. غير أني هدهدت روحه كما كنت أهدهده صغيراً. طمأنته، فعاد إلى سباته. يتنهد أبي: الأولاد.. والله وحشوني الأولاد. وهنا جريت حتى حاذيته. أوليته وجهي. صحت:

انظر. اني بجانبك. غير أنه لم يسمعني ولم يرني. فـأطل دمعي، وعدت أسعى في أثرهما وألقى في معارفي أن من اسرار هذا الموقف ذلك الحاجز بيني وبينهما. أراهما واسمعهما، ولكنهما لا يشعران بي، وان حالي هوكوني تابعاً. لا أتقدمهما أبداً، وان كل ما أراه سيضاء بتلك الدرجة من النور الواهن، الشاحب خفيف الحمرة والـذي يتخلل السحب العـاليـة أثـر مغيب الشمس مباشرة. وان الرائحة المصاحبة لي في ذلك الموقف، رائحة المطر العتيق الـذي مضى على نـزوله زمـن وتجمعت قطراته في شقوق رخوة أو حنايا نبات، وتلك رائحة مؤلمة للشجون، مثيرة لما مضى، وان كل ما أسمعه يمت إلى مقام الصبا، أما علوم هذا الموقف فكلها مندثرة، ملغزة، ولا مقابل لها في عالم الأسماء المعهود لنا، يقول عبد الناصر: انني حزين مثلك، حزين لأن من أستأمنته خانني، ومن وثقت به نقض عهـودي. وهنا يقـول أبي بحزم عجيب: أتيت لنـا بخليفة السوء. يصمت عبد الناصر ثم يقول: ابتعدنا كثيراً. يقول أبي الذي هو ثاني اثنين يلجان ليل الكوفة: لا تحزن ان الله معنا. ومنذ هذه اللحظة، وعلى اثر هذا القول افترقا. مضى كل منهما في درب غير الدرب الذي مضى فيه الآخر، كذا انقطع نظري عنهما، وغابت اخبارهما، عدت غريباً، فقلت لأتدبر ما مررت به، ولأتمعن فيما سطرته ولأسترجع فيما ذكرته، ولتأخذني عبرة من البصر لبصيرتي، ومن سرى لسريرتي، فقد استشعرت دبيب المحن، وزمن الكدورات، فإن اهتديت فقد عرفت،

وان تعاميت بعدما رأيت ما رأيت فقد وهيت. ملكتني الزفرات الحرى شوقاً إليهما، كما اختنق حلقي بغصة عندما رأيتهما أول مرة خوف الفراق، تزايد شحوبي، وغزاني ضيق سرمـدي، وتساءلت: هل سيسعى ابني أو أحد احفادي في اثري، ويلج الديوان بحثاً عن ذكرى بعد أن أكون قد صرت نسياً منسياً. ودهري كله قد ولى، كأنه لم يـك شيئاً؟. تبـدل وضعي، فصرت جالساً في مسجد قديم من مساجد الكوفـة، أرضه مغطاة بالحصير، وسقفه من جذوع النخيل، أصبحت قاعداً بين القاعدين، في مواجهتي أبي، واجهته بعيني وكياني. وعند هذا الحد من ذلك الموقف سمح لي بأن أراه بحواسي كافة، وكان يبدو في عمر لم أعرفه فيه، فلا هو شبـابه، ولا هـو شيخوخته، يتحدث إلى القوم مذكراً اياهم بتخاذلهم عن نصرة الحسين، مثيراً فيهم التلاوم، موقداً جذوة الندم. ثم تبدل موقعي فصرت مراقباً لجلسة داخل بيت فسيـح لوجيـه من وجهاء الكوفة، انه سليمان بن صرد الخزاعي، وهو رجل كان له صحبة مع النبي عليه الصلاة والسلام، عـرفه، وجلس إليه، وسمع منه مباشرة أما بقية القوم فهم، المسيب بن نجبة الغزاري، وكان من أصحاب علي وخيارهم، وعبدالله بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبدالله بن وائل التميمي،ورفاعة بن شداد البجلي. يتحدث إليهم بعربية فصحى لم أسمع لسانه ينطق بها، أبي الذي عاش ما يقرب من نصف قرن في مصر لم يغير لهجته الصعيدية أبداً، ولم يتكلم تلك اللهجة القاهرية، حتى

اني كنت أخجل من التحدث بها في حضرته، أو في حضور أمي، فينقلب لساني، وأتكلم كما يتكلم هو وكما سمعته منذ أن وعيت، وحتى فراقي له ظهر يوم الجمعة قبل سفري المشؤوم. عندما نظر إلي وأطال النظر، يتحدث أبي إلى وجهاء القوم: لقد ابتليتم بطول العمر، والتعرض لطول الفتن فارغبوا إلى ربكم ألاَّ يجعلكم ممن يقول هم غداً «أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير»، قال أمير المؤمنين علي أن العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فيكم رجل إلا وقد بلغه، لقد بلغتكم كتب الحسين، وقدمت عليكم رسله، وأعذر إليكم يسألكم نصره عوداً وبدءاً وعلانية وسراً، فبخلتم عنه بأنفسكم حتى قتل إلى جانبكم. لا أنتم نصرتموه بأيديكم، ولا جادلتم عنه بالسنتكم. ولا قويتموه بأولادكم وأموالكم، فما عذركم إلى ربكم، وعند لقاء نبيكم وقد قتل فيكم ولده وحبيبه، وذريته ونسله، لا.. والله، لاعذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تقتلوا في طلب ذلك..، ثم تبدل موقعي فأصبحت مصغياً مع مصغين آخرين إلى أبي، المكان سوق الكوفة داخل خيمة منسوجة من شعر الجمل، يقول: إني والله لخائف الا يكون آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه العيشة، وعظمت فيه الرزية، وشمل فيه الجور أولي الفضل. كنتم تمدون اعناقكم إلى قدوم آل نبينا وتمنيهم بالنصر وتحثونهم على القدوم، فلما قدموا ونيتم، وعجزتم وتربصتم، وانتظرتم ما يكون حتى قتل فيكم ولد نبينا وسلالته وعصارته

وبضعة من لحمه ودمه، إذ جعل يستصرخ فلا يصرخ، ويسأل النصف فلا يعطاه، اتخذه الفاسقون غرضاً للنيل ودرية للرماح حتى قتلوه، عدوا عليه فسلبوه، وما أن فرغ أبي، حتى وقف أحد القوم واسمه خالد بن سعد بن نفيل فقال: أما أنا فوالله لو أعلم ان قتلي نفسي يخرجني من ذنبي، ويرضي ربها لقتلتها. ولكن هذا أمر به قوم كانوا قبلنا ونهينا عنه، فاشهد الله ومن حضر من المسلمين ان كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحي الذي أقاتل به عدوي صدقة على المسلمين، أقويهم به على قتال القاسطين. يقوم رجل اسمه المعتمر حنش بن ربيعة الكناني، يقول: وأنا أشهدكم على مثل ذلك.

ثم يقف رجل لا يُكشف لي اسمه فيقول: وأنا..

ويقول آخر اسود الوجه مثل ذلك، يقول آخرون ما قاله الأولون، ينزل صمت، ويقوي الضوء الشفقي، ولما عاودت النظر كان أبي قد ذهب، فانفغرت فجوة في صدري، كذا في صدور القوم، يذرفون دموعاً سخية، يندمون، وتقول الأفئدة الموجوعة: ليتنا وقفنا إلى جانب الحسين. ليتنا متنا معه. وتدور عيناي بحثاً عن أثر أبي بينها يقول فكري لهم. لماذا الحسرة وقد فات الأوان كان بمرمى النظر منكم، ولما مضى، لما انقضى تحركت الضمائر واستيقظت المشاعر، خلق الانسان من الندم، درت بعيني غير أنني لم القه، تضببت مواطىء خطاي، وأوغلت في دروب الغربة، واضطربت احوالي، فلا جلوس يريحني ولا نوم يأتيني، ولا وقوف يشغلني ولا مشي يلهيني، ولا

السعي إليه يوصلني، اشتد على الندم فأثخنتني عناصره من كل صوب، رزحت تحت وطأة العكارة. وتركز كياني حول لحظة فائتة. مرت بي، وموقعها يوم الأربعاء السابق على سفري، لم أكن أدري يوم الأربعاء انه بقي لأبي ثلاثة عشر يوماً، ولم أكن أعلم يوم سفري أنه قد بقي له عشرة أيام، تبدو الأيـام التي تسبق اليوم المعين عادية، تكركرها بكل ما تحفل به، لا تبدو نذر ولا تلوح علامات وان كان الأمر يختلف بالنسبة للانسان الموشك على الرحيل، فثمة شيء غامض يتحرك عنده وينذره باقتراب الموت، لا يحدده، بل يوحي به ويشي بخطاه الخفية، بأنه مقترب من جهة ما غير محددة، انه قريب، وانه سيطبق بعد حين لم يطـل، وقد عرفت فيها بعد شواهد جمة أكدت لي ان أبي استشعر دنو يومه قبل وقت أبعد مما ظننت، وسأذكرها في موضعها ان شاء ربي الكريم وأمـد في أجلي حتى أدون ذلك، لا تدري نفس بأي أرض تموت، واني لاسأل نفسي مرة أخرى عن تلك البقعة من الأرض التي سأسند إليها رأسي، وأغمض عيني تأهباً لرحيلي، أين هي، وفي أي حيز تقع. كل ما يمر بنا في تلك الأيام القليلة التي تسبق الموت لا يلفت النظر ولا يستوقفه، فإذا ما وقعت الواقعة، استعدنا ذلك، وسرعان مـا نستعيد الحـوارات، نتذكـر أدق التفاصيـل، والايمـاءات وحركات الأيدي، تبدو كل جملة لفظت أو كل نظرة ذات دلالة، منبئة بما سيلي ذلك، تماماً كالمرة الأولى التي يطالعنا فيها وجه الحبيب، فالمرة الأخيرة التي لن يتكرر بعدها لقاء. من

عمر التواصل، من مرات الأنس والبشرى والمفاجأة والخلاف والنشوة نذكر دائمًا البداية والنهاية. في يوم الأربعاء المنقضي هذا، كنت في زيارة لصديق انجز عملاً، وكان مكان زيارتي على مسيرة ربع ساعة من مكان عمل أبي، كانت الساعة تتجاوز الواحدة ظهراً عندما انصرفت ومشيت عدة خطوات، وهنا خطر لي خاطر، ان أعرج على الوزارة، في مثل هذا الوقت يعود أبي إلى القسم الذي يعمل فيه ليوقع في دفتر الانصراف، أبهجني الخاطر، فعندما يراني سيسر كثيراً، سيرتبك قليلاً لفرط بهجته في البداية. سيطلب مني أن أمكث قليلاً حتى اشرب شاياً أو قهوة، وقد يطلب مني أن أصحبه لاصافح بعض الموظفين القدامى، يقدم ابنه الأكبر إلى من عرفوه منذ عشرات السنين يتحمل الضيق ويقاسي الشدائد ليربي أولاده. قلت لنفسي: كان يصحبنا إلى كل مكان في طفولتنا، في الطريق يلبي رغباتنا، فلما شببنا واشتدت سواعدنا واستقلت عوالمنا واتسعت مداركنا، وتعددت علاقاتنا، هجرناه ولم نعد نصحبه، لم نعد ندري شيئاً عن رفاق طريقه، وأناس وحدته، سررت لما جال بخاطري، ومشيت في طريقي إلى مبنى الوزارة، توقفت عند مفترق ريثما أعبر الطريق، نظرت حولي خوفاً من العربات المسرعة، لمحت عربة اجرة خالية قادمة، انحنيت قليلاً، ولحظة مرورها بمحاذاتي صحت «باب اللوق ياريس»، لم أتوقع وقوفه، خاصة ان الطرق المؤدية إلى باب اللوق مزدحمة وسائقي عربات الأجرة يرفضون الاستجابة،

غير أن السائق توقف، أومأ لي، «تفضـل». كررت «بـاب اللوق»، أومأ مجيباً، يبدو أنه خارج إلى يوم عمله لتوه، وبعض من السائقين يتجنبون الامتناع في بداية يومهم خشية تعـثر الرزق ومفاجآت الطريق، مررت بسرعة أمام مبنى الـوزارة الذي كان يضم أبي وقتئذ في موضع ما منه، أما الآن فقد خلا منه إلى الأبد، ولم يعد أي أثر لامكانية توقعي رؤيته صدفة يعبر الميدان المؤدي إلى المدخل، نظرت إلى المبنى، لم يخرج مشروعي عن كونه خاطرة وفكرة لم تتحقق ورغبة لم تتجسد، قلت لنفسي: سأزوره في فرصة أخرى. هكذا ضننت عليه بمفاجأه كانت ستسره، بددت فرحة كانت ستواتيه في اليوم الثالث عشر المتبقي له، لو أعرف، لو، ليتني فعلت، كنت في مدينة الكوفة، وفي زمن ينأى عن زمني مئات الأعوام عندما دهمني النوم المروع فبكيت ولكن بكائي لم يخفف ما بي. كيف ضيعت ما ضيعت وقد كان ذلك في متناول يدي وملك يميني؟ إلى هذا الحد تشاغلت عنه أو شغلتني الدنيا. عصرت قبضتي يدي، عضضت النواجذ، تعاظم ألمي، وعند هذا الحد من شروع هلاكي وبدء محوى شعرت بيد حـانية تمس رأسي، تطلعت فرأيت سيدنا شيخ العارفين، مولاي محي الـدين، نظرت إليه، أذن لي، فقمت من كبوتي، مشى فتبعته، كان مهيباً في نظري، ذقنه من شعر أسـود عميق، طال صمتـه وحرت في مغزى ظهوره لي عند هذا الحد من ذلك الموقف، والعجيب انني مـع التركيـز فيه، ومـع ترديـدي.. نعمت

بالصاحب والصحبة بعد معاناتي، جعلني الله ممن اقتفوا اثره ومشوا على مدرجته حتى التحق بدرجته، أمين. غير أن ندمي لم يخف ولم يبل. بل زاد عليّ ما هو أدعى وأمر، فقد زال عني الظل والفيء، صرت في قيظ لاهب، فجأة نطق سيدنا فقال..

عندك شيء؟

جهرت على الفور بمكنوني..

توسط لي يا شيخ العارفين عند الديوان، عند رئيسته الطاهرة، عند عضويه النورانيين، عند حبيبي ورفيق هجراتي ودليل أسفاري والغائب عني منذ حين وليس لمن كان مثلي أن يسأل عن..

يستمر شيخي في النظر إليّ..

عندك شيء؟

أصيح:

أريد أن تبدل هذه اللحظة تبديلاً، أن أتذكرها فأتذكر انني مررت بأبي وزرته، أن استعيدها فأراه يستقبلني ويتهلل لرؤيتي ويجلسني إلى جواره..

قال شيخ العارفين..

هذا أمر صعب المرتقى..

أقول.

ولكن ليس شيء على الله ببعيد..

قال الامام الأكبر:

بالأمس نسيت، واليوم تنسى..

ثم قال..

ان كنت ذا فطنة فقد أومأنا إليك بما هو الأمر عليك، بل صرحنا بذلك وتحملنا في ذلك ما ينسب إلينا..

قلت:

لكنني اليوم وحيد..

غاب عني فصرخت:

أمثلوني بين يدي مولاي الشهيد..

عندئذ امطرني الندم بوابله، وبلغ من شدته أنه صرعني وبعد حين لم أدر مقداره أفقت، ولكن ندمي بدأ من جديد. من نفس اللحظة التي أدركت فيها خطئي وجرمي وتقصيري. ثم يتزايد حتى أفقد وعي، وأفيق لأعانيه من جديد، يولد مرة أخرى داخلي عفياً مرة إثر مرة إثر أخرى، كنت عاجزاً عن الخلاص منه أو التخفيف من وقعه، لأنه داخلي، وكيف أخرج مني؟ وكلما بلى تبدل ندماً عفياً، وأنا لا أستطيع فكاكاً، وتلك الشواظ تلهبني، صرخت..

أليس في مقدوركم التخفيف عني؟

لم يجبني أحد. ولم يرد صوت. وعند حد مقدر ظهر شيخنا مرة أخرى، اقترب مني في دوامة عذابي حتى وقف وأنا ملقى صريع. رأسي بحذاء قدميه، انتظرت، ولما سمعته يقول..

أمازلت عند مطلبك..

قلت

ليس ذلك بأمر بعيد..

عندئذ اخرج من ثنايا جبته نصلاً أبيض حامياً، أمسك بشعر رأسي، أشهر النصل، ثم هوى به، ففصل رأسي عن جسدي. اقتلعه وأمسكه بيده، فصرت أنظر إلى جثة نفسي بلا رأس بينما يقطر الدم من رقبتي، ويتدفق من عروقي المجزوزة، شعرت بيده تتراخى عن شعري، وللحظة خيل إليّ انه يمسك رأسي، لكنني انتبهت إلى انني طاف، معلق، لقد صرت في خلق جديد..

* * *

موقف

النجم

«.. لا أقسم بمواقع النجوم
وإنه لقسم لو تعلمون عظيم..»
صدق الله العظيم

.. صرت رأساً بلا بدن، وبدناً بلا رأس، ولكم صعب عليّ حالي ورثيت نفسي، وأشفقت عليّ عندما رأيت بعيني رأسي جثتي بلا رأس أول مرة، واطلعت بعيني حواسي على رأسي الطافي المنقطع عن جذره، عرفت ان جمال الجسم البشري وكماله في اتصاله، انه قائم على بعضه، لو عزل عضو عن سائر الجسد لبدا بلا معنى، غريباً في وجوده، ضعيفاً في مظهره، واهناً في جوهره. مثيراً للرثاء، للشجن، أصبح لي ظلان بعد ان كان لي ظل واحد، اتبعه ويتبعني، أطويه وأبسطه وأحياناً يلفني، لكن بدت ذراعي غريبة عني، خاصة يدي، وأصابعي التي طالما ضممتها وفردتها وأمسكت بها القرطاس والقلم، في عزلة اعضائي تجسد ضعف النشأة الانسانية المجبولة على الكل والجمع والوحدة، رثيت لقدمي، لصدري، لقضيبي الذي عبثت به في صغري وكبري، وأولجته في فروج شتى، انه بمنأى عني، لا يطاوعني، ولا يستجيب، يدي لا تقدر على مداعبته، أو الاحاطة به أو هدهدته، لا يتقدمني ولا يعبر عوالم انثوية، لكم بدا رخواً وكأنه قد من

خرقة بالية، رثيت لنفسي، صار لكل عضو توجه مغاير، هكذا ارتفع رأسي بعد ان القيت نظرة التياع على بقية جسمي، سبحت في سماء مدينة الكوفة، رأيت من عل عال المدينة مضمومة، ملمومة مضمدة بالنخيل والشجر، ثم تزايد ارتفاعي فرأيت الكوفة وكربلاء معاً، استعدت بأسى أحوالي في موقف الظمأ. ورؤيتي لحبيبي ومولاي الحسين وهو محاصر، ممنوع من ماء الفرات. حدقت ببصري الجديد فرأيت ذلك الموضع الذي اجتثت عنده رأس مولاي الطاهر، وهذا موقع لا يعلمه الآن من البشر الفانين غيري، ولا يمكن لأدمى تعيينه سواي، لكنني لا استطيع البوح به في تدويني هذا، لقد خصصت بذلك أثناء محنتي، وما خصني لا يمكنني نشره الا بإذن، والاذن لم يقع، لذا أسكت، كنت غير قادر على النزول بذلك الموضع والوقوف به، وابداء الحزن على ما جرى، كما كنت غير قادر على النزول إلى كربلاء، والوقوف عند مرقد سيدي وسيد ساداتي، كيف أنزل وأنا بلا قدمين اسعى بهما، كيف أطرق باباً من بيوتها وما من يد تأتمر بأمري، فأصافح من أشاء، وأشير إلى من أشير. يستمر تحليقي في لحظات غروبية كابية، ولم أكن أدري ما أفعله عندما يجيء الليل، هل سأحط على الأرض حطاً، أو آوي إلى قمة جبل يعصمني من الأذى المجهول، أو أركن إلى موقع لا يلحق ما تبقى مني ضيق أو مضايقة. كنت لا أدري كيف سيكون مرقدي وهل سيكون لي استيقاظ ومنام، اضطجاع وركوع، كنت لا أدري كيف

سيكون مرقدي وهل سيكون لي استيقاظ ومنام، اضطجاع وركوع، كنت محكوماً بخلفيتي الدنيوية، لا قدرة لي على تصور ما سيلحق بي. قلت بلساني: فلأصبر على ما أصابني، يطول تحليقي، أسبح في غمام، أعبره ويعبرني. وعندما بدأ الشفق يغمق، بدأت أعرف جوعاً غريباً، مريباً، جديداً على أحوالي، جوعاً شاحباً، لكنه ثقيل، لم أعهده أبداً، لا يحركه خواء معدة، ولا انقطاع زمن عن طعام، ولا شهوة، ولأنني مازلت قادراً على التشبيه والاستعارة حاولت أنْ أعثر له على مثل. وجدت صعوبة جمة، غير أن أقرب الأحوال امتلاء مثانة بالبول والعجز عن اطلاقه، ربما يشبه مقدمات الاغماء، غير انه ظل جوعاً لم أعرفه قط. وعند حد معين لم أدر طبيعته الزمانية أو المكانية، نوديت..

يا جمال..

نظرت إلى نقطة من السماء بعيدة، ولأنه لارقبة عندي، فقد حركت جفني وعيني، كالعاجز، الراقد، ينظر حوله ولا يتغير موضعه، ولا جسده، رأيت نقطة خضراء، درجة ليست بزمردية، ولا زرعية، ولا ربيعية، أو خريفية، لا تقترب من الصفرة، ولا من الزرقة، ومن المعروف ان اللون الأخضر ينشأ من اختلاط اللونين الأساسيين الأصفر والأزرق، وبقدر غلبة أحدهما على الآخر، تتحدد درجة الخضرة، أعلم ان من علوم هذا الموقف علم الألوان، واسرارها، غير ان لون النقطة الأخضر لم تقع عيناي على مثله، مشع، براق، وهادىء أيضاً،

واضح كزرقة البحر في المواضع العميقة، وفضية القمر في الليالي الصافية، وضوء الصبح، حدقت بعيني، تقترب النقطة الخضراء مني، أستكين فلا أرحل، إذا بها طائر لكنني لم أتبين ملامحه، قادم من سمت القبلة، يتيامن ثم يشرق، ثم يطير إلى الجنوب، ثم يبعد تجاه الشمال، كل هذا وهو في دنو مستمر مني، حتى صار في مواجهتي فإذا به ضياء خالص، ونور صرف، ومن ذلك تتشكل الملامح الانسانية التي تعلقت بها غير مصدق، وعندما اكتمل وجه الطائر الآدمي، زعقت. .

انت. . انت

لم أعرفه إلا في صور المحاكمة المطبوعة والمرئية. مدثراً بالبياض، خلف قضبان القفص الحديدي، كذا صور الهجوم، يندفع في قلب النهار، عبر مركز الضوء، معه صحبة. صدورهم عارية داخل مرمى الخطر كله، يقتحم المنصة ليخلص زمناً، وينقذ امة، عرفته في الصور المرئية التي التقطت على عجل، ينزل من عربة النقل، يلقي القنبلة، ثم يعود في ثوان ليمسك المدفع، عرفته بخيالي وها هو أمامي. حراً من كل قيد، مكشوفاً من كافة الحجب، طائراً أخضر من ضوء. ها هو يثبت جناحية حتى يستمر معلقاً في الفراغ، أقول بحنان عظيم. .

خالد، تكلمت أنا وفعلت انت، تمنيت أنا، وتمنى غيري، وأديت أنت. .

يهز رأسه الذي دقت ملامحه وصار في هيئة وحجم رأس طائر، لم يجبني، إنــما قرب فمه من فمي، وكنت غير قادر على عناقه لأنني بلا ذراعين لا أقدر على الدنو منه لأنني مسيرّ، محكوم. بمن يوجهني، فإذا شاء تقدمت، وان رغب ارتفعت، وان اراد ابتعـدت، ليس بـأمــري شيء، ثبت وضعي في مواجهته، فلم أضمه إلا بعيني، ولم أحطه إلا بنظراتي، كان عندي شجن مديد أود لو بحت به. لكن فمي تطلع إلى فمه كما يتطلع الطفل إلى ثدي أمه قبل الرضاعة، عندئذ قطر في فمي ثلاث قطرات من شراب طيب حلو يشبه عسل النحل المصفى، لكنه ليس بالعسل، تذوقت واستحسنت، عرفت أنه أطعمني ما يشبه المن والسلوى، فتحت عيني والشبع يمـلأني، والجـوع قصى عني، نسيت مذاق أي طعـام تنـاولتـه طيلة عمري. يرتفع خالد، يثبت عند نقطة مرتفعة متطلعاً إلى رأسي وكأنه يطمئن عليّ، عندئذ رأيت فجوة حمراء في مقدمة صدره، بقعة ضوء قانٍ تقطر دماً حقيقياً وكأن للضوء عروقاً، بالضبط في موضع القلب، صحت..

هل تألمت؟

جاءني صوته من موضع شروق الشمس..

أعطاني الله من هذه القوة لكن الله قواني عليها..

رأيت قطرات الدم تندمج بـالفضاء الكـوني، تدور مـع الأفلاك، تولد مع جديدها ولا تندثر مع قديمها الذي حان

أوان فنائه. رأيتها تمد الحمرة المصاحبة لبزوغ الفجر على ضفتي النيل، تصبغ اطراف النخيل، وشواشي الأشجار الفارهة. وفي عتمة الليل تستقر قطرة على هيئة نجم في السماء، نجم صغير بين النجوم التي تزحم السماء، لكِنه ينفرد عن غيره بأمور جمة، وخصائص دقيقة. منها ما يظهر، ومنها ما يخفى، من ذلك انه لا يرى إلا في سماء وادي النيل، ولا يمكن رصده إلا من فوق تلال الوادي، وجبل المقطم، وجبل عتاقة، وجبل الجلالة، وجبل موسى، ومن ذرى كثبان الصحراء الغربية، لا يختفي طوال فصلي الربيع والخريف وينأي قليلاً. قليلاً في فصلي الصيف والشتاء. يلمع عند تمام نضج المحاصيل، واكتمال خضرة الشجر، ولمعان عروق المناجم في ضوء النجوم، وبخلاف النجوم كلها، يمكنك تحديد موضعه وضوئه القاني عبر السماء الغاصة بالأفلاك، وهنا أحاول أن آتيكم بقبس مما يختص به هذا النجم العجيب بين النجوم، في الطعام مثلاً يختص نجم الثريا بالحلاوة، والدب القطبي بالمرارة، والسها بالحرافة، والشعرى اليمانية بالدسومة. ولنجم خالد المذاق الطيب. وفي الألوان ينسب السواد الحالك إلى السها، والبياض المشوب بصفرة إلى الدب القطبي، والشقرة إلى الشعرى اليمانية. وما ينتج عن امتزاج لونين إلى الثريا. ولنجم خالد الحمرة القانية، والزرقة البحرية، والخضرة الضبابية. وفي الأمكنة، اختص الدب القطبي بالجبال الجرداء، والصحاري، والسجون، والشعرى بالأراضي الخشنة، ومواضع النيران،

والقلاع. وللثريا السهول، والبقاع، والوهاد غير المأهولة، وبيوت الملوك والسلاطين، وللسها الرمال، والكثبان، والأسواق الدائمة، والأسواق الموسمية، والمنازل القائمة على الطرق، والنواصي المؤدية إلى البساتين. ولنجم خالد، كل أرض سهلة، والمدقات، والمكان الندى، والضفاف. كذا الأبنية العتيقة. وفي الطيور يختص الدب القطبي بالكراكي، والبجع. والنعام، أما الشعرى فبالديوك والقماري، وللثريا طيور المساء، وطيور الليل، والسها بالعصافير المهاجرة والأسراب، أما نجم خالد فله النسر والعندليب والعقاب. ومن مراحل العمر ينسب إلى الدب القطبي الشيخوخة، والشباب إلى الثريا، والفتوة إلى الشعرى، والطفولة إلى السها، ولنجم خالد العمر الجميل الذي ولى. وفي الأعضاء ينسب الرأس للدب، والصدر والخصر والاليتين للثريا، والكبد للشعرى اليمانية، والذراعين، وأطراف الأصابع للسها، كذا الساقين، ولنجم خالد القلب والشرايين. وفي الأنساب يختص الدب بالأجداد، والسها بالاشقاء، والثريا بالامهات، والشعرى بالآباء، ولنجم خالد الأولاد وأولاد الأولاد. وفي الاخلاق الباطنة ينسب للدب اضطراب الرأي، وللثريا التفكير والتأمل، وللشعرى الغضب والحمق، وللسها الزهو والاستقالة والذكاء، والفطنة، ولنجم خالد الحلم والثورة. وفي الأشجار يختص الدب بالكافور، والشعرى بالورد الفارسي، والسها بالصنوبر والأرز، والصندل الأبيض، والثرى بالأبنوس، ولنجم خالد النخيل والصفصاف.

وفي الأصوات. للدب الهمهمة، وللشعرى الحديث بصوت خفيض، وللسها الهمس، وللثريا الصياح، ولنجم خالد صرخة المولود الأولى. أيها القارىء الحميم، هذا جزء من كل وما أوردته كل من بعض، فالسر عظيم. أرفع البصر. حدق إلى الشرق ستراه، لاتمل النظر، ضوؤه الواهن سيلفت انتباهك، وكلما اطلت النظر اتضح لك كنهه واسفر لك عن نتف من سره، واذكر ان هذا النجم الوليد قطرة من دماء خالد الذي خلصك وخلصني. هذا ما عرفته في طفوي ورحيلي عبر الفراغات والفضاءات، ومما أود قوله، انه سيأتي حين من الدهر يهتدي به كل من يسعى في البر، أو يخوض مياه النيل مسافراً، غير أن اكتشافه كعلامة ثابتة يحتاج إلى زمن، وخبرة، وعلم، وطول دراية، ودقة ملاحظة. بالضبط كما انقضى وقت طويل وسنين لا يعرف مقدارها قبل ان يكتشف الانسان موقع الدب والسها والثريا والشعرى اليمانية وكوكبة العرس وزحل والمشتري وأطراف المجرة، ها أنا أنبه وأشير، لا أضن بمعارفي، ولا أبخل بما اطلعت عليه، وخصصت به في ذروة محنتي بعد انفصال رأسي عن جسدي. ها أنذا أصرخ، عسى أن يرى أهلي وقومي ما رأيت، وأن يعرفوا ما عرفت، وأن يهتدوا إلى موقع ذلك النجم كما اهتديت، فانتبه يا غافل!

* * *

موقف

الشدة

﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾

. . يارب خفف جروحاتي، انت السميع العليم، تمنيت لو طال الحوار واتصل، لكن خالدَ ارتفع، خلف عندي الرضا والامتلاء والشبع الغريب. عرفت ان قدراً من الرحمة لحقني، وانني قد لا أخلد في عذاب الندم الشديد، جعلني الله وجعل القراء والسامعين من أهل الرحمة الخالصة، آمين. عرفت ان ما حل بي من نعمة موقوتة ترجع أسبابه إلى زمني الدنيوي، وان لم أقف على تفاصيله، وان وعدت انني سأطلع عليها فيما بعد. هذا لحكمة خفية، ضممت جهلي في رأسي، واستسلمت لطفوي، تتبدل عليّ الأحوال، أميل مع كل ريح صرصر، وأتهدهد مع كل نسمة، حتى رأيت من علٍ شاهق الزمن السحيق، فدرت في الفراغ، وأوتيت البصر الحديد، ها هو أبي وعبد الناصر يسعيان في صحراء قريبة من نهر الفرات، معهما جمع لم استطع ان أحصيه، غير أنه لا يتجاوز العشرات، أمكن لي تمييز بعض الملامح، فرأيت صاحبي الذي استشهد ظهر الجمعة، ورأيت «مازن أبو غزالة»، وجمعاً من صحبه استشهدوا بعده، بعضهم طبعت صوره، والصقت على الجدران، ثم نزعت في بلادي عندما أصبح العدو صديقاً وجاءت وفودهم تترى بغير قتال، لمحت اصحاب خالد

الأربعة، ألقى في معارفي انهم قاموا بجهد جهيد، بذروا الندم في نفوس القوم، وحركوا الضمائر التي ماتت ولم تتحرك لنجدة الحسين، وان الندم تحرك وقوي، قام نفر هنا وهناك يطالب بدم الحسين، والثأر له، لم أدر إلى أين وجهتهم، هل يقصدون شخصاً بعينه، أم أنهم يسعون خلف جماعة من قتلة الحسين، خاصة وان عبد الناصر حدد اسماءهم، وعين أماكن تواجدهم، وبث العيون في أعقابهم، ورصد سكناتهم وحركاتهم وتتبع مواطىء أقدامهم، حتى يسهل الانقضاض على كل من رمى الحبيب بسهم أو صوب إليه مقلاعاً أو أصابه بجرح، هو وأهله وصحبه، أما أبي فسعى إلى كل من خذل الحبيب، أوقد في الصدور ناراً بطيئاً اشتعالها صعباً إخمادها، وكان ذلك بداية ندم القوم واحزانهم على خذلانهم الحسين، وعلى مصرعه حتى يومنا هذا، وإلى ان يحين الحين. لاحظت بدء نزول الليل، حمت في عتمته حولهم، تعرفت بحاسة شمي إلى رائحة ابي، فاستعدت من جديد مرات عناقنا النائية ولحظات قربنا ومرات صفائنا، رأيت يدي اليمنى تسوي وتمهد الأرض الخشنة لمرقده أما يدي اليسرى فتهش عنه وعن صحبه هوام الليل. وكان ذلك غريباً مستحدثاً عليّ. أن أرى عضواً من جسدي لا يأتمر بأمري، ولا يتحرك بإشارات خفية مني، غير موصول بي، مقطوعاً ما بينه وبيني، ما بيني وبيني، حمت فوقهم أرقب أخطار الليل لعلي أحذرهم، أو أنذرهم، كيف يصلهم صوتي؟ هذا ما لم أعلمه. غير أنني قلت: ربما أتت

النوايا بالوسائل. ولما دنا الصبح وانجلى قام عبد الناصر فحمد الله كثيراً واثنى عليه، وبعد صلاة الغداة قام خطيباً في جمعه، فقال بصوت حزين، ونبرات ثكلى، ذكرتني بظهوره ليلة الثامن من يونيو، وكانت مساء خميس، وإعلانه الهزيمة ثم التنحي، ها هو يبدأ فيقول:

«إن الله أذن في فراقنا هذا اليوم فعليكم بالصبر واحتمال الشدة..»

ثم صفهم للحرب، فكان تعدادهم سبعين ما بين راكب وراجل. وخيل إلى أنهم دون ذلك، جعل مازناً في الميمنة، وحُسيَن صاحب خالد في الميسرة، وأعطى رايته لأبي، ثم أمر بحطب وقصب ان يترك في موطىء من الأرض يشبه الخندق مخافة أن يأتوهم من ورائهم. فنفعهم ذلك. ومن النقطة التي تعلقت بها في الفراغ حملقت دهشاً، مشمئزاً، إذ رأيت من لا أطيق ذكره، من خلف عبد الناصر في حكم مصر ـ لعنه الله ـ، أقبل فبقي في الخلف، جباناً كعهده في عمره، يدبر ويدفع بغيره لينفذ، وفي الوقت الملائم ينجو بنفسه، كان في عدة آلاف من الجنود، وخدام الاحتكارات الأجنبية، جنود يرتدون الحرب في زمن ابن معاوية قاتل الحسين. وجنود يرتدون الزي الخفي للموساد، ومقاتلين من قوة الانتشار السريع الأمريكية، ومرتزقة مجهولي الهوية، وأرباب بنوك، وأصحاب شركات للمياه الغازية، ومقاولين، وسماسرة، وتجار آثار، وكانوا يرفعون راياتهم، وعليها اعلانات عن اجهزة تكييف للساخن

والبارد، وثلاجات ذات بابين، وسيارات، وعباءات حريرية، وطائرات حربية تستخدم في أربعين جيشاً، وطلاء جديد للأظافر النسائية، وماكينات حلاقة كهربائية وراية تعلن عن فوائد مصرفية. رام مازن أن يرميهم بسهم فمنعه عبد الناصر قائلاً: اكره ان أبدأهم بالرمية الأولى. ولما نظر إلى جمعهم كالسيل، إلى سلاحهم، وإلى لافتات صوتية تطالبهم بالاستسلام، وصوت مذيع اسرائيلي يعلن في مكبر صوت يدوي: قف وفكر، سلم تسلم، سنضمن لك جرعة ماء، وطعاماً، وأدوية، رفع عبد الناصر يديه بالدعاء وقال: اللهم انت ثقتي في كل كرب، ورجائي عند كل شدة، كم رأيت من كرب يهن فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، انزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك، لم أكن أدري أن هؤلاء كانوا يجتمعون على النيل مني ويتوحدون على قصد واحد، هو القضاء على، ومحو أثري، وتشويه سيرتي. وقد كنت غافلاً عن ذلك الذي يقودهم، أنا من دفعته حتى وقف بجواري وعينته نائباً لغيبتي وحضوري، وأعترف بعد فوات الأوان ان الغشاوة غطت عيني حيناً من الزمن، وكان الثمن الذي دفعته وسفحته بلادي وامتي باهظاً..

يسود صمت للحظات، يزعق بينهم زاعق، وإذا به ضابط اسرائيلي يرتدي غطاء الرأس القرمزي الخاص برجال المظلات..

هل فيكم ابراهيم الرفاعي؟
يصيح ابي مجيباً..
نعم.. هذا هو..

ويشير إلى صاحبي الذي استشهد ظهر الجمعة التاسع عشر من اكتوبر..

يزعق الضابط الاسرائيلي..
هل فيكم ابراهيم زيدان؟
يجيب أبي:
نعم.. هذا هو..

ويشير إلى صاحبي الذي استشهد فوق التبة رقم سبعة شرق القناة. صباح الأربعاء العاشر من اكتوبر..

هل فيكم ابراهيم عبد التواب؟
نعم.. هذا هو.

يشير أبي إلى صاحبي الذي استشهد يوم الرابع عشر من يناير بعد مائة وأربعة وثلاثين يوماً من الحصار في موقع كبريت شرق القناة..

يضحك الضابط الاسرائيلي، يضحك، يضحك..

لماذا حاربتم؟ لماذا دربتم، وجاهدتم، لماذا قتلتم؟ أعلامنا في فضاء بلادكم، وجنودي مروا أمام بيوتكم، والتقطوا الصور التذكارية عند قبوركم، وغازلوا بناتكم، أما أنتم فقد نسيتم

ولن يقوم ذكر لكم.. بل أن اياماً لم تشهدوها يخشى بنو وطنكم فيها الاشادة بكم، أو التلميح إليكم.

يزعق أبي..
سأحرقك حرقاً..
يردد المذيع الاسرائيلي:
قف وفكر، سلم تسلم..
يقول أبي..
اللهم خذه إلى النار..

يندفع ضابط المظلات الاسرائيلي راكباً فرساً، كان بينه وبين أبي أرض واطئة فعثر الفرس بحجر فتعلقت قدمه بالركاب، أخذت الفرس تضرب به كل حجر وشجر حتى مات. فوق ربوة يقف ابراهيم الرفاعي، أراه مهموماً، يداه تلامسان خصره تماماً كما عهدته في أيام الحرب الطوال، غير ان ضيقاً يجعل ملامحه غريبة عني، ها هو يقترب من أبي، يسأله..

أصحيح ما ذكره ذلك الضابط الاسرائيلي..

أبي واجم، تنزل به حيرة، لا يدري ما يقول، ينظر الرفاعي إلى جثة الضابط الاسرائيلي وبه غموض. قال ريتشارد آلن ضابط الاستخبارات الأمريكية وكان أحد الذين شهدوا ذلك الموقف: كنت في أول الخيل التي تقدمت لحرب عبد الناصر وصحبه، وكنت معيناً كواحد من الحرس الخاص، تقدمت لعلي أصيب رأسه فأحظى بعلاوة أو ترقية. فلما رأيت

ما جرى لضابط المظلات الاسرائيلي تشاءمت، وتذكرت الجسارة التي بدت عند منصة العرض بعد ان أكدت لنا التقارير أن قومه وهنت عزائمهم، وانهم انشغلوا بلقمة الخبز اليومية عن كل ما عداها بعد أن صيرناها عزيزة المنال عندهم، خف حماسي، تراجعت، لن أزج بنفسي حتى لا ألقى ما ألقى..

ورأيت شيخاً جليلاً، مهيباً، قاهري المولد، والنشأة والممات، وهو استاذي، عظيم القدر، صاحب الشرف، والقدر، والهيبة، هو من نصحني بالتجلي، لأن النائم يرى ما لا يراه اليقظان. تقدم ابن اياس من عبد الناصر، طلب منه الاذن بالكلام، فأذن له.. يتقدم، ثم ينادي..

«.. يامعشر القوم، انكم تنقادون لارذل الناس، وأحطهم شأناً وقدراً، من لم أعرف مثيلاً له بين من عرفت، لو عنده عشر مقدار ما لدي أجبنكم من الشجاعة فليبرز الآن، انه يسمعني. ايها الجلف، الداعر، الجافي، ألم تكن تهرع إلى عبد الناصر جاثياً، ألم تجبن عن ملاقاته منفرداً، وعن الاتصال به إلا من خلال وسيط؟ هل خاطبته يوماً باسمه مجرداً كما أدعيت؟ ألم تهلل لكل ما بدر منه، ولكل ما أسفر عنه؟ ثم ولاك فاستخلفت فقلبت وتنكرت، وعاديت الفقراء والمعدومين وكل من كد لاجلهم؟ حرضت ضده، وضد مبادئه، وهو غائب لا يستطيع رداً أو دفعاً، وفرطت فيما فرطت، وهذا لم

يتفق مثله لخاير بك سلفك الذي سلم مصر المحروسة إلى العثمانيين. لم ترع لدماء هؤلاء حرمة، ولم تصن لهم ذكرى، والآن تجيء متخفياً، مختبئاً وراء عدد وعدة، وهم يولون وجوههم تجاه الثأر لابن بنت رسول الله، تمنع عنهم ماء الفرات كما منعه قتلة حبيبنا ومولانا. تحول بين الماء وبين هذا الجمع شريف المقصد..

يهز الرفاعي رأسه أسى وحسرة..
إذن ما قاله الضابط الإسرائيلي صحيح.. متنا بلا دية..

يردد المذيع الصهيوني..
قف وفكر.. سلم تسلم.

يصيح شبث بن ربعي أحد قتلة الحسين مخاطباً ابن أياس..
اسكت أيها الشيخ الخرف، قد أكثرت من الكلام فاكفف عنا، ألم يكفك ما دونت في كتبك المهجورة التي لا يقرؤها أحد، والله ليعطش الجمع كما عطش الذين قبلهم..

يرتفع صوت ابن اياس:

لاسقاكم الله يوم القيامة.. بئس القوم انتم..

يأمر الجلف الجافي برميه، يصيبه سهم في كتفه، يجرح ابن أياس.

رأيت أبي يصرخ..

يا أتباع قتلة الحسين، يا عبيد الأمة، يا شذاذ الآفاق، ياعسس، يا سماسرة، يا قتلة أولاد الأنبياء، والله ان الغدر فيكم لقديم يا أخبث ثمر..

يسأل وليم كيزي مدير المخابرات المركزية..

من هذا؟

قيل له انه رجل فقير، لم تنشر الصحف اسمه، ولم ير في حفلات الاستقبال، ولم يمش في جنازته علية القوم، لم يتقدمها مندوب من رئاسة الجمهورية، أو باقات زهور، لم يمسك طيلة حياته بالدولار، كما انه لم يعرف التوكيلات السياحية، ولم ير البحر إلا مرتين عندما سافر إلى مدينة الاسكندرية في مهمة رسمية، ولم يجلس ساعة متصلة في غرفة مكيفة الهواء، ولم يرتد إلا ملابس مصنوعة من قماش محلي.

يقول موسى ديان ضاحكاً..

انحارب جمعاً فيه مثل هذا، أنا لمنتصرون..

يردد المذيع..

سلم تسلم، أمامك الحياة الهنيئة فلا تكن من الهالكين، من دعوكم تخلوا عنكم، من وعدوكم بالمؤازرة خذلوكم، انتم محاصرون من جميع الجهات، ولا أمل يرجى لكم، أيها المحارب.. قف وفكر.. الق برمحك، حطم سيفك.. سلم سهامك..

يتقدم أبي حاملاً الراية، يمسكها بيد، ويشهر سيفاً باليد الأخرى، انه أول من برز إلى الحرب، قاتل قتالاً شديداً حتى قتل نيفاً وأربعين رجلاً، تكاثر الجمع عليه، رأيت نصلاً يصيب ساقه، وعرفت عندئذ أصل تلك الندبة الغائرة في ساقه اليمنى، والتي تأملتها طفلاً، وتحسستها عندما كنت أقعد أمامه، يداعبني وأداعبه، وتأملتها كبيراً عندما كان جلبابه ينحسر قليلاً، غير أنني كنت أحيد ببصري فلا استفسر، تلك الندبة لا بد وانها اختفت الآن بعد ان دب البلى إلى جسمه في القبر، وضاعت ضمن ما ضاع إلى الأبد من ملامحه. طرت مرتفعاً، وطرت منخفضاً، وعندما انجلى الغبار رأيت الراية في يد صاحبي إبراهيم عبد التواب، لم أقف لأبي على أثر، شغلت بالبحث عنه، لكنني لم أره، وعجبت، وان كان عجبي الآن أخف عن ذيَ قبل لكثرة ما رأيت، وغرابة ما جرى لي، أقول أيها المتلقي الفطن، انه ألقى في فهمي انني سألقى أبي مرات اخرى. وان هذا ليس آخر عهدي به، وان ما أشهده وما شهدته ليس بالمحط الأخير، فالترحال مازال ممتداً، وعلم مداه عند ربي، سبحانه، لا أشرك به أحداً. طمأنني إدراك ذلك. وعددته من علامات الرحمة بي، والرفق بحالي، مع انني مجتث الرأس من القفا، لا جسد لي، دمي يقطر، فيختلط بالغيوم والشفق، والضوء الذي يسبق شروق الشمس، ويندمج بقوس قزح، لم أدر كيف سألقى أبي، هل سأقابله كما قابلته من قبل، أم أنني سأحوم حوله، يفصلنا بعد، ويمنعنا نأي،

وأنا مغموس في الغربة، أنظر إلى ما يجري، فأرى خروج مازن «أبو» غزالة، قاتل كالليث حتى قتل. يدعو له عبد الناصر..

اللهم ارحمه، وادخله الجنة..

يخرج ابراهيم زيدان، ادقق النظر محاولاً متابعتهم، غير أنني لم أقدر، علا التراب، وسال الدم، أرى رشق السهام كالمطر، اصغي إلى عبد الناصر يقول لصحبه...

قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم..

يخرج القائمقام محمد عبيد، وفرّان مجهول الاسم قتل في شارع مرسينة بمنطقة السيدة زينب خلال ثورة العام التاسع عشر بعد الألف والتسعمائة.. يقولان لعبد الناصر..

السلام عليك يا أبا خالد، إنا جئنا لنقتل بين يديك، وندفع عنك..

يقول..

يرحمكما الله..

استدناهما منه، فدنوا وهما دامعان، قال..

ما يبكيكما يا جنديّ العزيزين، فوالله اني لأرجو ان تكونا بعد ساعة قريري العين، قالا: جعلنا الله فداء أمتنا، ما على أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك، نراك وقد احيط بك، كل

من ادعى الولاء لك ولمبادئك يوماً يقف حائلاً بينـك وبين الماء، قال: جزاكما الله خيراً.. قالا: السلام عليك ورحمة الله يا نصير المهضومين والضعفاء، قال: السلام عليكما ورحمة الله وبركاته. فقاتلا بالقرب منه حتى قتلا.

وهنا سمعت ارييل شارون يقول للجلف الجافي: أتدري من نقاتل؟ اننا نقاتل فرسان العصر وأهـل البصائـر وقومـاً مستميتين، لا يبرز إليهم أحد منا إلا قتلوه على قلتهم وصعوبة احوالهم، ظننت ان ظهورنا المفاجيء الصاعق سيقضي عليهم، ظننتهم سيستسلمون..

ثم حمل الجنرال موشى ديان على ميمنة عبد الناصر، فثبتوا له، وجثوا على الركب، وشرعوا الرماح، فلم تقدم الخيل، ولما استدارت رشقها اصحاب عبد الناصر بالنبل، فصرعوا جون فوستر دالاس، موردخاي جور، والعزيز هنري، ثم حمل جمع من قوات الانتشار السريع على ميسرة عبد الناصر، وثار من شدة القتال غبار شديد وما ان انجلى الا ومصطفي أبو هاشم عامل البترول السويسي المنشأ والممات صريع، وإلى جواره عويس بائع الفجل السريح الأرزقي، ومرجان النوبي، مشى إليهم عبد الناصر، قال: يرحمكما الله. يدنو الفريق عبد المنعم رياض، يقول: يعز على مصرعكم! أُدعو الله ان يـدخلكم الجنة. قال مصطفى أبو هاشم: بشرك الله بالخير، قال الفريق عبد المنعم رياض: لولا اني أعلم ان في الأثر من ساعتي هذه

لاحببت ان توصيني بكل ما أهمك. فقال له مصطفى: أني أوصيك بهذه. وأشار إلى راية عبد الناصر، ثم انشد:

نصــروك أحيـاء وعنــد ممـاتهم
يـوصي بنصرتـك الشفيق شفيقا

ثم حمل جـيمي كارتر، في جمع من أصحابه على أصحاب عبد الناصر، فتصدى لهم أحمد عرابي ومعه عشرة، فكشفوهم وقتلوا منهم الكسندر هيج، وقتل ثمانية من أصحاب عبـد الناصر بينهم أحمد عرابي. كان الرجل بعد الرجل يأتي إليه فيقول: السلام عليكم ورحمة الله يا نصير الفقراء، ونصـير الوطن. فيجيبه عبد الناصر قائلاً: وعليك السلام، ثم يقرأ: «ومنهم من قضى نحبه ومنه من ينتظر، وما بدلوا تبديلا. ولم ينقض وقت طويل حتى قتلوا جميعـاً فيما عـدا سبعة وقفـوا يذودون عن عبد الناصر الهجمات الأخيرة، سبعة لا غير، وهم ماسح أحذية، قتل اثناء قصف مدينة بور سعيد العشوائي، ودفن تحت الردم، ولم يسأل عنه أحد، ولم يستفسر عن غيبته أحد. ولم يتحر مصيره مخلوق لأنه كان غريباً، كذا لم يعثر على جثته في زمنه، وغلام يرتدي زياً قديماً وعمامة خضراء صغيرة لم أدر إلى أي عصر ينتمي. لكنني رأيته اثر جرح عميق عريض في ترقوته. رأيت اللواء شفيق سدراك، واحداً ممن عرفت، ممن استشهدوا يوم السادس عشر من أكتوبر، كـذا رأيت جواد حسني، وعصام الدالي. وجندي مجهول الاسم عندي، ورجل مغربي جاء إلى مصر عابراً وأقام في زمن بعيد، سمع بأخطار

الفرنجة فخرج مع الخارجين للمغازاة في سبيل الله. وقاتل حتى قتل. يبرز كل منهم إلى اثر صاحبه حتى لم يتبق إلا الغلام، فعانق عبد الناصر عناقاً مريراً، يتقدم راجلاً، يعترضه الجنرال رفائيل ايتان، يضر به فيصرعه، ينادي الغلام..

يا ابتاه عليك السلام مني..

تنهمر السهام، والطلقات الخارقة الحارقة حتى يصير درع عبد الناصر مرشوقاً كالقنفذ، يبقى مطروحاً على الأرض ملياً، ولو رغبوا قتله لفعلوا، يصيح الجلف الجافي من بعيد..

ويحكم .. ماذا تنتظرون .. اقتلوه..

تحاملوا عليه من كل جانب. ضربه الجنرال اريل شارون على كتفه الأيمن، وضربه جون فوستر دالاس على كتفه الأيسر. وضربه رونالد ريجان على عاتقه ثم انتزع مناحيم بيجن الرمح فطعنه في بواني صدره. ورماه جيرالد فورد بسهم فوقع في نحره، وعندئذ اشاروا للجلف الجافي، اذنوا له، فتقدم محمياً بهم، صدره مغطى بالقميص الواقي، حول معصمه ساعة تنذره بأي خطر قريب، وعصا تحوى فيها تحوى جهازاً يطلق مادة مخدرة لمن يريد الاقتراب منه لالحاق الأذى به. وفيها بعد قالت صحيفة الواشنطن بوست أن حمايته كلفت دافع الضرائب الامريكي ثلاثة مليارات من الدولارات. هكذا يكون هو اغلى العبيد سعراً منذ أن عرف العبيد، عندما اقترب من عبد الناصر اعطوه سيفاً، يغمض عينيه، يهوي بالسيف

فيحتز الرقبة، عندئذ بدأ القوم سلبه، فأخذ قميصه الجنرال الكسندر هيج، واخذ سراويله عثمان احمد عثمان المقاول، واخذ درعه مناحيم بيجين، واخذ قطيفة له كانت من خز امرأة الجلف وزوجته لعنها الله. واخذ خاتمه الياهو بن اليسار، واخذ فردة صندل كان يرتديه ذلك المذيع الذي قرأ الانذار تلو الانذار..

كنت احملق مذبوحاً من الألم فوق ذبحي الفعلي، ها أنا اسمع وأرى، ولا أفعل، لا أقدر، هذا حبيب اكتملت دورته، تجرعت الغصص، فغمرني حال دوني ودون الرسم عندي، ينتابني ضيق، يلف ما تبقى مني، غائب ستطول غيبته عني، فلا وعوده ستتردد في سمعي، ولا صوته سيصرف عني ترحاً، ولا ظهوره سيلوح لي، وعندما تتردد سيرته، سنقول، كان هنا يسعى، وكان هنا يخطب، وكان هنا يلوح، وكان يعد.. كان. انتبهت إلى حالي، وإذا بي ارتفع وأعلو، رأيت ما بين المشرق والمغرب مجللاً بسواد عقيم، دققت، تحققت، وعندئذ اطلعت على عجب عجاب، انهن نساء مصر كافة، من أزمنة متعاقبة، مختلفة، من مضارب خيام، وعشش بوص، وبيوت من الطين، أزياؤهن متنوعة، كذا أغطية رؤسهن، لكن ما يجمع بينهن انهن متشحات بسواد قديم، ينحن، يبكين، يتضرعن، يرثين الليث المولى، ويجزعن للمركب الموحولة الجانحة، رأيت جدتي كما عرفتها في طفولتي، نحيلة، طويلة، تلتحف بالشُقة الصعيدية، رأيت جدتي أم أبي عمياء لا ترى،

رأيت جدة لي عاشت في زمن بعيد، رأيت أمي واختي وجارتنا القديمة وامراتي وزميلاتها وكل من وقعت عليهن عيناي صدفة في طرقات مدينتي والقرى التي رحلت اليها، وبائعات فقيرات يفترشن الأرض بجوار الأضرحة، والمزارات وفساقي الموتى، رأيت امرأة العزيز، ورأيت شجرة الدر، ونساء الاحياء البلدية اللواتي خرجن متظاهرات، رأيت نساء حاسرات ونساء محجبات، نساء يقرأن ويتحدثن بعدة ألسنة، ونساء لا يميزن الحرف من الحرف، رأيت نساء خرجن من بطون الحواري في تلك الليلة المظلمة التي أعلن فيها عبد الناصر التنحي، كن حافيات، يجهلن وجهتهن في الظلام، والمدينة الخائفة، ارتفعت إلى مسافات اعلى فغابت عني اصواتهن، عرفت انني رأيت حشداً لم يتفق ان تجمع مثله من قبل في عالمنا الأرضي، وانهن لو وقفن صفاً واحداً لاحطن كوكبنا الأرضي سبع مرات عند خط الأستواء، تمنيت لوجلت بينهن، لو اصغيت الى لغاتهن ولهجاتهن، بعضها قديم مندثر لم افهمه، ومنها الذي لم تولد حروفه بعد، غير انني نأيت، ابطأ زمني، ركدت الحسرة في فؤادي، رددت: صبرا على النائبات صبرا. فكرت في ابي، اين هو، اين؟ عندما كدت اغمض عيني يأساً، وان أولى بعيداً عن وجودي، لمحت مولاي وسيدي، فخفضت جفني لأنني لا أقدر ان اخفض رأسي، قلت: هلل يا فؤادي وكبر، ما زال أمامي مقدار ما بين الثريا والثرى. انقلبت احوالي، فعرفت ذرا الفرح الانساني، تمنيت لو اجلت لحظة التلاقي

حتى لا تنقضي حلاوتها وتصبح ماضياً لا يمكنني استعادته، اتجهت اليه على مهل مؤجلاً النعمة، والصبوة، شغلني مرأى وجهه عن كل ما عرفته من كدورات، حمت حوله، وعندما اذن لي حططت على كتفه الايمن، فبللت ثيابه بدمائي، لأن عنقي ينـزف ولم يكف، استكنت، وصـار من عـزائي انني مـذبوح القفـا مثله، لم اعن بالسؤال عن مصيـري أو عـما سيجـري، وهل سيلتئم شمـل رأسي وبدني؟ كنت فـرحـاً برؤياه. حتى اني صرت رقيقة الوصل بين الخشن واللين. بين الحار والبارد، بين الحزن والفرح. بين المظلم والمضيء. كنت في حركة داخلي حتى وسع رأسي المحزوز العالم كله. فلم اطق نفسي، لقد فهمت البشارة. آويت الى كتفه كما يأوى طفل الى حضن أبيه الذي عاد بعد زمنٍ بعيد. نظرت فرأيت جثمان عبد الناصر، عارياً بلا رأس، أُلقى في معارفي ان أبي يمشي الآن، يسعى في مكان شديد. عدت انعم بالقرب واستنشق الشوق من اعطاف الحبيب.. قلت:

الغريب من جافاه الحبيب
اجابني سيدي، سيد ساداتي..
بل الغريب من واصله الحبيب..

قلت: أما والحال هكذا، فاسمح لي بالبكاء على احوال احدثت هذه الجفوة، شرعت ادمع، مردداً، حسبي الله ونعم الوكيل...

* * *

موقف

الجمع

لعل انحدار الدمع يعقب راحة
من الوجد أو يشفي نجي البلابل

.. خالق الأصل والظل وما بينهما، فإن شاء حسر، وان شاء أسبغ، فالق الحب والنوى، فـإن أراد جمع وان رغب فرق، فاتق الرتق، فإن شاء قرب وادنى، وان شاء اقصى، مجيب لدعوة الداعي، فإن شاء أعطى وان شاء منع. أوقفني في موقف الجمع وأنا ناقص، وليس لناقص أن يسأل عما ليس بناقص، كنت رأساً فقط، أما الجسد فبعيد، لا استقرار لي، ولا جنب عندي اضطجع عليه، وأصعب انواع الرحيل عندما يرحل الانسان داخل ذاته، فتمر به الدنيا ولا ينالها، وهذا من عذاب الدنيا، أوقفني وليس لي ساقان، أو ذراعان، هكذا تم انتقـالي من موقف الشـدة إلى موقف الجمـع، وهو مـوقف صعب، لـه من ايـام الاسبـوع يـوم الجمعـة، ومن النهـار اللحظات الفاصلة بـين الثانيـة والثانيـة، ومن الليل لحـظة انتصافه، انتمي إلى اليوم الراحل أو إلى اليوم المقبل؟، ومن الشهور فبراير اقصر الشهور عمراً، الشهور كلها تسبقـه أو تلحقه، محيطة به احاطة الأشقاء الكبار بأخيهم الأصغر، له من الألوان قوس قزح بدرجاته، ومن الطبيعة اكتمال أوراق الشجر في الربيع قبل فراق الاغصان الخريفي، علومه جمة،

فمنها علم اللقاء، وعلم اضافة الحرف إلى الحرف ليكتمل المعنى، وعلم وقوف الكواكب على خط مستقيم، واقتران الشمس بالقمر، وظهور النجوم وعلم ارجاع الأشياء إلى أصولها، وعلم الزوال والحكمة منه، وعلم كل من عليها فان، وعلم لا تدري نفس بأي أرض تموت ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً، وعلم اللحظات القديمة، وفيه علم الطول والعرض، وما ينتج إذا تجاورا، وعلم نجوى، وعلم سلوى، وعلم المولعين بالوصل، وعلم لحظة استقرار الشعور بالفراق، وعلم اللحظة الاخيرة التي لن نرى بعدها أحباباً نعرفهم أو مكاناً ارتبطنا به، وقضينا فيه زمناً، وترديدنا الصامت: وهل سنرى ما رأيناه مرة أخرى؟ وهل تكون الرجعى؟، كذا علم اجترار الزمن القديم، والأشواق المجهولة وعلم الخشوع المطلق عند المرور بالطلل الدارس، والشجر المجتث، والمياه التي جفت في القنوات القديمة. والسواقي العتيقة التي كفت عن الدوران، والمقاهي التي أغلقت أبوابها وانفض منها السمار والاغراب والعابرون وعلم انطواء الدهر، وعلم تلامس الشفاه للمرة الأولى، وللمرة الأخيرة، فمن يذكر ومن يعي لحظتي التلاقي بينه وبين حبيبه. وأما العلوم التي تخصني في هذا الموقف فعديدة، منها علم ضعفي وقلة حيلتي. إعلم أيها المتلقي الفطن انني ضعيف. أضعف مما تتصور، وأرق مما تتخيل، وقلبي لا يقوى على استعادة الزمن القديم، وعشقي الذي لن يعود، كمالا أقدر على وصل وريقة شجرة بغصنها الذي

انفصلت عنه، ومن علومي علم الفرق بين نهار اتوقع عند انتهائه رجوع أبي إلى البيت، أو مجيئه إلى بيتي - عندما أصبحت رباً لبيت، وصرت أباً بدوري، ومروري بمبنى الوزارة وأنا أعرف أنه في مكان ما منه - وبين نهار أعرف انه سينقضي وأنني لن أراه أبداً، ويقيني انني لن اسمع خطواته فوق السلم، ولا طرقاته فوق الباب، كذا علم نسيان الأصوات، مذاقها، وترددها، تلك الأصوات التي قضينا زمناً نصغى إليها، ونحاورها، وبعد غيابها يخيل إلينا انها معنا وانها لن تغيب قط. حتى تجيء اللحظة التي نكتشف فيها فجأة اننا لن نستعيدها أبداً. اننا نسيناها. انها غابت إلى الأبد، وان ترددها من حين إلى حين في الذاكرة الانسانية لن يدل عليها قط. تذكرت النعمة التي حلت بي عندما مررت بمنزل الأصوال الباقية، لكنها نعمة موقوتة شأن النعم كلها، هذه علوم جمة، لو افضت فيها وشرحت فسأطيل وافصل، وهذا يرضيني، ويهدئني، لكنني أخشى عليك الملل أو الضيق أيها المتلقي عني، لذا سأتجاوز واحدثك عن رحيلي في هذا الموقف إلى زمن لم أولد فيه بعد، زمن لم استنشق هواءه، ولم تقع عيناي على فراغاته، وفضاءاته، سبح رأسي في ثلاثينيات قرننا العشرين هذا الذي ولدت فيه، وربما أموت فيه، لا تدري نفس بأي أرض تموت، رأيت رؤيا سررت بها، إذ انها لم تتحقق لغيري، حلقت في فضاء ميدان الحسين القاهري، وكنت أرى ولا يراني أحد، درت حول المئذنة النحيلة الرشيقة السامقة، سددت بصري إلى

الدكاكين والمقهى القديم، فرأيته هو، رأيت أصلي، ورأيت الجذع الذي تفرع منه غصني، رأيت أبي، الحبيب القريب الذي نأى، وبذهابه وموته مات جزء من عمري قد يكون أطول واغنى وأعمق من الجزء المتبقي، مات جزء من تاريخي، ليس للانسان الا ما سعى، بالأمس نسيت وغداً انسى، صرت مقطوع الجذر، والريح يمكنها اقتلاعي، صرت متأهباً لدوران الدائرة عليّ، وتمكن النائبة مني، ولم أعد ماكثاً غير بعيد، رأيت أبي الذي لن اصغى إلى صوته في حياتي الدنيوية المتبقية، ولن أحاوره، إذ ولى زمن المؤانسة وراحت أوقات الغبطة برؤيته، خاصة زمن طفولتي، وقد كنت ابتهج في بداية سنيني، وأصير قرير العين، ناعم الأحلام، مطمئناً لمجيء الغد، عندما أنام إلى جواره، وافتح عيني في الصباح فألقاه بجواري، ويزداد فرحي عندما أعلم أن اليوم عطلة وانه باق معنا، لكن لما يبست وشببت واشتد عودي ولّى زمن القربى ولم أعد أنام إلى جواره، ليت العهد يعود، ليتني انعم بجواره، بالحديث إليه، ليته يأذن لي بلقاء، أقول ذلك وانا اراه من موضع تحليقي، واتابع خطوه اثناء عبور الميدان، اراه في لحظة يستحيل على غيري ان يراه فيها، انه قادم من موقف الشدة حيث كان يحمل الراية ويشهر السيف اليماني، رأيت الندبة في ساقه لم تلتئم بعد، حدقت فتبينت غباراً قديماً يتخلل شعره، ذرات رمال من تلك الصحراء التي حوصر فيها مع صحبه، عرفت من اين جاءت هذه الذرات لكنني لم أعرف إلى أين ستمضي

بعد مفارقتها لرأسه، وهنا أوتيت كشفاً مناسباً للموقف فرأيت هذه الذرات وقد توزعت على سبعين موضعاً من الدنيا بعد مفارقتها لرأسه وبعد رحيله الأبدي، لـو ذكرتهـا كلها، لـو احصيتها للآن لاستوعبت مجلداً يصعب حمله، احطت برحلة كل منها، عرفت كيف وصلت كل ذرة إلى الـوضع الـذي وصلت إليه، انتهى الكشف وحططت فـوق شرفـة المئذنـة الدائرية، ومما خصت به قدرتي الاحاطة بعدة أشياء في وقت واحد، كأن أصغي إلى أحاديث عدة وأميز كلا منها، أو أرى ما يجري في مكانين متباعدين أو أكثر، ها هو أبي يقف أمام مقهى العجم، انـه مقهى قديم انـدثر في خمسينيـات قرننـا العشرين. وموضعه الآن في زمنك ايها المتلقي عني مجموعة من الدكاكين تتغير المعالم، وتتبدل المباني، لكن الأرض التي عرفت وقع خطاه هي هي، كم من أماكن تردد عليها، وكم من أبواب طرقها، وحشايا استند إليهـا، ومقاعـد ودكك جلس فـوقها، ثم زالت، تفككت، تفـرقت اجزاؤهـا، وددت لو تعقبت اثر كل ما لامسه أبي، أو وقعت عيناه عليه، لعل شيئاً ما يحتفظ بأثر غامض منه، لم تتحقق رغبتي، لكنني تلقيت وعداً جميلاً باحتمال وقوع ذلك، عندما يحين الوقت والموضع المناسبان، ها هو يتردد، لا يدخل المقهى، لو جلس بمفرده سيطلب كوب شاي أو فنجان قهـوة، سيكلفه ذلـك خمس مليمات، وهو في حاجة إلى المليم الواحد، فمنذ أمد وهو بلا عمل، منذ ان فارقت يداه راية عبد الناصر، منذ أن رحل عن

تلك الموقعة بطريقة ما، وقع عليه الاختيار ليبقى، وليقص ما جرى على أجيال متعاقبة، وفي أزمنة متباعدة، حتى لا يضيع ما جرى كما ضاعت أمور جمة، غير أنه الآن بلا مورد رزق، منقطع، وحيد، ومدخره القديم ينفد، والأماني الكبار تخف ظلالها، والعمر يجري، ها هو يلمح احد أقاربه، ابراهيم، وابراهيم هذا عرفته في صغري، وفي كبري، يمت إليه بصلة قرابة، كان آخر من زاره أبي ليلة الثلاثاء، ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر، يتشجع أبي فيدخل المقهى، يصافحه ابراهيم، يسأله عن أحواله، يقول أبي أن الدنيا كلها مغلقة في وجهه، يقول ابراهيم ان الفرج قريب، يقول ان خلف بك سيأتي، ها هو خلف بك يصغي إلى أبي، أبي مطرق، وإطراقته هذه واحدة من اطراقات عديدة ادت إلى تغيير بعض مما تصور انه لن يتغير، والى وهن ما تصور انه لن يهن أبداً، اطراقات متفرقة، كل منها وقعت في زمن، شعر ببعضها، ولم يشعر بالأخرى، لم يلحظ ترابطها، وتتابعها، وتأثير كل منها. بحيث ادت إلى وضع لم يتوقعه، وتراجع عن نوايا لم يتصوره. انها تلك اللحظات التي تمر بنا، ولا ننتبه، لكن بعد حين طال أو قصر يحدث التغير، يصبح الانسان ليس هو، مع انه هو هو، لم يتغير ولم يتبدل، ها هو يداري خوفه وقلقه بينما باطنه يأمل وتلك أحاسيس شتى جهلناها ولم نطلع على مكنونها، ولم نقف على اسرارها، كذلك هذه اللحظة بعينها، وقد عاودت ابي مراراً، وكانت آخر مرات استرجاعها يوم الأحد الموافق

للسادس والعشرين من شهر اكتوبر. ومن الأمور العجيبة التي وقفت عليها انه استعادها في حضوري مراراً. لكنني لم الحظ ذلك ولم انتبه، وأنّى لي ان أقف على سر العلاقة بين تغير ملامحه الذي يكاد لا يرى أو يرصد، وبين ما يجول في خاطره، وهذا علم قائم بذاته، غامض، واسراره بلا حصر، والعجيب الغريب ان أبي اثناء استعادته لهذه اللحظة كان دائمًا يخشى الا تنتهي به إلى النتيجة التي انتهت إليها في ذلك الزمان البعيد. وقد عرفت يا أحبائي مثل هذا الشعور مع فارق في الموقف. حدث أثناء سهري عند صديق حميم، دعانا ذات ليلة إلى العشاء، ثم جاء بجهاز العرض، رأينا ستة أفلام متعاقبة، رأينا العربة التي تجر المدفع عيار ١٣٠ ملليمتراً، تتوقف في مواجهة المنصة، ونزول خالد منها، وعودته الخاطفة ليتناول مدفعه ثم تقدمه الجسور ليفنى الزمن الخسيس، ليقضي على الجلف الجافي، ليثأر مما جرى ويجري، وما وقع منه في موقف الشدة عندما منع الماء عن الداعين إلى الثأر من مقتل مولانا وسيدنا، وفي كل مرة نرى فيلمًا جديداً، وتتوقف العربة، أخشى ألا تنتهي اللحظات إلى ما انتهت إليه، أخشى أن يعاق خالد، الا يتم ما بدأه، وكأني أعيش وقوع الحدث نفسه بدون معرفة نتيجته. ها هو خلف بك يصغي بوجه جاد الملامح شأن من يقبض بيده على سلطة، ومن يقدر على تقرير أمر، بعد ان اصغى طلب ـ بدون النظر إلى أبي ـ أن يكتب طلباً، وأن يأتي به، لعل وعسى، يرفع ابي صوته بالدعاء،

ينصرف، اراه في مكان قريب يمسك ورقة بيضاء. انه حائر، لا بد أن يلحق بخلف بك قبل ذهابه، تلك فرصة قد لا تسنح مرة اخرى. لكن من يكتب الطلب؟ لو. . لو انه تلقى قدراً من التعليم. لو التحق بالازهر، ليس من اللائق ان يطلب من خلف بك كتابة الطلب له، عند هذا الحد وقع عجب، ومع ان العجائب تواردت عليّ حتى لم أعد اعجب لشيء، الا ان ما جرى اذهلني وأنا رأس مقطوع بلا جسد، لكنني رأيت جسدي يمضي امامي، امام ابي، يتصل برأس ليس هو رأسي، ويحمل وجهاً ليس وجهي، وعندما دققت النظر تخايلت لعيني ملامح عبد الناصر، لكنني لم اثق انه هو، غير انني تأكدت من جسدي، اذ كنت اشعر به وأنا في مرقدي على حافة الشرفة الدائرية لمسجد الحبيب المنزه، والشفيع الأوفى، تلك يدي، وهذا صدري، هذه اصابعي، ادركني شوق نادر، شوق من نفس إلى نفس، لفتني وحشة، وحن رأسي إلى جذعي، ورقت هامتي لجذري، وهذا شعور خصصت به ولم يتفق وقوعه لاحدٍ من بني البشر، حتى لمشايخي الأجلاء، اذ ان أحداً منهم لم يقف مثل موقفي، ها هي قدماي تخطوان على مقربة من ابي، يسعى تجاهي، يطلب السماح بلحظات قليلة من الوقت الغالي ومساعدته على كتابة هذا الطلب من سطور قليلة، عندئذ امتدت يدي إلى جيب تلك الثياب التي كانت تستر جسدي تناولت قلما، نزعت غطاءه، وفوق منضدة مستديرة من نحاس امام دكان يبيع

الخـرز الملون، والخزف العتيق، بـدأت يـدي اليمنى تكتب الطلب الذي أخبر ابي عن مضمونه شفاهة، فخطت يدي التي بمعزل عني، ما نصه..

السيد صاحب العزة والمعالي وكيل وزارة الزراعة.

تحيه طيبة،

أتقدم إلى معاليكم، راجياً مساعدتي في الحصول على عمل باليومية كعتال، حيث اني رجل فقير واعول اسرة كبيرة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مقدمه لجنابكم

..تمتد يدي بالقلم، يتناوله ابي، على مهل يوقع...

أحمد الغيطاني

تأثرت بالصيغة البسيطة والكلمات القليلة، كما أني فوجئت بشيء لم أعرفه أبداً، وما أكثر الأشياء التي لا أعرفها عن أبي، آه يا أسفي، ولم أكن أيها المتلقي الفطن جاحداً به، لا والله العظيم، لكنه زمني القبيح، وغفلة الطبيعة الانسانية، عرفت ان أبي تقدم للعمل كعتال، وانه قضى زمناً يحمل أجولة بذور القطن في قسم البذرة. وقد كنت أعرف دائمًا انه ساعٍ يحمل الخطابات ويفرقها، هذا واقع حقيقي لكنه لم يبدأ ولم يتحقق إلا بعد عمله أربع سنوات في قسم البذرة، وهـذه الحقيقة موقعها علم تواضع الآمال، وهو علم يخصنا كلنا، أماماً يخص

ابي منه فكثير، وقد تواضعت آماله بعد التحاقه، وبعد زواجه، صار انتقاله من عمله كعتال يحمل الأجولة إلى ساع يفرق البريد أمراً يستحق المجاهدة، وأشد أهمية من التحاقه بالأزهر. أمنيته الأولى، وهنا معانٍ عديدة يتضمنها هذا العلم وقفت على بعضها، فمن ذلك انه ليس كل من مد يده نال ما يطلب ولا كل من نام حلم بما يريد، ولا كل من ادعى سلم له بدعواه، ولا كل من دعا اجيب، ولا كل من وصل ود، ولا كل من بكى أرضى، ولا كل من منع خاب، ولا كل من سبح غرق، ولا كل من خُوف ارتعد، ولا كل من أومن اطمأن، وفي موقعي هذا استعدت أمراً جرى قبل ان يجري، وتم قبل أن يبدأ، إذ جال برأسي عندما ذهبت إلى الوزارة، وصعدت مع شقيقي الأصغر إلى قسم التحقيقات القانونية، مررت بالطرقة التي كان يجلس فيها، دخلت لأنهي اجراءات صرف المعاش لأمي ولشقيقتي التي لم تتزوج بعد، جلست إلى مكتب أحد الموظفين، والحق انهم قابلوني بالرحمة، وغضوا البصر عندما ذرفت دمع الحزن، بعد أن رأيت جدولاً يضم اسماء عاملين استحقوا مكافأة، كان اسم أبي مدرجاً، الا ان خطا طويلاً بالمداد الأحمر انطلق امامه يسد جميع الخانات، وينتهي بعبارة تقول انه توفي في ٢٨/١٠/١٩٨٠، قلبت الأوراق في ملف الخدمة، طلبات إجازة، وكشوف، وتوقيعات أبي، وقعها في أيام شتوية باردة، وأيام صيفية، في أيام ممطرة، وأيام صافية، في الصباح وعند الظهيرة، وعند المساء، وهو حزين، وهـو

فرح، وهو يفكر فينا، وهو خلي البال، وقلبت الأوراق، حتى وقعت عيناي على أول ورقة بالملف، استوقفتني، انه خطى، الطلب الذي كتبته يدي اثناء انفصال رأسي، وتفرق جسدي، تأثرت بالصيغة البسيطة، رأيت لحظة من لحظات أبي، هذا الطلب البسيط إحدى المقدمات التي أدت إلى وجودي الدنيوي، قرأت ما عليه من تأشيرات، توقفت عند تأشيرة بقلم أحمر انيق الخط، «يعين بأجر يومي قدره خمسة قروش»، خمسة قروش صاغ، عدت إلى موقفي هذا، استدعيت ما لم يقع بعد، رأيت الطلب بعد رحيل أبي ـ ولون الحبر القديم، والورقة البيضاء التي أصفر لون اطرافها، تستقر الآن في موقع مجهول لي، خزانة حكومية عتيقة، أو مخزن في طابق أرضي، رأيت أبي في الوزارة، أيام عمله الأولى، ها هو يستجمع همته، وقواه، رأيت ساقيه ترتجفان تحت ثقل الاجولة، تتوتر عروقهما، يزداد باطنها التصاقاً وقرباً من الأرض، وكان بمقدوري تحديد وتمييز هذه المواضع التي توقف عندها لحظات عابرة ليحكم وضع حمله الثقيل على ظهره. كان يضع طرف جلبابه الامامي بين أسنانه ويرفع يديه إلى الخلف بينما يرقد الجوال المليء بالبذرة فوق ظهره المنحني، عند حد معلوم تبدلت ساقا أبي بساقيّ أنا، كذا تبدلت سلسلة ظهره بدءاً من فقرات العنق السبع وحتى العصعص، صار ثقله ثقلي، وانينه أنيني، والمه المكتوم المي، وارتجافه ارتجافي، وقد وجدت ذلك عظيًما خاصة وأن آهة واحدة لم تصدر عنه، حتى لا يظنونه ضعيفاً، غير قادر

على التحمل، ارهقني ثقل الحمل الأول، والذي كاد أبي يسقط تحته لولا أنه تمالك نفسه والله سلم!، كان الفارق بين ظهري وظهر أبي، وساقي وساقي أبي أنه غالب المر زمناً، وقاسى الأوجاع دهراً، وحمل قرب المياه في البلدة، وأغنام أقاربه وعدى بها مصارف المياه، أما ظهري أنا وساقاي فلم تتعودا حمل الأثقال لأنه هو جنبني ذلك بكده، وحماني بتعبه، وعندما اعتقلني الضابط والمخبر وأخذوا عشرات من كتبي، حملها أبي فوق ظهره حتى العربة الرمادية التي وقفت تنتظر عند مدخل الحارة، خفت ان اخذل أبي فلا يتحمل ظهري ثقل الاجولة، ان تلتوي قدماي، عندئذ يفقد رزقه، وهذا من الاسباب التي اضيفت إلى جملة اسباب عذابي، ثم اشتد الأمر فحمل ظهري في مرة واحدة مقدار ما حمله أبي في يوم واحد، ثم في اسبوع واحد، ثم في شهر كامل، ثم في مدة عمله كعتال، وبرغم تعاظم عذابي، وشدته على جسمي، فقد كان نعيمي في بلائي، ودوائي في دائي، وراحتي في تعبي، ذلك اني رأيت قسماً من جسدي ملتئماً بأبي، إلى درجة انني حلمت بنعمة لا حرمان بعدها، ووصل لا هجر يعقبه، وامن لا خوف يدهمه، كما أني ملكت الدليل على اتصال اعضائي المنفصلة عني برأسي، فقد عانى رأسي ما تعانيه اعضائي، تلقى منها وأخذ عنها، فعرفت أن ثمة وصلاً محتملاً، وخيطاً غير مرئي لم ينقطع، وشملاً لم يتبدد تماماً، رضيت بما حل بي، ففي هذا عقاب عادل لجفائي، وعدم اهتمامي بالسؤال والاستفسار عن

غضون غارت في وجه أبي، ونظرة أسى لم أعها إلا بعد اختفائه عني، وذهابه الأبدي، وانعدام امكانية التلقي والرد بيننا، واليأس التام من التلاقي، حمت فوقه عند رجوعه من الوزارة في الدقي إلى سكنه القريب من الحسين، أراه ولا يراني، يمشي وحيداً من الدقي يعبر الكبارى فوق النيل، يقطع الطريق متمهلاً، يتلفت حوله أحياناً، يرتفع صوته بغناء صعيدي فيه حنين إلى المنبت والمنشأ، يسلي النفس في غربتها، ويدفع وحدته، ويوفر ثمن تذكرة الترام، أو الاوتوبيس، رأيته يستيقظ نشيطاً في غرفته التي لا تحتوي إلا على حصيرة قديمة، نفس الحجرة التي آوى فيها عبد الناصر ليلة قبل ظهورهما معاً في كربلاء، يتوضأ، يصلي، ثم يدعو الله الستر، ان يغمض عنه عيون أولاد الحرام، وأن يبارك له في ماله، ها هو يقطع الطريق من العطوف إلى الدقي في صباح باكر مندى، يصل قبل ان يصلوا، وينتظر، ثم تبدأ أحماله، فأعاني كل ما عانى، وأقاسي كل ما قاسى، رأيته يوم الجمعة يستيقظ نشيطاً، فرحاً، انه اليوم الذي يمضي فيه الوقت الأطول إلى جوار ضريح الحسين الحبيب، بعد الصلاة يمضي إلى مقهى العجم، يلمح خلف بك فيمضي إليه، يحييه في أدب، ويقف على مبعدة يسيرة لا يقربه لكن في غير ذلة، خلو من أي احساس بالضعة، يحمل تجاهه الود العظيم، انه السبب في جريان رزقه، وكانت تلك الوقفة وهذه الطلة بداية لعلاقة بينهما تقلبت بها الأحوال، وأمدتها الظروف بالمد والجزر، واستمرت حتى

ذلك اليوم الذي كنت أجهل موقعه قبل أن يجيء، الثامن والعشرون من اكتوبر، ها هو خلف بك يسأل أبي عن احواله. أبي يحمد الله، يدعو له بالعمر المديد، كان أبي يقول احياناً، اللهم لا تجعل يومه قبل يومي، وكنت أنا أخشى رحيل خلف بك فجأة، لأنني أعرف أن حزن أبي سيكون هائلاً، ولأن ثمة هاجساً حدثني دائماً، ان رباطاً خفياً يشد مصير كل منهما إلى الآخر، وقد أطال الله عمر خلف بك سنة ونصف سنة بعد رحيل أبي، ولا تزال البقايا الغالية والتي تحوي ملابسه وأوراقاً شتى، تضم شالاً حريرياً عليه رسم الكعبة أهداه إلى أبي اثر عودته من أرض الحجاز، كان أبي شديد الاعتزاز بهذا الشال، يفرده، ويطبقه بعناية، ويحفظه من كل سوء، يعرضه للهواء، ولا يلفه حول عنقه إلا في المناسبات التي يندر حدوثها، كذلك احتفظ بورقة من مجلة المصور بها تحقيق عن محكمة الخليفة، وقاضيها محمد خلف الحسيني، ويرجع تاريخه إلى أوائل الخمسينيات، ولو أني قلبت في مجلدات المجلة القديمة لعثرت عليه غير أني لم أفعل حتى الآن. في صغري، وفي ساعات صفاء أبي، أجلس إلى جواره طفلاً وأقرأ له هذا التحقيق الصحفي، يصغي مسروراً، وعندما كبرت وشببت وتشعبت طرقنا، وتعددت سبلنا لم أقرأه له أبداً. أسأل نفسي الآن بلا فائدة ترجى، لماذا وقد كنت قريباً منه بقلبي، لماذا لم انطق، ولم أعبر، فما وصله مني شحيح، شحيح، هذا ذنب ينوء به ظهري، فالنجا، النجا، في يوم الجمعة هذا يقابل أهل

البلدة، القادمين، أو المقيمين في مصر، يرحب بهم، وينفق ما معه في دعوة الذين نزلـوا مصر أول مـرة، وقد يصـر على صحبتهم إلى بيته المتواضع إن عـز المأوى للقادم الغريب، هذا ما فعله مع كثيرين، وكم من أهالي بلدتنا الذين جاءوا فقراء معدومين، تمددوا فوق هذه الحصيرة لياليهم الأولى، ثم مضوا عنه، ودارت بهم الأيام فاصبحوا من أهل الثراء، والجـاه، وكنت على وشك ان اذكر العديد من الأسماء التي أعرف، لولا انني امتنعت أيها القارىء الفطن، إذ أعلم أن ذلك لن يرضى ابي في غيبته الأبدية عني، وربما اعتبره مني تشهيراً بقوم اسدى إليهم معروفاً ضئيلاً، والحق انني لم اسمع منه هو، بل سمعت بما قام به من أمي وخالي وأعمامي وآخرين، يرحمنا الله من بعده، ها هو يسعى ليطل على مريض من أقاربه، أو معارفه، أو ليشارك في فرح، يقضي واجباً هنا وآخر هناك، يضحك عندما يجد نفسه في رفقة وانس، يقص الأحداث القـديمة، والانساب والقرابات، والدرجات التي شغلها كبار المشهورين قبل ان يصبحوا وزراء، أو باشوات، أو زعماء، كان يقول أحياناً، أقربهم إلى نفسي عبد الناصر لأنه انصف الفقير من الغني، ولأن والده كان رجلاً بسيطاً مثلي، انتبهت اثناء تهويمي كما ينتبه الغافل، رصدت مرور لحظة عبرت بأبي كرفة رمش، لحظة استقر فيها وهن تسلل إلى رغبته القديمة، المؤجلة، أي الدراسة في الأزهر. لا أقول انقطاع الرغبة، أو اندثـارها، عسى ان تعينني الكلمات على التعبير عما رأيته من فضائي

الذي اسبح فيه، انها لحظة مارقة لا يرصدها الوعي، ولا يدركها في حينها، ثم تتكرر على فترات متقاربة أو متباعدة، فتضعف همة، أو تتفسخ فكرة، أو تفتر عزيمة، طرح النوايا القديمة لا يثمر فجأة، لا يتقرر بغتة، انما يتولد على مهل، يتسلل بطيئاً، ثم يندلع فجأة كلهيب شمعة، يبدو مستقراً، مرسلاً ضوءه، لفترة، ثم يتوهج لثانية، ويعود ليخبو، غير أني رصدت اللحظة الأولى لانثناء أبي عن مقصده القديم، وتلك لحظة بدت كخفقة عابرة، أثناء مروره ما بين شجرتين قائمتين حتى الآن، بحذاء النيل عند منطقة العجوزة، غير ان شعوراً لم يفارقه، ومؤداه ان كل ما يمر به من ظروف وعرة عابر، وان ثمة وضعاً أفضل ينتظره، وان ثمة واقعاً مريحاً سيصل إليه يوماً، لعلي أكون قد وقفت في شرحي لما رأيت، يحوم رأسي ويسبح في فضاءات مصر، رحلت مع الاصائل إلى الجنوب، إلى جهينة، ها هو أبي يعود لأول مرة بعد خروجه مضطراً، وبعد عدد من السنوات لم أدر مقدارها، لأن مولاي واركان الديوان لم يطلعوني على تاريخ خروجه أو عودته، وذلك كعقاب لي على عدم معرفتي منه مباشرة، رأيت عيني أبي، وشوقه، ولهفته على رؤية كل المواضع ذات المعنى والدلالة، اصغي إليه يتحدث في رحبة بين البيوت، الجالس إليه هو الشيخ عبد اللطيف محمد علي، والشيخ هاشم الكبير، قال الشيخ عبد اللطيف أن الوقت قد حان ليكمل نصف دينه، العمر يتقدم به، ولم يعد صغيراً، أم أنه ينتظر حتى تلف عليه

امرأة من نساء مصر فتطويه، لماذا لا يفكر والبلدة أمامه مليئة، مزدحمة. قال الشيخ هاشم الكبير ان هذا صحيح، واذا كان الله قد يسر له الرزق الحلال فلماذا يتأخر؟، أطرق أبي وفي النفس حاجات شتى، لكنه قال ان عمله صعب، وعـائده قليل. خمسة قروش، هل تفتح بيتاً، الزواج مسؤولية. دنوت منهم، كنت موجوداً وغير موجود، اراهم ولا يرونني، هذا وجه أبي، وتلك حيرته التي أعرف ملامحها وترقرقها. لا أدري، لماذا أدركني الحزن فجأة، فارتفعت محلقاً في فضاء البلدة، ذرفت دموعاً تساقطت فوق الدرب الذي يقسم البيوت إلى شقين متواجهين، ولم ينتبه بعد لأن دموعي قليلة، شاحبة، ولأن أوان المطر لا يزال بعيـداً، نظرت إلى البلدة من عـل، فرأيتهـا مضمومة، محاطة بالنخيل، والبيوت الصغيرة، في احدها ولد أبي، وفي بيت آخر يجلس الآن، وكنت أجهل موضع جسدي، معزولاً عنه، غريباً، فالاختلاف سمة زمني، لا تتشابه أحوالي فيه، ليس في كل حين أخص بالدعة، ولا في كل وقت أناغي بلحن مطرب، كنت عرضة لعتاب غامض ليس ينقطع، وبلاء محوماً أدركني طرف منه، أمر ثقيل بدأ بفراق أبي لن يرتفع. وضيق وكمد لتواجد عدوي في وطني، يتنفس الهواء ذاته، وشوق لرؤية عبد الناصر الذي يبدو لي الآن حلماً بعيداً، لمت نفسي لأني ضقت به في زمنه، وهذا قدر الانسان، لا يعرف جوهره إلا بعد انقضائه، ولا يدرك كماله إلا بعد أفوله. فكان ندمي على احبابي في مقدار ندم الذين تخلوا عن الحسين، ولم

ينصروه، ولم يخرجوا لنجدته حياً وانفاسه مترددة وقلبه خافق. وكان وجدي ممزقاً، مشتتاً، زمني العجيب يجمع ويفرق، فإذا اينعت نفسي بالأمنيات، اختلجت خواطري بالظنون، واذا انتعشت آمالي بالتوقع، تضببت غاياتي وصعبت، وإذا تحركت إرادتي هددها الذبول، آه، ما من ذكر إلا وادركه نسيان، وكما نسيت غداً أنسى، ما من حب إلا شعثه السلو. عواطف ملأتني يوماً، تهت بها، واختلت، وظننت انها لن تبيد أبداً، ثم جاء حين من الدهر على عواطفي فاصبحت بدداً، غربت وأفلت، جاء زمن بردت فيه نار قلبي، آه، ما من وجد الا أدركه النقص، وما من فؤاد الا كدر بالريب، وما من سمع اصغى إلا وبرم، وما من لسان اسهب إلا كف، ما من عين بكت أبداً، وما من خاطر استقر وتمهل، ما من قريب إلا اصبح بعيداً، وما من حبيب إلا صار غريباً، هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً، ما نحن وكل المحدثات الا خواطر غير مقيمة في ذاكرة الزمن. لكن.. أي زمن، ما الزمن؟ ما الدهر؟ ما الوقت؟. صحت في طوافي الليلي وأنا هائم بلا مستقر، بلا مأوى.

يا حبيبي.. يا مولاي، يا مجير أبي..

لم يخيبني الحسين، تمثل لي بشراً سوياً، وكائناً مكتملاً، لا يدركه نقص أنساني.

قلت بلسان حيرتي..

إلى أي مجال ارحل؟ في أي فراغ اتحرك؟ أي قوة تدفعني؟ لماذا الافول؟ لماذا النسيان، لماذا لا أختار ميعاد غروبي قبل ان يلوح ضوء شفقي؟ الزمن، انه الدهر، أي شيء هو؟؟

ينظر إليّ، يصمت! يرتج عندي، لقد فهمت عنه، تلك خطيئتي الثانية، وسوس لي فؤادي، واغرتني خواطري، فقلت وتساءلت عما يجب الا اسأل عنه، لو سألته عما لم احط به علماً للمرة الثالثة، سيبلى وجودي، وأعود الى سيرتي الأولى، ستصير تلك التجليات كلها إلى عدم في عدم، اسدل جفني تائباً، مستغفراً، راجياً العفو عني، اشعر بنأيه الوئيد، بابتعاد الحبيب، يعاودني ذلك الجوع الذي لا تحركه معدة، هذا الحرمان الذي لا تغذيه شهوة. يسقط ظل عليّ، يجيئني خالد في طيرانه الأبدي، ابدي الدهشة البريئة..

هل تعرف ايضاً ذلك الزمان؟.

وبدون ان يلفظ، بدون ان يجيبني، تلقيت المعارف والحقائق، فمنذ وقوفه معصوب العينين في صباح ذلك الخميس الباكر امام فرقة الاعدام، صباح ذلك الخميس المنتمي الى زمني، تحرر هو وصحبه من كافة القيود، فملك هو زمان العبر كله، وتولى صاحبه الثاني الزمن الآتي، واختص صاحبه الثالث بالزمن الآفل، واحاط صاحبه الرابع بالازمنة ذات الشواهد والدلالات، أما صاحبه الخامس فكان من اصحاب الزمن الحاضر وهم قلة، تحولوا إلى خمسة طيور من ضوء، وزهر،

وندى، وضباب، وظل، صيغ خالد من ضوء، وترى عبد الحميد فتوشك ان تهتف، ما لهذا الطائر وريشه الغريب فاذا دنوت منه وجدت اوراقاً من زهور الدنيا، أما حسين فصيغ من ذلك الضباب الذي يرى عند الفجر. وكان عطا من قطرات الندى، يدنو من قرص الشمس فلا يتبخر ولا يتلاشى، ويحوم حول الاحباب في ذروة الحرارة فيلطف ويخفف، أما عبد السلام فله الظل والنجوى، صار مأواهم الدهر، وتجوالهم عبر الابد، واختص خالد بأمور جمة، اذكر منها وقصدي ضرب المثال لا الحصر، أوكل اليه رى كل صنوف النبات في بر مصر، فهو الذي يسقى تلك الصفصافات المظللة، وأشجار النخيل في أبديتها، وغصن الريحان اليتيم الحزين الذي نما بالقرب من قبر أبي، وهو الذي يحمل بذور اللقاح عبر الفراغات من زهرة الى زهرة، وهو الذي ينذر بالخطر اذ يلوح، زلزالاً كان أو صاعقة كونية، وأخذ صوته ذلك الهاتف الخفي الذي يصيح بالناس في أعماق الليل، والذي ناداني في بدء تجلياتي ودعاني إلى الرحيل فاستجبت، كذا فهو الذي أوكلته رئيسة الديوان باطعامي، رنوت اليه، اغدقت بعيني عرفاني له، واعجابي بجرأته، وشجاعته، وثأره لنا من الجلف الجافي، كدت استفسر منه عن الحين المقدر الذي سنتبادل فيه الحديث، متى أسأله فيجيبني؟ متى أحاوره ويحاورني؟ لكنه قطر في فمي المن والسلوى، الرضاب العذب، اشار بجناحه الأيمن الى هناك، عرفت انه يشير إلى أبي، فعدت

انظر إلى أصلي، رأيت ظهيرة جهينة الحادة، وشممت رائحة الخبيز، والأفران الموقدة، وأجولة الطحين، وقواديس السواقي المصنوعة من الجلد والمضمخة بماء الأعماق، يجلس ابي الى الشيخ عبد اللطيف، الشمس في الزوال، ونسمة تعبر سعف النخلات البحرية، وعجوز يتثاءب في المسجد القريب، وثلاثة صبية يلعبون السيجة، وجمل يركع محملاً بالبوص عند المخزن البحري، وجدتي عائشة تقول لأمي التي لا تزال بكراً: اخرجي بهذه الأرغفة الى جدتك نجمة، امي تلف الخبز الساخن في طرف طرحتها السوداء، تخطو خارج البيت، قبل أن تستدير الى جهة اليمين مدت الخطى، يبدو انها لمحت الرجلين، يقعدان في الظل، وعند الخطوة السابعة بعد خروجها من باب البيت تقع عينا ابي عليها، يدركه شعور غامض، حيرة، ونشوة، وأطياف من عالم المرأة الذي لا يزال مجهولاً عنده، قبل ان تختفي عند المنحنى يسأل..

ابنة من هذه؟

يجيبه الشيخ عبد اللطيف..

ابنة علي باشا

يقول أبي..

الشيخ علي باشا المداح؟؟

يجيبه الشيخ عبد اللطيف..

نعم.. يرحمه الله، لم يعوضنا الله بصوت يشبه صوته..

يقول بعد اطراقة قصيرة..

اسمع يا أحمد.. أخطبها لك؟

فينظر اليه أبي حائراً، خجلاً، لا يجيب..».

* * *

جمال الغيطاني

١٥ يوليو ١٩٨٢ م

المنزل ـ حلوان

الثمن



المستقبل العربى للنشر والتوزيع
٤١ شارع بيروت - مصر الجديدة
القاهرة - ت : ٦٦٥٩٠٠